نازك الملائكة





الأعمال الشعرية الكاملة . الجزء الأول

- مأساة حياة
- عاشقة الليل
- أغنية الإنسان
- شظايا ورماد

المجلس الأعلى للثقافة

نازك الملائكة

الأعمال الشعرية الكاملة

(الجزء الأول)

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٢

رقـم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٦٦٧
I.S.B.N. 977 - 305 - 332 - 6

- مأساة حياة
- أغنية الإنسان
- عاشقة الليل
- شظايا ورماد

تقدمة

أ.د عبده بدوى

– ١ –

كـان كل شيء يسـاعـد على أن تكون «نازك الملائكة» مميّـزة فى عـالم الشعر، فقد عـاشت نفسيًا فى مناخ عربى كان الشعر أوضح مـلامحه، فقديمًا تنتـمى إلى المناذرة الذين استـقرّوا فى إمـارة «الحِيـرة»، وكان فى طليـعتـهم «النعمـان بن المنذر»، وحديثـا نعرف أنها كـانت وليدة ما يـسميـه ابن رشيق «البيت الشعرى[١]»، فقد كان جدّها لأمها محمد حسن كبة إماما فى الفقه، فى القـرن التـاسع عشـر وأوضح الشـعراء فـى هذا القرن، أمـا أمـها «سـليمـة عبـدالرزاق» فهى صاحبـة ديوان أنشودة المجد، ووالدها صادق مـدرس النحو كان يتعـاطى الشعر، وله أرجوزة فى أكثر من ثلاثة آلاف بيت، وصـف فيها رحلته إلى إيران عام ١٩٥٦، كما قال الشعـر خالاها: جميل وعبدالصاحب، ومن خلال هذا الـزّخم الشعرى كـان الاهتداء إلى تجـربة جديدة فى العـصر الحديث، فيـما يسمّى «الشعر الأسـرى المشترك»، فقد كـانت الشاعرة والأم، والخال عـبدالصاحب يجـتمعـون، ثم يكتب أحدهم بيـتًا كمطلع لإحـساس يشغله، ثم تمرُّ الورقة عليهم، وكل واحد يضيف بيتا على الوزن والقافية حتى تنتهى القـصيدة، والشاعـرة تقول «فتحنا أعـيننا على الشعر وأنغامـه، وقرأنا العروض معا،وعشنا صبانا نتـبادل قصائد الدعابة، ونظم الأهاجى الفكاهية، والألغاز، والتاريخ، والتشطير، والتخميس والموشح، والدوبيت، ومازلنا حتى الآن نجتمع لنظم القـصائد المشتركة، وأحـياناً نتبادل رسائـل منظومة من أولها إلى آخرها[٢]».

والملاحظ أن الشاعرة قد أخلصت نفسها للشعر من وقت بعيد، وبخاصة شعر المطولات، فقد كتبت «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» في ثلاث صور شعرية لقصيدة واحدة، أولها قد نظم بين سنة ١٩٤٥، ١٩٤٦، وثانيهما نظم سنة ١٩٥٠، وثالثها كان عام ١٩٦٥، وهي تؤرخ لهذا العمل المركب فتقول: كنت إذ ذاك أُكثر من قراءة الشعر الإنجليزي، فأعجبت بالمطولات الشعرية التي نظمها الشعراء، وأحببت أن يكون لنا في الوطن العربي مطولات مثلهم، وسرعان ما بدأت قصيدتي وسميتها «مأساة الحياة» وهو عنوان يدل على تشاؤمي المطلق، وشعوري بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد»[٣]، وهي متأثرة في كل هذا بقراءة للفيلسوف الألماني «شوبنهاور» جاء فيها: «حتام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي؟ متى نتدرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حب الحياة أكذوبة، وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت؟» بل إنها تقرر أن تشاؤمها فاقَ تشاؤم شوبنهار، لأنه - كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان، أما هي فلم تكن ترى كارثة أقسى من الموت «وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة»[٤].

والملاحظ أن الشاعرة كان عندها دائماً استعداد لقبول الجديد، والتطور، فإلى جانب الأخذ بالمطولات من البحر الخفيف الذي يجري بين يديها كما يجري نهر عريض في أرض منبسطة، نراها تلاحظ أن القدامى يستعملون تفعلية الخبب (فَعِلن)، ولكنها ابتداء من أول «قصيدة حرة كتبتها عام ١٩٤٧، حولتها إلى تفعيلة (فاعلُ) وتقول: وأنا أقرُّ بأنني وقعت في هذا الخروج من غير تعمد، وقد ألفت أن أنظم الشعر بوحي السليقة، لا جرياً على مقياس عروضي.. ومن ثم فإن (فاعلُ) قد تسربت إلى تفعيلاتي الخببية وأنا غافلة، وحين نبهني خالي «جميل» إلى هذا كان جوابي: إن أذني على ما مر بها من تمرين، تقبل هذا الخروج، ولا ترى فيه شذوذا، فليس هو خطأ وقعت فيه،

وإنما هو تطوير سرت إليه وأنا غافلة، ومعنى ذلك أن (فاعلُ) لا تمتنع فى بحر «الخبب»، لأن الأذن العربية تقبلها فيه، ثم إن التفعيلتين، فعلن وفاعل متساويتان من حيث الزمن تساويًا تاما، لأن طولهما واحد، فكلتا الوحدتين مكونة من ضربتين قصيرتين، وضربة طويلة، وإنما تقع الطويلة فى مطلع (فاعل) وفى آخر (فعلن) ومن الناحية الموسيقية يستوى عدد الأجزاء فى التفعيلتين، فكلاهما يتألف من أربعة أجزاء[٥].

وفى هذا الوقت المبكر كان الاهتداء إلى «الهيكل الهرمى»[٦] الذى يمنح الأشياء بعدها الرابع، شريطة أن يتوفر فيه: التماسك، والصلابة، والكفاءة، والتعادل، بالإضافة إلى صلاحية بحر الخفيف للمطوّلات، وتقديم الجمل الطويلة دون تقطع، وعدم التقيد بقانون استقلال الشطر أو البيت، والتركيز على أن الشعر ليس موهبة وحسب، وإنما هو نظم قبل ذلك، وأخيراً فلابد من العودة إلى علم العروض والقافية والضرائر، وإلى التعرف على أساليب التكرار، ودلالته، وأخيرا فقد كان التعرف على أسلوب «البند» الذى كان غامضًا فى المسيرة الشعرية، ولم يلتفت إليه الخليل بن أحمد، ولا العرضيون من بعده، لأن الوزن فيه كان يقوم على أساس التفعيلة دون الشطر، وحقيقة الأمر أن البند خلافاً للشعر العربى كله يستعمل بحرين هما الهزج والرمل، فإذا كان القدامى يذكرون أنه يعتمد على الهزج فقط، فالقاعدة عندها للبند أنه شعر حر، تتنوع أطوال أشطره ويرتكز على دائرة (المجتلب)، مستعملاً منها الرمل والهزج معاً[٧].

المهم أن الأسرة التى عرفت بالملائكة، لما فيها من هدوء ووداعة، لاحظت أن ابنتها ستكون شاعرة، وكان أن عاملتها معاملة خاصة، وأعفتها من الأعباء المنزلية ثم كان الانتقال من المنزل القديم عام ١٩٣٠ إلى منطقة شاعرية، فالبيت يقع بين بستانين كثيفين مليئين بالأشجار الباسقة من نخيل،

وتوت، وبرتقال، ونارنج، ومشمش، وإجاص.. الخ، والشارع نفسه كان بستانا مغطى بمنطقة خضراء مخترقة بنهر... وعلى مسافة قصيرة كان نهر دجلة.

- ٢ -

أما تعلمها فقد سار في طريقه الطبيعي، وتم تخرجها بليسانس الآداب عام ١٩٤٤، من غير مفارقة للشعر، فقد بدأت تكتب الشعر بالعامية في سن السابعة[٨]، وفي سن العاشرة كتبت قصيدة بالفصحى، وعندما قرأها الوالد استشاط غضباً لأنها وقعت في خطأ نحوي، وكان أن قال لها: إذهبي أولا، وتعلمي قواعد النحو، ولما كانت مدرستها لا تفرق بين الفاعل والمفعول، فقد أخذ على عاتقه تعليمها النحو، وإرشادها إلى التعرف على مراجعه ومصادره، وقد عاشت مشغولة بهذه المادة، فحين دخلت دار المعلمين العالية، اختارت فرع اللغة العربية، وحصلت على درجة الليسانس مع مرتبة الامتياز، وكانت رسالتها في الليسانس في موضوع نحوي هو «مدارس النحو» بإشراف الدكتور مصطفى جواد، وفي هذه الفترة أكثرت من القراءة لمحمود حسن اسماعيل، وبدوي الجبل، وأمجد الطرابلسي، وعمر أبو ريشة، وبشارة الخوري، أما أمها فما كانت تقدم على الرصافي أحداً، كما أحبت اللغة اللاتينية، وكتبت نشيداً لاتينيا بعد أن استمعت إلى أغنية مشهورة اسمها Attheballalike[٩]، كما أنها توغلت في آداب الإنجليزية، وأحبت شللي، كما أحبت شكسبير، وترجمت إحدى سونيتاته، وفي الوقت نفسه درست الموسيقى في معهد الفنون الجميلة، ولحنت من شعر أمها «نشيد العرب»، وكان اللحن على نغم «النهاوندي»[١٠] وهي نفسها تقول «كان الغناء سعادتي الكبرى منذ طفولتي، وكنت أحبس أنفاسي إذا سمعت صوت عبدالوهاب، وأم كلثوم يحمله حاكي كان يدور في بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ، لأي أغنية أسمعها[١١]»، وهكذا كانت

ثقافتها ابتداء محكومة بالعروض والموسيقى، على الرغم مما يذكره الدكتور إبراهيم أنيس «لا يبدو من كلامها أنها اتصلت بدراسة الموسيقى من قريب أو بعيد، لنعتد بآرائها فى الحديث عن نغمات الشعر، وإيقاعاته»[١٢] زد على ذلك ولعها بالموسيقى العالمية، وبخاصة موسيقى «تشايكوفسكى» فقد سمته القيثارة الإلهية، واحتفلت بذكرى مرور أربع وخمسين سنة على وفاته.

سأحب الحياة من أجل ألحا نك، يا بلبلى الحزين وأحيا
سأرى فى النجوم من نور أحلا مك ظلا مخلداً أبديا

زد على ذلك دراستها للتمثيل لإجادة فن الالقاء[١٣]

وبعيداً عن عالم الموسيقى نرى حياة مليئة بالتمزق والخوف والموت، وفقدان السعادة، والتشكك فى وجود المطلقات[١٤]، على نحو ما نعرف عن مطولة (مأساة الحياة)، ومن ديوانها الأول (عاشقة الليل)، ففى هذه الفترة كانت تجتاز عالم المراهقة، وكانت لا ترى شيئاً إلا ويعلوه الخوف، والرحيل والموت.

ها أنا أرحل يا أشجار عنك تحت عبء من شرودى وخشوعى
ليتنى أجرؤ أن ألقى عليك نظرةً ثانية.. دون دموع
آه يا أشجار، لا، لا تذكرينى فأنا تمثال يأسٍ بشرىّ
ليس عندى غير آثار حنينى وبقايا من شقائى الأبدى

وحين كانت تترجم عن الإنجليزية كانت تترجم ما يتفق وحالتها النفسية، كقصيدة «البحر» للشاعر ج.غ. بايرون، وقصيدة مرثية فى مقبرة ريفية للشاعر توماس غرى، وقصيدة «النهر المغنى» للشاعر كريسمس همفريس، وقصيدة «أسفار» للشاعر روبرت بروك، كما ترجمت عن الفرنسية لبروسبيربلانشمين وببطء تقترب من دائرة الاغتراب الاجتماعى، فتقول

وأنفر من كل ما فى الوجود وأهربُ من كل شئ آراه

ففى عمق نفسى صوتُ غريب يُعلِّم قلبى ازدراء الحياه

ويصرخ بى: اهربى. اهربى ويتعبُ إحساس روحى صداه

..وبعد عاشقة الليل، انتشر وباء الكوليرا فى مصر، وسمعت أن عدد الموتى وصل الى مائة إنسان، فكتبت قصيدة فى الشكل القديم، ثم أعادتها، وأحست أن هذا الشكل المتوارث لا يعبر تماماً عما فى داخلها، وفى يوم الجمعة ٢٧/ ١٠/ ١٩٤٧ سمعت أن عدد الموتى وصل إلى ألف، وحين أعادت الكتابة للمرة الثالثة، قرأت ما كتبت علي أختها «إحسان»، فتحمست لما سمعت، وحين أسمعتها لأمها قالت: ما هذا الوزن الغريب؟ الأشطر غير متساوية، والموسيقى ضعيفة، وحين سمعها الوالد سخر، وقال: ما هذا الموت. الموت، الموت وكان أن ضحك الأخوة/ فقالت بتحدٍ: قصيدتي هذه ستغير خريطة الشعر العربى(١٥).

.. وفى عام ١٩٤٩ صدر ديوان «شظايا ورماد» بمقدمة وافية، أوجزت فيها نظرية عروضية لشعرها «وميزة هذه الطريقة أنها تحرر الشاعر من طغيان الشرطين فالبيت ذو التفاعيل الست الثابتة، يضطر الشاعر إلى أن يختم الكلام عند التفعيلة السادسة، وإن كان المعنى الذى يريده قد انتهى عند التفعيلة الرابعة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقوف حيث يريد، ثم إن القافية- ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت - حرمتنا من الملحمة، وأنها تضفى على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع، فضلا عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر، وتصيده للقافية(١٦).

فإذا جئنا للقصائد نرى أنهـا تدور فى عالم بائس وحزين ومرهق، فهى تتكلم عن الضياع، والجرح الغاضب، والأفعوان، والجحود، والأجراس

السوداء ونـهاية السلم، وأغنيـة الهاوية، وكـثير مـن الموتى، وبخاصـة موتى الكوليرا، ولعل وراء ذلك إصابتها بحمى شديدة فى هذه الفترة، أحست معها أنها عـلى حافة الـرحيل[١٧]، بالإضـافة إلى الإحـساس[١٨] الشديد بـالغربة، والانسحاب من الحـياة، وتجئ مرحلة سفرها إلى أمـريكا لدراسة النقد الأدبى فى جـامعـة «برنستن» عام ١٩٥٤.. ثم يأتى ديوان «قـرارة الموجة» فى عـام ١٩٥٧، فتستمر ظاهرة الحزن، والقلق الوجودى، بل إنها تستدعى الحزن على أمها كما فى «ثلاث مراث لأمى»، وتصور لنا مـقدم هذا الحزن كما فى «مقدم الحزن»

أفسحوا الدرب إنه جاء خجـلا   نَ، رقـيق الخطى، كئيبَ الجبين

الندم الحسّاس، ذو الأعين الغَرْ   قَى بتاريـخ ألـف سـرٍ حزين

إنه مطـعم العـون العميقـا   ت، وينبوع كل دمع سخين[١٩]

ومع أن هناك شبهة حب بائس، إلا أنه ينتهى دائمـا بالقطيعة والغياب، كما فى قـصائد «الزائر الذي لم يجئ». و«الشخص الثانى»، و«عـندما قتلت حبى»، فـالحبيب فى كل هذا غـير مرغـوب فى زيارته، فحـتى لو جاء لكان الحلم بالزائر المستحيل، ثم إن الشخص الثانى سيمحو الشخص الأول، وحين تتم عملية القتل ستكشف أنها لم تقتل سوى نفسها:

ومع أنه قد أتيـحت لها فـرصة التأمل حين سـافرت للولايات المتـحدة للدراسة فى الخمسينيات لتكتب قصيدة بعنوان «الوصول»، ولتقول لأول مرة:

سأحب نفسى فى ارتعاش ظلالها تحيا عصور

ملأى بألوان الخيال

وهناك فى أحنائها ألقى الجمال

لكنها تعود لمحاكمة نفسها، وتواصل خط الضياع، والخوف، والانقسام على النفس

يا صمت نفسي عدتُ عدتُ إليك بعد سُرى سنين

ضاقتْ بتطوافى البحار

وشكا النهار

ما حَمَّلَتْه رؤاى من عبء الحنين

لم ألقَ غَيْرَكَ لى نصيرا

فى ظلمة الليل المضلِّ

فافتح لى الباب الأخيرا

دعنى أمر

أنا وظلى[٢٠]

وهكذا حملت حزنها معها، وعادت به، بعد المرور على إيطاليا، وجنوب فرنسا. . وفى عام ١٩٦٧ صدر ديوان «شجرة القمر»، ونلاحظ فيه أنها بالإضافة إلى عالمها النفسى الحزين المتشائم، أضافت خطاً جديداً وطنياً، ذلك لأنها اهتمت اهتماماً خاصاً بثورة «رشيد الكيلانى» على «نورى السعيد، وعبدالإله، والإنجليز»، فقد تفجرت حماسة لتلك الثورة، ونظمت فيها عدداً من القصائد، ولكن لم يكن هناك مجال لنشرها، ذلك لأن الثورة سرعان ما انتكست، ودخل عبدالإله على دبابات الجيش البريطانى، ونصبت المشانق للأحرار، وحين نجحت ثورة ١٣ تموز عام ١٩٥٨ كتبت قصيدة «تحية للجمهورية العراقية»

فرح الأطفال بضمة حب أبويه

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمسة نسائم ثلجيه

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهوريه(٢١)

فقد أثرت فى حياتها أعنف تأثير ولكن عبدالكريم قاسم انحرف بها، فأقامت فى بيروت عاما، ثم إنها غنت لعبدالسلام عارف فى قصيدة «وردة لعبدالسلام عارف» فى مساء اليوم الذى اعتقل فيه(٢٢) وتزوجت فى منتصف عام١٩٦١ بعد العودة من الدكتور عبدالهادى محبوبة، وقد ساقها هذا الالتفات الى عالم القومية العربية، فكتبت «أغنية للأطلال العربية»، وختمتها بقولها

فيا عربىّ.. أصخ لنداء   تحدَّرَ من رَحْبَةِ المدنيه

وقفْ حاسراً تحت ضوء النجوم   على ربع تلك الطلول الأبيه

وقل: يا رمال الجزيرة، يالحـ   ـنَ ملحمة العرب الأزليه

غداً ستعود إليك الحياة   تعود مع الوحدة العربيه(٢٣)

ثم كتبت «ثلاث أغنيات عربية»، جعلت فى مقدمتها كلمة «لقد دقَّتْ ساعة العمل الثورى»(٢٤)، وكما دندنت حول فلسطين، حلمت بالوحدة العربية، فى قصيدة الوحدة العربية(٢٥)، وانتظرت إعلان الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣(٢٦)، والملاحظ أنها نغَّمت الصياغة، وحافظت عليها، وقسمت الشطر على أساس المعنى دون الوزن، وطالبت بأن يرتكز الشعر الحر على نوع من

القافية الموحدة، فذلك يزيده موسيقى وجمالا، وهناك من يرجع لفتتها المقفّاة إلى الانتماء القومى فى هذه الفترة[٢٧]، وهى نفسها تقول: من قال إن الشاعر الموهوب يستطيع أن يبدع أى شئ فى غير الإطار اللغوى لعصره[٢٨]، والملاحظ أنها ركزت على أن فكرة الجمال فى الحياة هى بعينها فكرة الجمال فى الفنون، وأن الحرية وراء كل منهما، وأن مجئ الزائر المنتظر إذا كان يمثل القمة، فتحققه ينذر بالمنحدر[٢٩].

وإذا كانت لم تنس قضية فلسطين، فإن تذكرها تضاعف فى ديوان «للصلاة والثورة» الذى صدر عام ١٩٧٥، بعد فترة انقطاع استمرت ثلاث سنوات، وقد كان الدافع وراء ذلك إنها تلقت بطاقة تهنئة بعيد الفطر، وكان مرسوماً على البطاقة صورة لمسجد قبة الصخرة بالقدس، فما كادت ترى الصورة حتى زلزلت زلزالاً شديداً، وأسرعت بالكتابة على ظهر البطاقة هذه الأشطر

يا قبة الصخره
يا وردُ، يا ابتهالةً مضيئةَ الفكره
ويا هُدى تسبيحة علويّة النبره
يا صلواتٍ عذبَة الأصداء
جاشت بها الأبهاء
يا حُرقةَ المجهول، يا تعطُّش الإنسان للسماء
يا ولع الركوع يا طُهْره
يا وردة الخشوع، يانداه، ياعطره

واستـمر تدفقـها الشعـرى، وكان ديوان «الصلاة والثـورة ١٩٧٨م» أما الصـلاة فـهى رمز الجـانب الروحى فـينا، هى الورود التى تـنبت فى النفس الإنسانية من أثر اتصالها بالمنابع الأزليـة الجميلة، منابع الله.. والثورة مرتبطة أشد الارتباط بالصلاة، وكما قالت

متى نصلى؟ إنما صلاتُنا انفجار

صلاتُنا ستُطلع النهار

تُسلّح العُزّلَ، تعلى رايةَ الثُوّار

صلاتنا ستشعل الإعصار

ستزرعُ السلاح والزنبق فى القفار

تحول اليأس إلى انتصار

«فالـصلاة هنا مـعادل حى للقـيم الثورية، والقـيم الجمـالية، والقـيم الإنسـانية، وهى تربيـة للروح والجسم، وإكـمال لإنسـانية الإنـسان»[٣٠]، ثم تتعرض لقضية الشكل فهو- بصفته المطلقـة- صيغة جمالية مبرأة من العيوب، سواء أكـان حراً أم خليلياً، وإنما تأتى العـيوب من الشعـراء، هذا مع الاتفاق على أن لكل عـصر لفـتة مـزاجيـة، قد تجعـله يؤثر شكلا من الأشكال على سواه، هذه اللفـتة ترتبط بسمـة العصر الحضـارية فى الأساس[٣١]، وفى هذا الديوان نجد قصيـدتى «الملكة والبستان»، و«سبت التحرير»، ليسـتا من الشعر الحر، وإنما من البند فى صورة حديثة، وهذا يسوقنا إلى الحديث عن بحر حين كتبت عن ابنتى داليا «خضراء براقة مـغدقة» ثم توقفت عند هذه العبارة، حين وجدت أن وزنها «مستفعلين. فاعلن. فـاعلن» ومن هنا كانت قصيدتها «تحية للطفلة دالية»[٣٢]، وقد دار حول هذا البحر نقاش كبـير، خاصة بعد أن كتبت دراسة عنوانها «ميلاد بحر جديد فى الشعر العربى»[٣٣]، وتصدى لها الدكاترة

نور الدين صمود، وعبداللطيف عبدالحليم، وعبدالعزيز الدسوقى بدعوى أن هذا الوزن وجد فى الشعر الأندلسى فى نص محدود، وإن كان الدكتور شعبان صلاح قد فصل فى هذه القضية فقال «لا يستطيع الباحث المنصف أن ينحى باللاءمة على أى من الشاعرة نازك الملائكة، أو الشاعر الدكتور عبده بدوى، حين ظنا هذا الوزن مخترعاً، وليس قديما، إذ أن ما صيغ عليه فى القديم لا يعدو أبياتاً، لا تشكل ظاهرة، ولا تلفت انتباها، فضلا عن أن تقر فى وجدان شاعر مدى طويلاً، فلعل الشاعرة قرأت النموذج الأندلسى منذ زمن، ثم صاغت عليه- حين صاغت- غير واعية بأنها مسبوقة بتلك النغمة[٣٤]، وحين تحدثت معها فى هذا الشأن قالت: يعلم الله أننى لم أقرأ هذا النص القديم، وبالتالى لم أصُغ عليه، ولكن لعله المناخ العام لحضارة المشتغلين بالشعر العربى[٣٥].

وأخيراً فالشاعرة فى هذا الديوان، شغلت نفسها بما يدور فى العالم العربى، فتكلمت فى قصيدة القنابل والياسمين، عن ليلة ١٠/ ٤/ ١٩٧٣، حين اقتحم الجيش الصهيونى بيروت وصيدا، وكان نسف البيوت، وقتل ثلاثة من قادة الفدائيين، ثم هاجم مخيم الفدائيين وغادر البلاد دون أن يعترضه أحد[٣٦]، ثم تتكلم فى «اختلاجات نحو القمة البيضاء» عن الطريق المسدود أمام العرب.

كيف أهرب؟ إن طريقى مقفلْ

وستارى البليد الكثافة مسدلْ

وستارى مسدل[٣٧]

ثم تتكلم عن «سبت التحرير»، وكيف بدأت قواتنا العربية تحريرها لسيناء والجولان، وسجلت نصراً كاسحا، ولكن أمريكا تدخلت، وطالبت

العرب أن ينسحبوا إلى مواقـع ما قبل يوم السبت- ١٠ رمضان[٣٨]، وكعادتها زارت القاهرة، وحيتـها قبل حرب رمضان ثم كانت الحـرب والانفعال بها فى قصيـدة «الماء والبارود» فى ديوان «يغير ألوانه البحـر-١٩٧٧»، والتى تضفرها بكلمـة الله أكبـر، وبقصة هـاجر، والطفل إسـماعيل، والـسعى بين الصـفا والمروة، وقصـة انفجار الماء فى رمـضان لفرقـة من الجيش المصـرى فى سيناء كانت صائمة[٣٩]، ومن هنا تكون قد أدارت ظهرها وشعـرها للرموز الإغريقية على وجه الخصوص، وتكون قد دارت فى فلك جديد، هو فلك «المليك».

إننى أصعد بالنار إلى ذروة آفاق حنينى

إنني أنبذ شكى وفتونى

وإلى الشمس، إلى أعلى الذرى

يمتد جذعى وغصونى

حيث ألقى فى المدى وجه مليكى

كبياض الثلج، كالأنجم

كالفل أُلاقيه مليكى

.. حبه. حب مليكى. رحلة فى اللانهايه

وجهه يستغرق الكون، ومن آفاقه تبدأ لى كل بدايه[٤٠]

فهى قد دخلت فى عالم جديد، علمت فيـه نفسها، وتجاوزت تشككها فى المطلق[٤١]

باسمك. باسمك. باسمك. باسمك

يا ضوئى. يا عطرى. يا مجدى. يا نجمى

- ٣ -

المهم أنهـا اهتدت إلى اللجـوء إلى مـرفأ جـديد، ومن ثم كانت ابتـداء قصيدة «الهجرة إلي الله» التي تدور حول وجوده في كل شئ، وحول وجوده في نفسها

مليكي، أنت طعم الصيف في عمري

وأنت تألق الأقمار

وأنت عذوبة الواحات في قفري

وأنت تبلّج الأسرار

وأنت تدفقي، أنت انبثاق الضوء والعطر

نثرت الخصب واللؤلؤ فوق شواطئ الخضر

وفي روحي سكبت النار

لك الأوراد والصلوات أنثرها

فدا عينيك يا مليكي، يواقيتي أكسِّرها(٤٢)

وهذا اللجوء إلى الله يسوقها إلى اللجوء للرسول، فتقدم «زنابق صوفية للرسول»، وتكتب تصوراً للرسول في صيغة معاصرة، بعيدة عن كل ما عرف باسم البردة ونهجهـا، فالرسول طائر حط قربها، وامتصَّ قلبهـا، وكان بينهما حوار، ليس مثله حوار، وليس مثله طائر.

وطارت الطير في الصباح

ولم يطر أحمد، ظل قربي

وظللتنا سحب مبقعة بالضياء

كنا نغنى

للحب، للبحر، للسماء

تكسرت فى غنائنا الشمس، والمرافئ، واللانهايه

والمد جاء

يلثم أقدامنا، يتكسرً

أحمد. أحمد

نحن أنا وأنت والأعالى

ليل، وصمت

والله فى روحنا غناء[٤٣]

وكانت قصيدة «دكان القرائين الصغيرة»[٤٤] التى تدور حول إنسانة تبحث عن مصحف هدية لحبيبها فيقال لها فى «مندلى» وهى كلمة تساوى كلمة «يوتوبيا»، وقد سافر الحبيب دون الحصول على الهدية، وأصل هذه الكلمة أنها اسم لمدينة عراقية جميلة من مدن لواء بعقوبا، تنبت الرمان والبرتقال، وسواها من الفاكهة، ثم تكتب ميلاد نهر البنفسج[٤٥]، وبقدر ما يقترن التجاوز من العالم المادى، يكون التعامل مع النار

ففى أغصانى النشوى يكاد يسيل نَسْغُ النار

وتنطوى رمزية الرحلة الصوفية فى هذه الأسفار النارية، على ثلاثة طرق متعاقبة، أو ثلاث دوائر نارية متتابعة، ترقاها النفس من الأضيق إلى الأرحب، ومن الأدنى إلى الأعلى، فإذا وصلت النفس إلى غايتها اتصلت،

وإذا اتصلت بالكُلية عن كليتها انفصلت، كما قال المتصوفة، وعلى كل فالدائرة الأولى للنار- هى الدائرة الصغرى، والهوى الأول، والحس الترابى، والدائرة الثانية هى الوسطى، حب الأرض، والوطن، والأمة، والدائرة الثالثة العليا هى دائرة المليك، الحبيب الأول والآخر[٤٦]، المهم أن الشاعرة وصلت إلى هذه الدائرة الأخيرة بعد مجاهدة، وبهذا تكون قد اتصلت ومن هنا ينتهى السفر، وتصل المجاهدة إلى غايتها الأخيرة، بالصعود صوب وجه المليك، وفى هذا المجلى الصوفى، ينسرب ما يمكن أن يسمى «النور المحمدى»، ليوازى «أبدَ الضوء» الذى يطلع من كل الجهات، فى «زنابق صوفية للرسول»، وهى نفسها لها رأىٌ فى التصوف فتقول: «تسألنى عن التصوف، ولست متصوفة، إلا إذا كان حب الله العلى القدير، يكفى وحده لاعتبار المرء متصوفاً، فأنا شديدة الحب له سبحانه، وأقضى أوقاتاً طويلة فى بعض الليالى أناجيه، وأمجده، وأتغنى بجماله، وروعة خلقه».

– ٤ –

إذا كان لها دور فى «التنظير الاجتماعى، على حد ما نعرف من كتابها «التجزيئية فى المجتمع العربى ١٩٧٤[٤٧]، فإن لها دوراً فى التنظير الأدبى، على حد ما نعرف من مقالاتها، ومن كتاب «الصومعة والشرفة الحمراء»[٤٨]، فقد أبدت إعجابها به، لأنه كتب من أوزان عربية قل استعمالها مثل المُنْسرح، ومثلت لهذا،[٤٩] ولأنه لم يستجب لدعوى المزج بين البحور إلا فى قصيدة واحدة، مزج فيها بين البحر السريع، والبحر المتقارب، ولأنه كتب من «الموشح المسترسل»، ومن «الموشح الوصفى الغنائى»، ثم كان رد اعتبارها للقافية، وإثبات أن عروضها مستمد من عروض الخليل، وإنه يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة، مجموعة قصائد خليلية وافية، ومجزوءة، ومشطورة، ومنهكة، فللشكلين مزايا وعيوب، وهى حريصة عليهما معا،

وعلى إقامة توأمـة بينهما، «مع ملاحظة أنني لا أخطو خطـوة في تقنين قاعدة إلا بعد استشاره عروض الخليل الذى خبرت مداخله ومخارجه طويلا[٥٠]».

أما دورها الواضح في التنظير لحركـة الشعر، ففى كتابها «قـضايا الشعر المعاصر» ١٩٦٢م المُهدى لجـمال عبدالناصر، نرى المقدمـة حريصة على إثبات أن حركات التطوير تـلك إنما كانت بدافع الرغبة إلى الجديد، ولـيست تخلصاً من قسوة عمود الشعر وكـرامته، وإلا ما ذهب «المعرى» وغيره إلى الزيادة فى القيود. . كـما أن حركة الشعـر الحر مرحلة تطورية لعروض الشـعر العربى، وليست مقـتبسة عن الشعـر الغربى، وإن كانت تشبـهه فى بعض الوجوه، إذ ليس كل شبيه مسـتمدا من شبهه[٥١]، أما الشاعرة فتؤكـد ابتداء أن الشعر الحر ليس حفيداً للبند، وأن هناك قصـائد نظمت قبل عام ١٩٤٧ من الشعر الحر، ولكنها لم تتعرف عليـها، ثم إنها وضعت أربعة شروط يجب أن تتوافـر فيما قيل، وحين نحكمـها نجد أن مـا قيل قـبل عام ١٩٤٧ كان «إرهاصـات» تتنبأ بقرب ظهور حركـة الشعر الحر[٥٢]، ولعل العصر نفـسه لم يكن مهيـأ لتقبل الشكل الجديد إذ ذاك، ولذلك جرف الزمن ما صـنعوا، وانطفأت الشعلة فلم تلتهب حتى صدر «شظايا ورماد» عام ١٩٤٩، وفيه دعوتى الرسمية الواضحة إلي الشعر الحر على أن فى مـقدمة ما كان يشغلها هـو محاولة الابتكار، فمن المعروف ان بحر البسيط التام هو «مستفعلن. فاعلن. مستفعلن. فاعلن»، وأن مخلعه هو «مـستفعلن. فاعلن. فعـول» وقد لاحظت أن من الممكن أن تقسم هذا البـحـر إلى تفـعـيلتين، فى الشـطر الواحـد، بحـيث يصـبـحن هكذا «مستفـعلاتن. مستفعلاتن. مـستفعلاتن. مستـفعلاتن» وفى ضوء هذا يكون بحراً صـافياً يضـاف إلى شعر التـفعيلة، إذا أضـفنا حرفاً واحـداً على مخلع البسيط الخليلى، بحيث يصبح مستفعلن. فاعيلن. فعولن

«وأظنني قد استفدت من تفعيلات الرصافي في استخراج هذا البحر الجديد من بحور الشعر الحر»[٥٣] وما كادت تصل إلى هذا، حتى كتبت قصيدة «زنابق صوفية للرسول»، وفي الوقت نفسه لاحظت أنها وقعت في خطأ، لأنها كانت تقول «مستفعلاتن. فعولن. فعولن. فعولن».

ومعنى هذا، أنها كانت تنتقل من تفعيلة الرجز إلى تفعيلة المتقارب، ولكنها حين كتبت قصيدة «نجمة الدم» التزمت فيها بتفعيلة مستفعلاتن التزاما تاماً «والحقيقة أنني لا أدعو أي شاعر إلى استعمال الوزن الأول المختل، واعترف أنه حدث دون أن أنتبه خلال وهج الحالة الشعرية، وإنما جاء الانتباه بعد الانتهاء من القصيدتين: «زنابق صوفية للرسول»، و«تمتمات في ساعة الإعدام»، ولا شئ أدافع به عن نفسي، إلا كون هذا الوزن ابتكاراً مني، ولم يستعمله الشعراء قبلي، بحيث تكون أمامي نماذج، وأكون مجهزة بتجارب»[٥٤]

- ٦ -

وهكذا كان اهتمامها باللغة العربية وتراثها الأدبي، نحواً وصرفا وإيحاء[٥٥] وأما تجديدها في العروض فيدور في دائرة التعقل، والمحافظة ما أمكن على العروض الخليلي، وكما أن العالم متغير فاللغة والفن لا يقبلان الجمود[٥٦]، وإنما يقبلان التجديد والتجدد، وهل الشعر، في واقعه، إلا مقدرة الشاعر على استعمال اللغة بحيث تشع ألفاظها المعاني والظلال ،والانفعالات، وإذا كان الشاعر لا يعترف بالأساليب والقواعد الرصينة، فكيف يصون شعره من ركاكة الفوضى، وضعف الروح[٥٧]

- ٧ -

ويبقى بعد ذلك عدد من القصائد لم ينشر في ديوانها الشعري، ويبدأ بقصيدة «الوردة الحمراء» المليئة بالشجن، والحزن، والنهاية غير السعيدة، ثم

«نجمة الدم» التى تتحدث عن المأساة التى تعيشها لبنان، ثم «الزرقاء والمدينة» التى تتحدث عن عين مازالت تجرى فى المدينة، ولها قصة شعبية مازالت تتردد، وتستحيل إلى سوسنة ترش السلام، وطعم السكينة، فى القلوب الحزينة، ثم «القمر على مزدلفة»، ففى فترة الحج، افتتنت بطقوس جمع الصخور من وادى مزدلفة تحت ضوء القمر ليلة العاشر من ذى الحجة، فقد كان القمر ينثر مرجاناً على هذا المكان، ثم يكون حلم ليلة من ليالى رمضان، حين أصبح قلبها عصفور فجر يزقزق بين يدى الله، وكيف كان ذكره المسبحة، ووجهه المجد، ولقياه أجمل وعد، وأخيراً تأتى قصيدة «سيمفونية السجاجيد» حين تتحول المدينة إلى سجاجيد سماوية، عليها صورة الكعبة، مجرد لمسها توبة.

سجاجيد، وتهمى أدمع الإيمان آلاف الثريات، وآلاف العناقيد ويتزل خالقُ الأرض إلى الأرض سجاجيد.

فى ضوء هذا تكون نازك الملائكة رائدة، وعلامة بارزة فى الشعر الحديث، وفى الوقت نفسه تكون إضافة عاقلة فى حركة التجديد والتجدد، وليس من المبالغة فى شئ، إذا قلنا بأن حياتها قد تحولت إلى شعر خالص، فهى منضبطة فى حياتها كالوزن الشعرى، وحريصة على معرفة ما عند الآخر، ثم إن فيها الحزن والعمق اللذين يعتبران جناحين للشعر، بالإضافة إلى أنها من الشعراء الذين يتعاملون مع «النبوءة»، وأية قراءة عابرة لشعرها- تاريخيا- توضح أنها كانت تحس بالآتي، وتتعامل مع القادم، فكأنها زرقاء اليمامة العصرية.

... وأخيراً... فلعل من الوفاء أن تكون بداية ريادتها بقصيدة «الكوليرا» ١٩٤٧ التى لم يتنبه لها واحد من الشعراء المؤكدين، وأن يكون هناك مشروع إعادة طبع أعمالها فى القاهرة، فالوفاء ضرورة بين الشعر وبين المدن.

ويبقى الشكر للمـجلس الأعلى للثقافـة الذى عهد إلىّ بتقـديم وإعداد الطبعة الثانية من ديوان الشاعرة التى تحـقّقتْ لها الريادة السّاطعة ما يقرب من نصف قرن.

هوامش:

(١) العمدة ٢/٣٠٨.

(٢) قضايا الشعرالمعاصر ص ١٢٩ طـ٤، وجريدة العالم العربى ١٩٤١.

(٣) مأســاة الحياة وأغنيــة للإنسان ص٦، ولم يكن ديوانهــا الأول «عاشقــة الليل»، قد ظهر للوجود أو طبع عام ١٩٤٧.

(٤) نفسه ص٧.

(٥) نفسه ١٢٦، ١٣٠.

(٦) نفسه ٢٣٦، وقد قدمته على الهيكل المسطح، والهيكل الذهنى.

(٧) قضايا الشعر المعاصر ١٩٦ طـ٤دار العلم للملايين.

(٨) تعود للكتابة بها بين الحين والحين، كما فى قصيدة «ضيّعنا وردة»، التى ودعت بها ابنها البراق عند سفره للخارج للحصــول على الدكتوراة، نظرات فى الشعر العربى الحديث. د. عبده بدوى ص ٣٢ دار قباء

(٩) أجد فى اللغة اللاتينية ســحرا يجتذب كيانى كله، ولست أعرف ســر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة - لمحات من سيرة حــياتى وثقافتى ٧ مخطوطة- كما أنها اقتبست فى التقفية من أسلوب الشاعر الأمريكى إدجار آلان بو ٢/١٨.

(١٠) أحد مقامات المــوسيقى العربية، وهى مغرمة به، ولذلك يكثــر ذكره فى شعر هذه المرحلة من حياتها

(١١) لمحات من سيرة حياتى وثقافتى، بقلم الشاعرة - مخطوط

(١٢) موسيقى الشعر ص ٥٠، ٥١ طـ٤

(١٣) بالإضافة إلى دراسة الميثولوجيا الإغريقية بكل تفاصيلها وإلى التعرف على الفرنسية بعد ذلك

(١٤) نازك الملائكة. مقال سالم الحمدانى ٣٠٢.

(١٥) لمحات من سيرة حياتى للشاعرة ص٤

(١٦) ديوان نازك الملائكة. المجلد الثانى ١٠ ومابعدها ط. دار العودة

(١٧) ها أنا بين فكى الموت قلبا   لم يزل راعشاً بحب الحياة
فحرام أن تدفن الآن يامـــــو   ت شبابى فى عالم الأموات
المجلد الأول، ٤٩٢ - ٥٠٢.

(١٨) دراســات على يد ريتشــرد بلاكــور، وآلن روانر، وآلن تيت، ورونالد ســتاوغــر،

وديلمور شوارتز، ومؤلـفاتهم معروفة فى النقد الأدبى، وبعد الـعودة بدأت صلتها بمجلة الآداب والأديب، ودار العلم للملايين ببيروت.

(١٩) ثم كان موت الأم فى لندن والعودة بها فى رحلة لا تنسى.

(٢٠) ديوان نازك. المجلد الثانى ٣٦٩، كما كتبت هناك قصيدة لحن للنسيان

لم يا حياة
تذوى عذوبتك الطريقة فى الشفاه؟
لم وارتطام الكأس بالفم لم يزل
فى السمع همس من صداه؟

بالإضافة إلى قصيدة «الهاربون»

(٢١) ديوان نازك الملائكة. المجلد الثانى ص ٤٤٩ ط١

(٢٢) نفسه ٤٧٩، ٤٨٠

(٢٣) نفسه ٤٦٩ - ٤٧٣.

(٢٤) نفسه ٤٩٦-٥٠٢ الكلمة لجمال عبدالناصر، ووضعت نكاية فى عبدالكريم قاسم

(٢٥) نفسه ٥٢٢-٥٢٩

(٢٦) نفسه ٥١٧

(٢٧) الشعر والنظرية عبدالجبار البصرى ص ١٧٩.

(٢٨) قضايا الشعر ٣٢٢.

(٢٩) المجلد الثانى ص ٢١٧.

(٣٠)مقدمة للصلاة والثورة.

(٣١) نفسه.

(٣٢) نفسه ١٩٢، ١٩٣.

(٣٣) مجلة الدوحة، عدد سبتمبر ١٩٧٦م ص ٢٢-٢٥.

(٣٤) موسيقى الشعر بين الاتباع والإبداع ص١٥٣ ط٢.

(٣٥) تجارب وتطبيقات فى الشعر العربى الحديث ١٢٩ د/ عبده بدوى. ط ذات السلاسل.

(٣٦) للصلاة والثورة ١٣٢.

(٣٧) نفسه ١٤٨.

(٣٨) نفسه ١٦٥.

(٣٩) يغير ألوانه البحر ٢٥.

(٤٠) نفسه ١٣٤.
(٤١) غطت هذه الفترة ما بين عامى ١٩٤٨-١٩٥٥ لمحات من سيرة حياتى وثقافتى ١٩.
(٤٢) للصلاة والثورة ٦٨-٧٦.
(٤٣) يغير ألوانه البحر ٥٢-٧٣.
(٤٤) اعترض عـامر العقاد على جـمع لفظ القرآن، وقال إنه مثل كلمـة «عند» لاتجمع، لأن القرآن واحد، ولايصحّ أنْ يتـعدّد، والجواب أنهم فى العراق يستـعملون كلمة قرائين فى لفظة دارجة، فـهى لاتعنى عندهم آن كتاب الله متعـدد، وإنما تشير إلى نسخ القرآن كقولنا مصحف ومصاحف.
(٤٥) يغير ألوانه البحر ١٠٨، «كلمة مليكى أو مـلكى فى قصائد هذه الفترة يراد بها الله مالك الملك وملك الملوك.
(٤٦) مقال د. جابـر عصفور فى كتاب نازك الملائكة اعـداد د. عبدالله المهنا ص٥٨٧ ط الكويت.
(٤٧) ط دار العلم للملايين.
(٤٨) الصومعة والشرفة الحمراء. ط. دار العلم للملايين.
(٤٩) قضايا الشعر المعاصر ص١٨٧-١٩٢.
(٥٠) قضايا الشعر المعاصر ٢٧ ط٤.
(٥١) مقدمة الدكتور عبدالهادى محبوبة فى الطبعة الأولى- دار الآداب.
(٥٢) قضايا الشعر المعاصر ١٤ وما بعدها ط٤.
(٥٣) يغير ألوانه البحر ١٩١.
(٥٤) مقدمة يغير ألوانه البحر.
(٥٥) كانت ترى أن اللغةكـانت يوما موحية، ثم ابتليت بـحيل المحنطين، ومن ثم كانت دعوتها إلى الإيحاء حديثا، فهو جزء لا يتجزأ من حيوية اللغة والشعر.
(٥٦) الله هو الثبات الوحيد المطلق، قضايا الشعر ٢٩.
(٥٧) نفسه ٢٢١.

لمحات
من سيرة حياتي وثقافتي

نازك الملائكة

وُلدتُ في بغداد في ٢٣ من شهر آب (أغسطس) سنة (١٩٢٣)، وكنت كبرى إخوتي وهم: أربع بنات، وولدان.

وقد تدرجت في دراستي من الابتدائية إلى المتوسطة فالثانوية، وتخرجت في الثانوية عام ١٩٣٩، وكنت، منذ صغري، أحب اللغة العربية، والإنجليزية، والتاريخ، ودروس الموسيقي، كما كنت أجد لذة في دراسة العلوم، بخاصة علم الفلك، وقوانين الوراثة، والكيمياء، ولكني أمقت الرياضيات مقتًا شديدًا، وأعد السنين يومًا يومًا لأصل إلى إنهاء مرحلة الثانوية، فأتخصص بدراسة الآداب، ثم دخلت دار المعلمين العالية، فرع اللغة العربية، وخرجت منها بليسانس الآداب عام ١٩٤٤ من مرتبة الامتياز، وهي أعلى مرتبة تمنح، وخلال سنوات دراستي فيها تعرفت إلى موضوع الفلسفة، وأحببته حبًا شديدًا، فساعدني على تكوين ذهن منطقي، وكانت دراساتي الكثيرة للنحو العربي، في أصوله القديمة، قد هيأتني له تهيئة واضحة، وقد بدأت نظم الشعر وحبه منذ طفولتي الأولى، والواقع أنني سمعت أبويّ وجدي يقولون عني إنني «شاعرة» قبل أن أفهم معنى هذه الكلمة، لأنهم لاحظوا عليّ التقفية، وأذنًا حساسة تميز النغم الشعري تمييزًا مبكرًا. وبدأت بنظم الشعري العامي، قبل عمر سبع سنوات.

وفى سن العاشرة نظمت أول قصيدة فصيحة، وكانت فى قافيتها غلطة نحوية، وعندما قرأها أبى رمى قصيدتى على الأرض بقسوة، وقال لى، فى لهجة جافية مؤنبة: «اذهبى أولاً، وتعلمى قواعد النحو. . ثم انظمى الشعر»، وكانت معلمة النحو فى المدرسة لاتميز الفاعل من المفعول، وسرعان ما اضطر أبى إلى أن يتولى تعليمى قواعد النحو بنفسه حين دخلت المتوسطة، وفى ظرف شهر واحد تفوقت على الطالبات جميعًا، وصرت أنال أعلى الدرجات.

ولاحظ أبواى أننى موهوبة فى الشعر، شديدة الولع بالمطالعة، فأعفيانى من المسؤوليات المنزلية، والعائلية إعفاء تامًا، وساعدنى ذلك على التفرغ، والتهيؤ لمستقبل أدبى، وفكرى خالص.

وكانت والدتى، فى سنوات الشعرية المبكرة، تنظم الشعر، وتنشره فى المجلات، والصحف العراقية، باسم السيدة «أم نزار الملائكة» وهو اسمها الأدبى الذى عرفت به، أما أبى فكان مدرس النحو فى الثانويات العراقية، وكانت له دراسة واسعة فى النحو، واللغة والأدب، وقد ترك مؤلفات كثيرة أهمها موسوعة فى عشرين مجلدًا، عنوانها «دائرة معارف الناس» اشتغل فيها طيلة حياته، واعتمد فى تأليفها على مئات المصادر، والمراجع، ولم يكن أبى شاعرًا، ولكنه كان ينظم الشعر، وله قصائد كثيرة، وأرجوزة فى أكثر من ثلاثة آلاف بيت؛ وصف فيها رحلة قام بها إلى إيران عام ١٩٥٥. وكان أبى متواضعًا، ولم يرض يومًا أن يسمى نفسه شاعرًا، مع سرعة بديهته، وقدرته على الارتجال، وظرفه.

وكان لأبوىَّ تأثير عميق فى حياتى الفكرية، والشعرية. أما أبى، فقد بقى أستاذى فى النحو حتى أنهيت دراسة الليسانس، وكنت أهرع إليه، بكل مشكل نحوي يعرض لى، وأنا أقرأ ابن هشام، والسيوطى، والأشمونى، وسواهم، والحق أنى كنت، ولم أزل، شديدة الولع بالنحو.

وقد فرش لى أبى طريقًا ممهدًا رائعًا، حين وضع بين يدى مكتبته التى كانت تحتوي على متون النحو، وكتب الشواهد جميعًا، ولذلك كان من الطبيعى، تمامًا، أن أكون الطالبة الوحيدة بين طلبة قسم اللغة العربية التى اختارت رسالة لمرحلة الليسانس فى موضوع نحوىّ، هو : (مدارس النحو)، وكان المشرف عليها أستاذى الكبير العلاَّمة الدكتور مصطفى جواد الذى كان له فى حياتى الفكرية أعمق الأثر، رحمه الله، وجزاه عنا نحن تلاميذه أجمل الجزاء، ولم تزل رسالتى هذه فى مكتبة كلية التربية، وعليها تعليقات بالقلم الأحمر، كتبها الدكتور مصطفى عبدالجواد فى حينه.

أما والدتى، فقد كان لها أثر واضح فى حياتى الشعرية، لأننى كنت أعرض عليها قصائدى الأولى، فتوجه إليها النقد، وتحاول إرشادى، ولكنى كنت أناقشها مناقشة عنيدة، فقد لاح علىّ، منذ مرحلة الثانوية، التأثر بالشعر الحديث؛ شعر محمود حسن إسماعيل، وبدوى الجبل، وأمجد الطرابلسى، وعمر أبو ريشة، وبشارة الخورى، وأمثالهم، بينما كانت هى تعجب بشعراء أقدم مثل: الزهاوى خصوصًا. فقد كان شاعرها الأثير، وكان اهتمامها بالشعر القديم أكبر من اهتمامى، ولذلك كان تأثيره فى شعرها أبرز، ولكن ذوق أمى نفسها بدأ يتطور، كما يلاحظ من يدرس شعرها الذى طبعتُ المنشور منه، بعد وفاتها، فى ديوان سميته «أنشودة المجد» وقد بدأت أمى تتجه نحو الشعر الحديث إلى درجة ملحوظة، وكانت تعجب خصوصًا بشعر إبراهيم ناجى، وصالح جودت، ولكن اتجاهاتى الشعرية بقيت مختلفة عن اتجاهاتها، بسبب معرفتى للإنجليزية، والفرنسية وكثرة قراءتى لشعرائهما.

ورغم ذلك فقد بقينا، أنا وهى، صديقتين، فكانت تقرأ لى قصائدها، وأقرأ لها قصائدى، حتى وفاتها عام ١٩٥٣، وهى فى الثانية والأربعين من العمر، رحمها الله رحمة واسعة.

وخـلال دراستى فى دار المعلـمين العاليـة، كنت أسـاهم فى حفـلات الكلية، بإلقـاء قصائدى، وكـانت الصحف العراقـية تنشر تلك القـصائد فى حينها. غير أنى أهملت هذا الإنتاج المبكر، ولم أدرج منه شيئًا فى مجموعاتى الشعـرية المطبوعـة، لأننى بقيت أنظر إليـه على أنه شعر الصـبا قـبل مرحلة النضج، والواقع أننى أقبلت على نظم الشعر إقبالاً شديدًا منذ عام ١٩٤١ يوم كنت طالبـة فى الكليـة. فقـد دخلت فى ذلك العـام بداية نضـجى الروحى والعاطفى والاجتماعى، فضلاً عن أنه العام الـذى شهد ثورتنا القومية العظيمة التى هزت كيـانى هزًا عنيفًـا وهى ثورة رشيد عـالى الكيلانى، وكنت أتفـجر حماسة لتلك الثـورة ونظمت حولها القصائد المتحمـسة التى لم أنشر منها أى شىء: فـسرعـان ما انتـصـر الحكم البوليـسى فى العـراق، ونصبت المشـانق للأحـرار، ولم يعـد فى العـراق مـن يسـتطيع التنفس، ولكـننا، أنا وأمى، استمررنا ننظم القصائد الثائرة سرًا، ونطويها فى دفاترنا الحزينة.

وفى عام ١٩٤٧ صدرت لى أول مجموعة شعرية، وقد سميتها (عاشقة الليل) لأن الليل كـان يرمز عندى إلى الشعـر، والخيـال، والأحلام المبهـمة، وجمال النجوم، وروعة القمر، والتماع دجلة تحت الأضواء، وكنت فى الليل أعزف على عودى فى الحديقة الخلفيـة للبيت بين الشجر الكثيف، حيث كنت أغنى ساعات كل مساء، وقد كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفـاسى إذا ما سـمعت صوت عـبدالوهاب، أو أم كلثوم يـحمله إلىّ جهاز حاكٍ (غرامافون) يدور فى بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ لأى أغنية أسمعها، وكـانت أمى لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندمـا تسمعنى أغنى، وما زلت أذكر صوتها فى صغرى وهى تتلفت، وتقول: يا إلهى! من أين حفظت ابنتى كل هذه الأغانى؟ ومتى سمعتها؟ وكيف؟ ولم تدر أننى كنت حين أسمع حاكيًا يدور بأغنية أقف مسمَّرة فى مكانى حتى لو كنت فى الشارع. وفى تلك

الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحيـاة فى العراق طبعًا، فكان الاستماع إلى الأغانى لايتم إلا عن طريق الإسطوانات، ولم تبـدأ إذاعة بغداد بالبث إلا فى سنة ١٩٣٥، كما أتذكر، يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر.

وبعد صدور (عاشـقة الليل) بأشهر قليلة انتشر وباء الـكوليرا فى مصر الشقـيقـة، وبدأنا نسمع الإذاعـة تذكر أعداد المـوتى يوميًا، وحين بـلغ العدد ثلاثمائة فى اليوم انفعلت انفعالاً شعريًـا، وجلست أنظم قصيدة استعملت لها شكل الشطرين المعتاد، مُغيِّرةً القافـية بعد كل أربعة أبيات أو نحو ذلك، وبعد أن انتهيت من القصـيدة، قرأتها فأحسست أنها لم تعبّـر عما فى نفسى، وأن عواطفى ما زالت متـأججة. وأهملت القصيدة وقررت أن أعتـبرها من شعرى الخائب (الفاشل) وبعـد أيام قليلة ارتفع عدد الموتى بالكوليرا إلى سـتمائة فى اليوم، فـجلست، ونظمت قصـيدة شطرين ثانية أعـبر فـيها عن إحـساسى، واخترت لها وزنًا غير وزن القصيدة الأولى، وغيرت أسلوب تقفيتها ظانة أنها ستـروى ظمأ التعبـير عن حزنى، ولكننى حين انتـهيت منها شعـرت أنها لم ترسم صورة إحـساسى المتأجـج، وقررت أن القصـيدة قد خـابت كالأولى، وأحسست أننى أحتاج إلى أسلوب آخر أعـبر به عن إحساسى وجلست حزينة حائرة لا أدرى كيف أستطيـع التعبير عن مأساة الكوليـرا التى تلتهم المئات من الناس كل يوم.

وفى يوم الجـمـعـة ٢٧/ ١٠/ ١٩٤٧ أفـقت من النـوم، وتكاسلت فى الفراش أسـتمع إلي المذيع وهو يذكر أن عـدد الموتى بلغ ألفًا، فاسـتولى علىّ حزن بالغ، وانفـعال شـديد، فقفـزت من الفراش، وحـملت دفتـرًا، وقلمًا وغادرت منزلنا الذى يموج بالحركـة، والضجيج يوم الجمعـة،وكان إلى جوارنا بيت شاهق يُبنى، وقد وصل البناؤون إلى سطح طابقه الثانى، وكان خاليًا لأنه يوم عطلة العمل، فجلست على سياج واطئ، وبدأت أنـظم قصيدتى المعروفة

الآن «الكوليرا». وكنت قد سمعت فى الإذاعة أن جثث الموتى كانت تحمل فى الريف المصرى مكدسة فى عربات تجرها الخيل، فرحت أكتب وأنا أتحسس صوت أقدام الخيل:

سكن الليل
أصغ، إلى وقع صدى الأنات
فى عمق الظلمة، تحت الصمت، على الأموات

ولاحظت فى سعادة بالغة أننى أعبر عن إحساسى أروع تعبير بهذه الأشطر غير المتساوية الطول، بعد أن ثبت لى عجز الشطرين عن التعبير عن مأساة الكوليرا، ووجدتنى أروى ظمأ النطق فى كيانى، وأنا أهتف:

الموت، الموت، الموت،
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت

وفى نحو ساعة واحدة انتهيت من القصيدة بشكلها الأخير، ونزلت ركضًا إلى البيت، وصحت بأختى "إحسان" انظرى لقد نظمت قصيدة عجيبة الشكل أظنها ستثير ضجة فظيعة، وما كادت إحسان تقرأ القصيدة – وهى أول من قرأها – حتى تحمست لها تحمسًا شديدًا، وركضت بها إلى أمى فتلقتها ببرودة، وقالت لى: ما هذا الوزن الغريب؟ إن الأشطر غير متساوية، وموسيقاها ضعيفة يا بنتى، ثم قرأها أبى، وقامت الثورة الجامحة فى البيت؛ فقد استنكر أبى القصيدة، وسخر منها واستهزأ بها على مختلف الأشكال، وتنبأ لها بالفشل الكامل، ثم صاح بى ساخرًا «وما هذا الموت الموت؟»

لكل جديد لذة غير أننى وجدت جديد "الموت" غير لذيذ

وراح إخوتى يضحكون وصحت أنا بأبى «قل ما تشاء»، إنى واثقة أن قصيدتى هذه ستغير خريطة الشعر العربى، وكنت مندفعة أشد الاندفاع فى

عبارتى هذه، وفى أمثال لها كثيرة قلتها رداً على التحدى بالتحدى، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يسبغ علىّ رحمته في تلك اللحظات الحرجة من حياتى الشعرية، فكتب لقصيدتى أن يكون لها شأن كما تمنيت وحلمت، فى ذلك الصباح العجيب فى بيتنا.

ومنذ ذلك التاريخ انطلقت فى نظم الشعر الحر، وإن كنت لم أتطرف إلى درجة نبذ شعر الشطرين نبذاً تاماً، كما فعل كثير من الزملاء المندفعين الذين أحبوا الشعر الحر، واستعملوه بعد جيلنا.

وفى عام ١٩٤٩ صدرت ببغداد مجموعتى الشعرية الثانية (شظايا ورماد)، وقد صدرتها بمقدمة أدبية ضافية عرضت فيها موجزاً لنظرية عروضية لشعرى الجديد الذى نشرت منه فى المجموعة عشر قصائد، وما كاد الكتاب يظهر حتى أشعل ناراً فى الصحف، والأندية الأدبية، وقامت حوله ضجة عنيفة، وكتبت حوله مقالات كثيرة متلاحقة، كان غير قليل منها يرفض الشكل الجديد الذى دعوت إليه، ويأباه للشعر، غير أن الدعوة لقيت أروع القبول فى الأوساط الشعرية الشابة، فما كاد يمضى عام حتى كان صدى الدعوة قد تخطى العراق إلى خارجه، وبدأت أقرأ فى المجلات الأدبية فى مصر، ولبنان، وسوريا، وسواها قصائد من الشعر الحر، كان غير قليل منها يحمل لافتات إهداء نثرىّ: "إلى الشاعرة نازك الملائكة".

* * *

فى عام ١٩٤٢ بلغ نشاطى الشعرى واللغوى، والفنى، والأدبى أوجه، فاندفعت أطلب الثقافة، والعلم فى نهم لايرتوى، وحرارة لا تنطفئ، ففى السنة نفسها سجلت نفسى طالبة فى فرع العود بمعهد الفنون الجميلة، ودخلت طالبة فى فرع التمثيل، وانتميت إلى صف لدراسة اللغة اللاتينية، وكنت إذا

ذاك - فوق هذا كله - طالبة فى السنة الثانية من دار المعلمين العالية، وقد وهبت نفسى، فى حرارة لا مثيل لها، إلى هذه الدراسات كلها، وكنت أحبها أشد الحب.

أما العزف على العود فقد كان أمنيتى منذ صغرى، وحين رأى أبى حرقة تشوقى إلى هذه الدراسة، وافق بعد تردد طويل على أن أدخل معهد الفنون الجميلة لأدرس على الفنان الكبير الموسيقار الأستاذ محيى الدين حيدر الذى كان اسمه الفنى فى المعهد: «الشريف»، ولهذا الفنان طريقة فريدة فى العزف، والتدريس عليها أثر موهبته الفنية العظيمة، وله فى العراق اليوم تلاميذ معروفون من الموسيقيين، من مثل الأستاذ سلمان شكر، والأستاذ جميل بشير، وسواهما. وكانت مدة الدراسة ست سنوات، والمنهج يقوم على تدريسنا المقامات الشرقية على بشارف وسماعيات، وسواها، وكان الطالب يتدرج حتى يصل إلى قمة المهارة الفنية فى عزف مقطوعات الشريف محيى الدين التصويرية الرائعة مثل: «تأمل» و«ليت لى جناحًا» و«كابريس». وكان للشريف، يرحمه الله، مزاج فى العزف، فكان يغير، ويعدل فى البشارف، والسماعيات التى ألفها كبار الموسيقيين، من مثل: طانيوس أفندى، وجميل بك، وعزيز دده، ويوسف باشا، وكانت هذه التعديلات تجمل الأصل أروع تجميل، وتخرجه إخراجًا حيًا، وكنت أنا أجلس فى صف العود مسحورة، وكأنى أستمع إلى صلاة، وكان الشريف يكرر علىَّ أن لى سمعًا موسيقيًا حساسًا، وموهبة ظاهرة، ولكنه كان خائفًا علىَّ أن يجرفنى حبى للشعر ويبعدنى عن الموسيقى على أى شكل من الأشكال، ورغم أننى ما زلت، حتى اليوم، أعزف لنفسى لكى يصحبنى العود، وأنا أغنى ألحان عبدالوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وعبدالحليم حافظ، ونجاة. وهو انصراف محدود، غير ما كان أستاذى يتوقع منى، ولعله كان ينتظر أن أكون عازفة مشهورة فى الإذاعات ومؤلفة ألحان.

وأما دراستى للتمثيل، فالحق أنه كان لى فيها دافعان اثنان.

أولهما أن أتعلم فن الإلقاء، فقد كنت أرتقى المسرح لألقى قصائدى فأقرأها قراءة رتيبة دون أن أعرف كيف ألوّن صوتى بالانفعال، وأرفعه، وأنغمه مع معانى قصيدتى، وقد خطر لى أن دراسة التمثيل ستساعدنى فى هذا المجال. والدافع الثانى أننى اطلعت على منهج الدراسة فى هذا الفرع فبهرنى. كان منه دراسة مفصلة مسهبة للميثولوجيا الإغريقية، بكل تفاصيلها الدقيقة، ومداخلها، ومخارجها. وكان موضوع «تاريخ المسرح والأدب المسرحى» للسنة الثانية يشمل دراسة إسخيلوس، وسوفوكليس، ويوربيديس، وأريستوفان، وكنت أعلم مدى غنى الأدب اليونانى، ومدى ضرورته للممثل، والدارس، فاندفعت فى حرارة أسأل أبى أن يأذن لى بدخول فرع التمثيل، وقد رفض أبى أولاً، ولكن الله سبحانه شاء أن يشملنى برعايته، فإذا أبى يُكلَّف بتدريس اللغة العربية فى فرع التمثيل، وعندما وجد أننى سأكون تلميذة له أخذنى معه إلى الأستاذ حقى الشبلى المسؤول عن الفرع، وسجلنى طالبة، واكتملت سعادتى.

وأما اللغة اللاتينية فإن قصة دراستى لها كانت أغرب، فقد كننت طالبة فى قسم اللغة العربية، وكنا ندرس اللغة الإنجليزية، وصادف أن أستاذنا أشار فى الصف، مراراً، إلى ضرورة معرفة اللغة اللاتينية لمن يريد التخصص فى الأدب الإنجليزى، فشوقنى ذلك إلى دراستها، وبقيت هذه الرغبة عابرة فى نفسى حتى سمعت فى آخر العام الدراسى ١٩٤١- ١٩٤٢ أن إدارة الكلية قررت إضافة مادة اللغة اللاتينية إلى منهج طلبة السنة الأولى، فرع اللغة الإنجليزية، وهنا بدأت لهفتى، أردت - بأى ثمن- أن أنتمى إلى هذا الصف لأتعلم اللغة اللاتينية، وراجعت أستاذ المادة فاعتذر عن قبولى فى الصف، وسألنى مندهشا: «ولكنك طالبة فى قسم اللغة العربية، فماذا تنفعك

اللاتينية؟» ولم يوهن هذا عـزيمتى، وراجعت عميد الكـلية، ورجوته أن يأذن لى بالدراسة مع طلبة الإنجليزية، عندما رأى العميد لهفتى سمح لى، وانتميت إلى صف اللغة اللاتينية، وبدأت أحفظ، بحـماسة، تلك القوائم التى لاتنتهى من حالات الأسـماء وفصائلهـا، وتصريفات الأفـعال، وسواها مما يعتـبر من أصعب ما يعرفه طلبة اللغات.

وقد بقى حب اللغة اللاتينية فى دمى حـتى اليوم، وما زلت أقتنى كتب الشعـر اللاتينى، وأحاول أن أقرأها كلمـا وجدت فراغا، وأتذكـر أننى، بعد شهرين من بدئى لدراسة هذه اللغة، أصبحت أكتب مذكراتى بها، كما نظمت نشيداً لاتيـنيًا على نغمة الأغنيـة المشهورة (At The Ballalika). وكان من الطبيعى أن يكون النشيد بدائيا ساذج الصيغة، فقد كنت لم أزل طالبة مبتدئة، ولقـد واصلت دراسة اللغـة اللاتينيـة سنوات كثـيرة وحـدى من دون أستـاذ بمساعدة القواميس، ثم دخلت صفا فيـها فى جامعة برنستن بالولايات المتحدة درسنا فيه نصوصـًا للخطيب الرومانى شيشرون، وقد أعجـبت أشد الإعجاب بشعر الشاعـر اللاتينى «كوتولوس»، وحفظت مجموعـة من القصائد له، وما زلت أترنم بها أحيانًا فى وحدتى، فأجد سعادة بالغة فى ترديدها. والواقع أنى أجد فى اللغة اللاتينية نفسها سحرا يجتذب كيانى كله، ولست أعرف سر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة، وينفرون منها أشد النفور.

وفى عـام ١٩٤٩ بدأت بدراسة اللغـة الفرنسـية، فى البـيت، مع أخى الذى يصغرنى: نزار وكان إذ ذاك طالبـًا فى قسم اللغة الإنجليزية بدار المعلمين العالية، وكـان له ولع شديد بالأدب، واللغات، وهو شاعـر أيضًا، وإن كان مقلاً، وكانت تربطنى به صداقة عميـقة، وكنا نشترك أنا وهو فى غرفة واحدة تنتشر فيها الكتب على سـريرينا، وطالما قام الجدل بيننا فى موضوعات الأدب والحياة.

بدأنا إذن، أنا ونزار ندرس الفرنسية من دون مدرس، وذلك اعتمادًا على كتاب إنجليزى يعلم هذه اللغة، أهدانا إياه عمى، وقد سعدنا سعادة بالغة بتعلم هذه اللغة الجميلة، وواصلنا تعلمها حتى أصبحنا نقرأ فيها كتب الشعر، والنقد، والفلسفة، وفى عام ١٩٥٣ دخلت دورة فى المعهد العراقى، قرأنا فيها نصوصًا من الأدب الفرنسي، من مثل قصص: ألفونس دوديه، وموباسان، ومسرحيات موليير، ولكن نطقى بهذه اللغة بقى رديئًا حتى اليوم، لأننى تعلمتها من دون أستاذ يلفظ أمامى الكلمات، ولم تتح لى فرصة للسفر إلى فرنسا، والحياة فيها فترة، وهذا ما يحزننى دائمًا حين أجدنى أقرأ، وأفهم، ومع ذلك لا أحسن الكلام، ولا النطق الصحيح.

أما الأدب الإنجليزى فقد بدأت عنايتى به وأنا طالبة فى دار المعلمين العالية يوم كنا نقرأ شعر شكسبير (Sonnets) ومسرحية «حلم منتصف ليلة صيف»، وقد ترجمت إلى الشعر العربى إحدى سونيتات شكسبير، إذ ذاك. وأقبلت بعد ذلك على قراءة شعر بايرون، وشيللى. وفى عام ١٩٥٠ دخلت دورة فى المعهد الثقافى البريطانى لدراسة الشعر الإنجليزى، والدراما الحديثة، استعدادًا لأداء امتحان تقيمه جامعة كامبردج وتمنح بعده شهادة الـ(PROFI-CENCY)، وكان مستوى هذه الدراسة أعلى من ليسانس اللغة الإنجليزية، لأن طالبة متفوقة فى السنة الرابعة من فرع اللغة الإنجليزية دخلت معى هذه الدورة، فكانت النتيجة أنها رسبتْ، ونجحتُ. وكان سر نجاحى أننى انهمكت طيلة العام فى قراءة عشرات من كتب الشعر، والدراما، فى حماسة، ونهم، والواقع أن أغلب الذين اشتركوا فى الامتحان معنا قد رسبوا، ولم ينجح سواى وسوى طالب واحد خارجى لم يشترك معنا فى الدراسة بالمعهد البريطانى، وكان لهذا الامتحان امتحان ثان أعلى منه تقيمه جامعة كمبردج نفسها، ولكنى لم أقدمه، وإنما سافرت إلى الولايات المتحدة لدراسة النقد الأدبى.

وكانت هذه المرحلة تمتد عامًا، وقد أوفدتنى إليها مؤسسة روكفلر الأمريكية، واختارت لى أن أدرس النقد الأدبى فى جامعة برنستن فى نيو جيرسى بالولايات المتحدة، وهى جامعة رجالية ليس فى تقاليدها دخول الطالبات فيها، ولذلك كنت الطالبة الوحيدة، وكان ذلك يثير دهشة المسؤولين فى الجامعة كلما التقى بى أحدهم فى أروقة المكتبة، أو الكليات، وقد أتيحت لى فى هذه الفترة الدراسة على أساطين النقد الأدبى فى الولايات المتحدة، من مثل ديتشرد بالاكمور، وآلن دوانر، وآلن تيت، ودونالد ستاوفر، وديلمور شوارتز، وكلهم أساتذة لهم مؤلفات معروفة فى النقد الأدبى، كما عرفوا بأبحاثهم فى مجلات الجامعات الأمريكية، وسائر الصحف الأدبية.

* * *

بعد عودتى إلى العراق عام ١٩٥١ بدأت أتجه إلى كتابة النثر بخاصة فى النقد الأدبى وفى عام ١٩٥٣ ألقيت محاضرة فى نادى الاتحاد النسائى ببغداد كان عنوانها (المرأة بين الطرفين: السلبية، والأخلاق) انتقدت فيها أوضاع المرأة الحاضرة، وعقم المجتمع العربى، ودعوت إلى تحرير المرأة من الجمود والسلبية، وقد أثارت هذه المحاضرة ضجة فى بغداد، وتحدثت عنها المحافل طويلا بخاصة وأن إذاعة بغداد نقلتها كاملة، وأذاعتها على الجمهور. وسرعان ما نشرتها مجلة (الآداب) البيروتية التى كانت تصدرها إذ ذاك دار العلم للملايين.

وواصلت خلال ذلك نظم الشعر ونشره، ونشر مقالات النقد الأدبى فى مجلتى (الأديب) و(الآداب) ببيروت.

وفى عام ١٩٥٣ حدث لى حادث هز حياتى إلى أعماقها، فقد مرضت والدتى مرضًا مفاجئًا شديدًا، وقرر الأطباء ضرورة إجراء عملية جراحية لها فى لندن فورًا، ولم يكن فى بيتنا من يستطيع السفر معها إلى إنجلترا سواى،

بسبب معرفتي للندن، وحياتي فيها فترة وبسبب إتقاني للغة الإنجليزية - وكان نزار قد سافر إلى الولايات المتحدة للدراسة. كل هذا اضطرني إلى أن أصحب أمي المريضة أشد المرض إلى لندن على عجل، والرعب مُسْتَوْلٍ عليّ، فقد كنت خائفة في أعماقي من شيء رهيب سيقع لي لم أشخصه، وقبل سفري بأسبوع حلمت أنني أسير في شوارع لندن وأحاول شراء تابوت ملون، وأبحث، أبحث، وأبحث في لهفة ورعب فلا أجد من يبيعني تابوتًا، ولم أقص حلمي هذا على أحد في البيت، وسافرت بها، وتم إدخالها إلى غرفة العمليات، وخرجت منها محمولة على نقالة حيث أودعوها في عنبر الموتى بالمستشفى ريثما تتم إجراءات الدفن المعقدة، وقد رأيتها، وهي تحتضر في مشهد رهيب هز حياتي إلى أعماقها، وكان عليّ أن أحضر مشاهد الجنازة والدفن وأنهض بأعبائها، وهي أعمال لم أعتد القيام بمثلها، وعدت إلى العراق بعد أسبوعين ذابلة حزينة مهزوزة النفس، فقد كنت أحب أمي حبًا شديدًا لا مثيل له، وما كدت أرى إخوتي، وأقاربي يلبسون السواد وهم يستقبلونني في مطار بغداد حتى بدأت أبكي، وأبكي بكاء لا ينقطع ليلاً ولا نهارًا، وسرعان ما لاح لي بوضوح أنني مريضة، فبادرت إلى مراجعة طبيب عالجني بالحبوب المهدئة، فتوقفت دموعي، وإن بقي الحزن يحفر في حياتي حتى اليوم بعد خمسة وأربعين سنة من وفاة والدتي يرحمها الله، وكانت حصيلتي الشعرية المباشرة، بعد وفاة أمي، قصيدة سميتها «ثلاث مرات لأمي» استعملت فيها أسلوبًا جديدًا في الرثاء لم يسبقني إليه أحد، وسرعان ما ذاعت قصيدتي هذه، واستقبلها الشعراء بحرارة، وإعجاب بالغين.

وقد كان من حسن حظي - وأنا في أحزاني التي هدمتني بعد وفاة أمي - أن انتخبتني مديرية البعثات العراقية لدراسة الأدب المقارن في الولايات المتحدة، وقد قبلت في جامعة وسكنسن، إحدى أول عشر جامعات في

الولايات المتحدة، فسافرت متحمسة للدراسة أشد الحماسة، وأتاح لى موضوع الأدب المقارن أن أستفيد من اللغات الأجنبيــة التى أعرفها، بخاصة الإنجليزية، والفرنســية. وخلال هذه الدراســة اكتســبت ثقافة غــنية رائعة أخــصبت ذهنى وملأتنى سعادة. وقد كنت أقضى أغلب الوقت فى مكتبة الجامعة الغربية التى كان لها أعمق الأثر فى حياتى فى تلك الفترة، كما اغتنت حياتى بأفكار عذبة كثيــرة منوعة، واكتسبت من التــجارب أضعاف ما كــسبته فى حيــاتى السابقة كلها. وتغيرت مفاهيمى، ومُثلى، ومقاييسى، وتبدلت شخصيتى كلها.

وقد كــان النظام فى هذه الجامــعة رائعًــا، لأنه لايتطلب كتــابة أطروحة كبيرة، بل يكلف الطالب بإعداد مجموعــة كبيرة من الأبحاث فى موضوعات أدبية منوعــة، فكنت أجد مــتعة عظــيمة فى كــتابة هذه المقــالات التى مرنت قابلــيتى فى النقــد الأدبى، وما زالت الأبحــاث المكتوبة بالإنجليــزية تنتظر أن أترجمها إلى العربية، وأنشرها. وسبب إعراضى عنها، حتى الآن، يرجع إلى أنها كــلها تتناول الآداب الأوروبيــة، فلا يتخلــلها اسم عربى، وقــد ألفت أن أشــعر أن كــتــابة الأديب العربى مــقــالات تغص بالأعلام الأجــنبيــة نوع من التكلف، وإقحام لثــقافة أجنبية على القارئ العــربى البسيط. ولذلك أنوى أن أوسع الجانب المقــارن فى أبحاثى هذه بحيث يشــمل أعلامًا عربيــة إلى جانب الأوروبية، وإذ ذاك سأســتريح إلى نشرها، وأرجو أن يتــاح لى يومًا أن أفعل هذا.

وكان سفــرى إلى وسكنسن عام ١٩٥٤، واستغرق إعداد الماجســتير فى الأدب المقــارن سنتين كتــبت خلالهــما مــذكرات أدبيــة كثــيرة سجــلت فيــها ملاحظاتى على الكتب التى قرأتها، والأشخاص الذين تعرفت إليهم، وعشت بينهم فى تلــك الفتــرة، كــما احــتــوت على آرائى المفــصلة المركــزة فى المرأة الأمريكية. ومع هذا كله، كنت فى مــذكراتى أغوص غوصًا عمــيقًا فى تحليل

نفسى، وقد اكتشفت أننى كننت لا أعـبر عن ذهنى، وعواطفى كما يفعل كل إنســان حولــى، وإنما ألوذ بالانطواء، والصـمت، والخجـل، واتخذت قـراراً حاسمًا أن أخرج على هذا الطبع السلبى، وشهدت مذكراتى صراعًا عظيمًا مع نفسى من أجل تحـقيق هذا الهدف، فكـنت إذا تقدمت خطوة تراجعت عـشر خطوات بحيث اقتضانى التغير الكامل سنوات كثيرة طويلة.

وأنا اليوم أدرك أن تغـيير العادات النـفسية من أصـعب الأمور، ولذلك أعتبر كفاحى المتـواصل لتعديل أعماقى النفسية، ومسلكى الاجـتماعى كفاحًا بطوليًا، لم يساعدنى علـيه إلا الله تعالى برحمته السابغـة، ورعايته الدائمة، مهـما يكن فإن فى نيتى أن أفـرغ يوما لانتخـاب مختارات من مـذكراتى فى مادسن/ وسكنسن للنشـر، وقد أعطيت حلقة منها إلى جـريدة الأهرام صيف سنة ١٩٦٦، فنشرتها فى عددها الصادر يوم ٥/٨/١٩٦٦.

وعندما رجعت من الولايات المتحدة، مررت فى طريق العودة بإيطاليا، وجنوب فرنسا، ثـم عرجت على دمشق حيث مؤتمر الأدباء الـعرب الثانى فى بلودان، وكانوا قد وجـهوا إلىّ دعوة وأنا في الولايات المتحـدة. وكنت يومها أحْس بنوع من الأزمة أعانيـه، فقد كان التعـبير بالعربية لايـطاوعنى تمامًا بعد سنتين لم أتكلم خلالهما إلا بالإنجليزية، وكانت حياتى الفكرية والروحية كلها تقوم على هذه اللغـة الأجنبية، وكنت أحـس بذلك إحساسًا قـاسيًا بخـاصة خلال وجـودى فى مؤتمر الأدباء الذى افتـتحت به عودتـى إلى الوطن العربى الحبيب. ولم يزايلنى هذا الإحـساس إلا بعد مرور أشهر فى العـراق استعدت خلالها طلاقة التعبير بالعربية.

وفى عام ١٩٥٧ صدرت فى بيـروت مجموعتى الشعرية الـثالثة (قرارة الموجة)، وقد احتوت على منتخبـات من شعرى بعد (شظايا ورماد)، ونشرتها دار الآداب ببيروت.

وفى عــام ١٩٥٨ قامت فى العــراق ثورة ١٤ تموز، وأثرت فى حيــاتى أعنف تأثير حتى اسـتغرقت كل لحظة من عمــرى ذلك العام. وقد استقــبلتها بقصيدة ساخنة بدأتها:

فرح الأيتام بضمة حب أبوية

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمس نسائم ثلجية

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهورية

وكانت القـصيدة تعبـيرًا بسيطًا عن الفــرح العميق الغامــر. وتحذيرًا من مؤامرات أمريكا، والصهيونية العالمية:

السوق صحا يا ورد حذار

من نقمته الصهيونية

ومخالبه الأمريكية

ولكن عبــدالكريم قاسم سرعان مــا انحرف، واستهوته شــهوة الحكم، وسمح للشـعوبية أن تمس جمــال الثورة، وتقضى على مــبادئها القومـية التى أحبـها أشد الحب، وقــد اضطرنى عسف الحكم، وتهــديده المستــمر إلى ترك العــراق، والسكن ببـيروت عــامًـا كــاملاً (١٩٥٩- ١٩٦٠) وخــلال ذلك، واصلت نشر إنتاجى القومى فى مجلة (الآداب).

فى عام ١٩٥٧ عينت مدرسة معيــدة فى كلية التربية ببغداد أدرس النقد الأدبى، العــروض، وبعد عــودتى من بيروت عــام ١٩٦٠ تعرفت إلى زمــيل جديد فى قسم اللغــة العربية هو الدكتور عبــدالهادى محبوبة، خريــج جامعة

القاهـرة. وفى منتصف عـام ١٩٦١ تزوجنا، فكان لى نعم الصديق والـرفيق والزميل.

وفى عام ١٩٦٢ صدر لى أول كتاب فى النقد الأدبى هو (قضايا الشعر المعاصـر)، وقد درست فيه الشـعر الحر دراسـة خاصة مفـصلة، ووضعت له عروضًا كـاملاً اعتمادًا على معـرفتى للعروض، وعلى قوة سمـعى الشعرى، وعلى كثرة قراءتى لشعر الزملاء من الشعراء، وقد أهديت الكتاب إلى الرئيس العربى جـمال عبـدالناصر، متحـدية عبدالكريم قـاسم الذى كان يمقتـه أشد المقت.

وفى عام ١٩٦٤ سـافرنا، أنا وزوجى، للعـمل فى تأسيس جامـعة فى البصـرة؛ حيث كان الدكـتور عبـدالهادى رئيسًـا للجامعـة، وكنت أعمل فى التدريس بقـسم اللغة العربية، ثم انتـخبت رئيسًـا للقسم واستمـر عملنا هناك أربع سنوات، وغادرنا البـصرة إلى بغـداد أواخر عام ١٩٦٨ حـيث عدنا إلى التـدريس فى كليـة التربيـة سنة واحـدة، غادرنا العـراق بعـدها إلى الكويت للتدريس فى جامعتها.

وفى عام ١٩٦٤ دعانى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة إلى إلقاء محاضـرات حول الشعر فى موضـوع أختاره، فعكفت على كتـابة كتاب عن الشاعر المبدع على محمود طه الذى كنت تأثرت بشعره خلال فترة الصبا، يوم كنت طالبة فى فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة، وقد طبع هذا الكتاب (شعر على محمود طه) فى القاهرة عام ١٩٦٥. وكان عنوان طبعته الثانية (الصومعة والشرفة الحمراء)، وقد طبعته دار العلم للملايين.

وفى أول سنة ١٩٦٨ صدرت لى مجموعة شعرية رابعة عنوانها (شجرة القمر)، تطور فيـها شعرى تطورًا واضحًا عما كـان عليه فى المرحلة السابقة،

مـرحلة (قرارة الموجـة) التى كنت خـلالهـا أميل إلى الفلـسفـة، والفكر فى شعرى، ونثرى جميعًا.

وفى عـام ١٩٧٠ صدرت مـطولتى الشـعرية (مـأسـاة الحيـاة وأغنيـة للإنسان). عن دار العودة ببيروت.

* * *

وبعد، فـهذه خطوات مركزة مـختصرة من سـيرة حياتى كـتبتها تلـبية لطلبات كثـيرة ترد على من الباحثين، وطلبـة الجامعات الذين يكتـبون رسائل الماچستـير، والدكتوراه. أمـا سيرة حيـاتى المفصلة، ففيـها كثيـر من الغرائب الممتعة، وأرجو أن يتاح لى أن أفرغ لكتابتها يومًا قبل الموت.

مأساة الحياة

الطبعة الأولى ١٩٧٠

«أكثـر هذه المطوّلة قـد نُظم سنة ١٩٤٥ والقليل منها امتد إلى ١٩٤٦، وكان عـمرى ثلاثة وعشرين عاماً».

تقدمة

- بقلم الشاعرة -

يضمّ الأثر الشعريّ الذى أضعه بين يدى القارئ فى هذا الكتاب ثلاث صور شعرية لقصيدة واحدة، أولها قد نظم بين سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٦، وثانيها قد نظم سنة ١٩٥٠ وثالثها متأخر التاريخ حتى ١٩٦٥، ولقد يمكن أن تعدّ قصيدة من هذه القصائد المطوّلة مستقلّة عن الأخريين، لولا أننى قد نسخت بعض الأبيات أحيانًا فنقلتها من قصيدة إلى أخرى على اعتبار أنها مازالت ترضى ذوقى رغم مرور السنين، ولعلّ من المفيد أن أشرح الظروف الزمنية والنفسية والفكرية التى أحاطت بى خلال عشرين عامًا من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥م:

أما القصيدة الأولى فقد نظمتها عام ١٩٤٥ - وكان عمرى إذ ذاك اثنين وعشرين عامًا- ولم يكن ديوانى الأول (عاشقة الليل) قد ظهر إلى الوجود أو طبع، وكنت إذ ذاك أكثر من قراءة الشعر الانجليزى فأعجبت بالمطوّلات الشعرية التى نظمها الشعراء وأحببت أن يكون لنا فى الوطن العربىّ مطوّلات مثلهم، وسرعان ما بدأت قصيدتى وسميّتها «مأساة الحياة» وهو عنوان يدل على تشاؤمى المطلق وشعورى بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد، وقد اتخذت للقصيدة شعارًا يكشف عن فلسفتى فيها هو هذه الكلمات للفيلسوف الألمانى المتشائم «شوبنهاور»: (لست أدرى لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة وموت، لست أدرى لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التى تثور حول لا شئ؟ حتّام نصبر على هذا الألم الذى لا ينتهى؟ متى نتدرّع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حبّ الحياة أكذوبة، وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت؟)، والواقع أن تشاؤمى قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه، لأنه

- كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان، أما أنا فلم تكن عندى كارثة أقسى من الموت، كان الموت يلوح لى مأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذى حملته من أقصى أقاصى صباى إلى سنّ متأخرة.

وهكذا بدأت نظم المطولة، وقد اخترت لها بحراً عروضياً مرناً هو البحر الخفيف الذى يجرى بين يدى الشاعر كما يجرى نهر عريض فى أرض منبسطة، وقد بلغت القصيدة ألفا ومائتى بيت نظمتها فى ستة أشهر تقريبا وانتهيت منها عام ١٩٤٦ وكان موضوعها فلسفيا يدور حول الموت والحياة وما وراءهما من أسرار، وقد تخلل القصيدة جزء منها شكوت فيه من المآسى التى سببتها الحرب العالمية الثانية التى كانت تستعر فى الغرب ودعوت إلى السلام وتغنيت به ونددت بتجار الحروب وقاتلى البشر، ثم انتقلت إلى الحديث عن السعادة متسائلة إن كان لها وجود حق فى الدنيا، ثم رحلت أبحث عنها فى مختلف الأوساط فلا أجدها، بحثت أولا لدى الأغنياء لعل السعادة فى قصورهم وحياتهم المترفة الناعمة، ولكنى لم أجدها لأنّ الغنىّ لا يستطيع أن يدفع وحشة القبر والأكفان بأمواله، ثم مررت بالرهبان والزاهدين فوجدت عواطفهم المكبوتة تقلقل حياتهم ومضض الحرمان يظلل مساكنهم ويبدو على وجوههم، ثم قلت لعلّ السعادة فى ارتكاب الشرور والآثام فطفت بأوكار اللصوص، والمجرمين، فوجدت أن ضمائرهم تعذبهم ولا تأذن لهم أن يرتاحوا، ووصلت إلى الريف بأشجاره وامتداداته الجميلة فوجدت سكانه فقراء محرومين يعيشون عيشة البؤس والعذاب، وصورت فى هذا القسم من المطوّلة، راعيا صغيرا يأكله الذئب ثم وصفت الثلوج التى تهبط طوال الشتاء وتحرم الفلاحين من استنبات الأرض فيتتشر الجوع والحزن بينهم وتموت مواشيهم، ومن الريف انتقلت إلى دنيا الشعراء لعل السعادة عندهم، ولكن بارقة الأمل سرعان ما تخبو بسبب حساسية الشاعر وتألمه للجياع والمحزونين

والمحرومين، ثم أنتقل إلى العشاق لعلهم ذاقوا السعادة، فلا أجد بينهم من يعرفها لأن الشهوة الجنسية تدنس الروح وتحدّ آفاق الفكر، وهكذا تنتهى الرحلة بالخيبة فلا تجد الشاعرة السعادة مطلقا.

ولقد كانت «مأساة الحياة» صورة واضحة من اتجاهات الرومانسية التى غلبتنى فى سن العشرين وما تلته من سنوات، وكان من مشاعرى إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة الأولى من المطولة، صورة ١٩٤٥.

وكنت فى عام ١٩٤٦ أنوى أن أقدّم المطوّلة للقراء بعد مجموعتى الشعرية الأولى «عاشقة الليل»، وعندما طبع هذا الديوان كان فى آخره إعلان صغير عن «مأساة الحياة» ولكن الظروف حالت دون ذلك، فأصدرت مجموعتى الشعرية الثانية «شظايا ورماد» عام ١٩٤٩ وهى المجموعة التى دعوت فيها إلى الشعر الحرّ.

وفى عام ١٩٥٠ كان أسلوبى الشعرى قد تطور تطوراً كبيراً عما كان أيام نظمى للمطولة، فأصبحت مواردى الأدبية أغزر، وأسلوبى أكثر صوراً وثقافتى أغنى، فلم أعد راضية عن (مأساة الحياة) ولذلك قرّرت أن أعيد نظمها بأسلوبى الجديد فكانت صورتها الثانية، وعندما مضيت فى نظمها لاحظت أنها - رغم وحدة الموضوع - قد أصبحت قصيدة ثانية تختلف فى كل لفظة منها عن (مأساة الحياة) فرأيت أن أهبها عنواناً جديداً خاصة وأننى بدأت أنظر إلى الحياة بمنظار جديد فيه مسحة من تفاؤل ووضوح بحيث لا أحتمل أن استبقى العنوان القديم ولذلك سميتها «أغنية للإنسان»، وقد مضيت فى نظمها حتى بلغت أبياتها ٥٨٦ بيتاً من الوزن الخفيف نفسه، وعند هذا بدأت أشعر بالضيق، فقد لاحظت اننى مقيدة بالنسخة الأولى مادمت أعيد نظمها فليس فى وسعى أن أخرج عن الإطار العام للقصيدة الأولى، وكان

علی فی «أغنية للإنسان» أن أبحث عن السعادة فلا أعـثر عليها، بينما كنت قد بدأت أدرك أن السعادة ممكنة ولو إلى مدى مـحدود، فكيف أوفق بين الموضوع القديم وآرائي الجديدة؟

واستـعصى على الحل وقلت لنفسى إننى لا أسـتطيع مواصلة القصـيدة ولابد لى من تركـها، وكـان ذلك، اذ توقفت عن النظم وتركت الـقصيـدتين خمسة عشر عـاما من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٥ وقد كنت خلال هذه السنوات أشعر بالضيق كلمـا تذكرتها لأن «مـأساة الحياة» كـانت أجمل شعـرى فى مرحلتى الأولى، مرحلة «عاشقة الليل» وكانت نسخة ١٩٥٠ أجمل شعرى فى مرحلتى الثانية، ولذلك عزّ على أن تبقى محجوبة عن القراء، وراح الدكتور عبدالهادى محبوبة (زوجى) يحثنى على إتمامها، وفكرت فى ذلك فعلا، ولكنى لاحظت أن أسلوبى الشعرى قد تطور وتغـيَّر ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ فلو أتممت (أغنية للإنسان) لظهر عليها فـارق الأسلوب، وبقيت حائرة ماذا أصنع، ثم قررت أن أنشر (مأساة الحياة) كما هى دون تعـديل، وجلست ذات صباح أنسخها معدّلة كلمة هنا وشطرا هناك دون أن أعيد نظمها كما صنعت سنة ١٩٥٠.

ولكنى ما كدت أمـضى صفحات حـتى بدأت التغييرات تـتسع وتشمل كثيراً من الأبيات، وبعد يومين وجدتنى أغير القصيدة القديمة تغييرا كاملا دون أن استبـقى من المطولة الأولى لفظة واحدة، وهكذا ولدت الصورة الثـالثة من القصـيدة عام ١٩٦٥، ولسـوف يلوح للقارئ أننى أقرب إلى التـفاؤل فى هذه القصـيدة، والواقع أن آرائى المتشـائمة كـانت قد زالت جمـيعا وحل مـحلها الإيمـان بالله والاطمئنان إلى الحـياة، ولذلك راح جـو مأسـاة الحيـاة يتـبدد تدريجيا، وقـررت أن تجد الشاعرة السـعادة فى هذه القصيـدة، وعندما بلغت ستمائة بيت أو يزيد شغلتنى الحياة بأعمال وظروف معقدة فاضطررت إلى ترك المطوّلة والانصراف إلى مشاغلى، ومنذ ذلك لم أعد إلى المطوّلة.

واليوم إذ أقدّم الصور الثلاث إلى المطبعة، أحسّ انني أقدّم عملا أدبياً متكاملا، لأن الشعر قد يقرأ لمجرد كونه شعراً، وهذه المطوّلة بصورها الثلاث تدلّ على خط التطوّر فى شعرى ما بين السنوات العشرين من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥.

وبعد فلست أول من تعتريه هذه الحالات الشعرية فى سنين مختلفة فإن الشاعر الانجليزى جون كيتس مثلا قد نظم قصيدة عنوانها «هايبيريون» HYPERION تناول فيها سقوط الآلهة الأوائل فى الميثولوجى اليونانية، عندما حلّت مكانها أسرة جوبيتر Jupiter إله الآلهة الثانى، وقد صوّر «كيتس» فى هذه المطوّلة ميلاد (أبولو) إله الشمس وكيف حلّ محل الإله السابق هايبيريون إله الشمس الأول الساقط، وتعده هذه القصيدة من أروع شعر كيتس، وقد نشرها فى مجموعته الشعرية الصادرة سنة ١٨٢٠، وعندما انصرم الوقت شعر كيتس أن قصيدته لم تعد تمثل أسلوبه، فعاد ونظم منها نسخة ثانية سماها «سقوط هايبيريون» The Fall of Hyperion ونجد النسختين منشورتين فى ديوان كيتس تدلان على تطوره الشعرىّ من مرحلة إلى مرحلة.

وأنا إذ أقدم اليوم مطوّلتى باشكالها الثلاثة إنما أرجو أن يعذرنى القارئ بعد أن قصصت عليه التاريخ النفسى لها وصلتها بالتيارات الخفية من عواطفى وآرائى وحياتى، ومهما يكن من أمر فإن نسخة ١٩٤٥ كاملة لا نقص فيها، وأما القصيدتان التاليتان فحسبى أنهما تقدّمان الحقيقة الشعرية التى تختلف عن الحقيقة القصصية، فالشعر أعمق وأجمل من مجرد الموضوع الذى يعالجه ولذلك يمكن أن ترتوى مشاعرنا بجزء من قصيدة، وأما القصة فإن تمام الحكاية فيها جزء من كمالها لا ينفصل عنه.

وأود هنا أن أقتبس نماذج من موضوع واحد من القصائد الثلاث ليرى القارئ اتجاه التطور فى شعرى عبر عشرين عاماً، ورد فى «مأساة الحياة» عام

١٩٤٥ فى موضوع البحث عن السعادة عند سكان الأديرة الأبيات التالية:

أيهـا الراهب الذى يـقطع العــمـ ـــر وحيــداً فى كـوخـه المكفــهـر
هات حــدثنّىَ العــشـيّــة عـمــا عند دنيــاك من نعـــيم وبشـــر
حــدثونى عنكم فــقــالوا حيــاة من نــعـــيم وأنـفس مـن نقــــاء
عـجبـاً أين ما يقـولـون؟ مـالى لا أرى غيـر حيـرة الأشـقـياء؟
ما الذى عندكم من البشـر والأفـ ـراح مــاذا يـا أيهـــا الزاهـدونا!
ليس إلا عــمـــر يمــرّ حــزيناً يتـــــهــــاوى كــآبـةً وسكـونا

أما فى نسخة ١٩٥٠ فهذه هى الصورة الـتى صورت بها مشاعر الرهبان ومملكتهم التى تقوم على الكبت والحرمان:

شـيّدوها مـن كـل لفتة شــــوق فــى العـــيون الحبيســة المحرومـه
وسقـوا أرضهـا الجـدبية مـن بـر كــان تــلك العواطـف المكـتومه
وحمـوها مـن أن تغــازلها الشمـ ـس بألــوانها ولــين شــــذاها
وأبــوا أن يلامـــس القـــمر المنـ ـفعل الضـوء فـى المســاء دجـاها
وتمـــنّوا ألاّ تمـــرّ بهــــا ريـ ـحٌ عبـيرية الصــدى والنشـيد
فشفــاه الــرياح تكمــن فــيها قــبلٌ عــذبة وذكــرى خـدود
وتمــنوا أن يقفــل اللــيل عينيـ ـه وتخـبو نجــومه السحـــريّه
فعــيون النجــوم تغـــوى بأهدا ب حــريــرية الــرؤى قمـريه

أما فى نسخة عام ١٩٦٥ فقد تحوّلت هذه المعانى إلى الصيغة التالية:

أيهــا الراهـب الـذى يقطع العمـ ـــر وحــيداً فـى غــرفة منسيـه
ليــس يدرى دفء المودة فى عيـ ـــنين فــى قــرّ ليــلة شــتويه
حـــدّثونى عنكــم فقالــوا ضياء وكــؤوس مــن الشــذى روحيّه
وسموٌ إلـى الذرى الطاهرات الـ ـبيض فــوق الرغــائب البشـريه

عجباً أين ما سمعت هنا شو ... قٌ ونارٌ وأعينٌ مفتونه
وهوى قيّدوه عطشان محرو ... ما فأين السلام أين السكينه؟

ولكن الذى يلاحظ أن نسخة عام ١٩٦٥ قد لمحت تلميحاً واضحاً إلى أن هذه الشاعرة لا تنظر بعيداً ولا عميقاً وهى تبحث عن السعادة وإنما هى متشائمة لأن نظراتها تقع فوق السطوح ولا تغوص عميقاً وراء المظاهر الخادعة. وقد جاء هذا المعنى فى «أنشودة الرياح» التى خاطبت الشاعرة قائلة:

أنصتى تسمعى ... فى السكون حفيف
وانظرى تبصرى ... أن جدبى وريف
لك قلب غفا ... عن معانى الذرى
لك روح ثوى ... فى ضباب الكرى

وهذا التطوّر فى النظرة هو التمهيد لفكرة عثور الشاعرة على السعادة فى ختام القصيدة.

وقد يتساءل متسائل: لماذا بقيت متمسكة بالبحر الخفيف فى القصائد الثلاث دون أن أخرج عنه إلى بحور أخرى؟ وجواب هذا أننى رأيت هذا البحر أكثر ملاءمة للمطوّلات فهو يسمح بالعبارة الطويلة على صورة تريح الشاعر الحديث، ولا يخفى أننا إنما دعونا إلى الشعر الحرّ لنمكن الشاعر العربى من ايراد جمل طويلة دون تقطع.

نازك الملائكة

بحمدون فى ١٩٧٠/٨/١١

مأساة الحياة

عبثاً تحلمين شاعرتى ما   من صباح لليل هذا الوجود
عبثاً تسألين لن يكشف السر   ولن تنعمى بفك القيود

فى ظلال الصفصاف قضيت ساعا   تك حيرى تمضك الأسرار
تسألين الظلال والظلّ لا يعـ   ـلم شيئا وتعلم الأقدار

أبداً تنظرين للأفق المجـ   ـهول حيرى فهل تجلّى الخفى؟
أبداً تسألين والقدر السا   خر صمت مستغلق أبدىٌّ

فيم لا تيأسين؟ ما أدرك الأسـ   ـرارَ قلبٌ من قبل كى تدركيها
أسفا يا فتاة لن تفهمى الأيـ   ـام فلتقنعى بأن تجهليها

أتركى الزورق الكليل تسير   هُ أكف الأقدار كيف تشاء
ما الذى نلت من مصارعة المو   ج؟ وهل نام عن مناك الشقاء؟

آه يا من ضاعت حياتك فى الأحـ   ـلام ماذا جنيت غير الملال؟
لم يزل سرها دفينا فيا ضيـ   ـعة عمرٍ قضّيته فى السؤالِ

هُوَ ســــرٌّ الحـــيــاة دقَّ عـلى الأفـ ـهام حـتى ضـاقت به الحكماء
فـايأسى يـا فـتـاة مـا فُـهـمت من قـبـلُ أسـرارها فـفـيم الـرجـاء؟

جـاء من قـبلِ أن تجيئى إلى الدنْـ ـيـا مــلايين ثم زالـوا وبادوا
ليتَ شـعـرى مـاذا جَنَوْا من ليـاليـ ـهم؟ وأيـنَ الأفـراحُ والأعـيـادُ؟

ليـس منهم إلا قـبـورٌ حـزينا ت أقـيـمت على ضـفـاف الحيـاة
رحلوا عن حِـمَى الوجـود ولاذوا فى سـكونٍ بـعـالم الأمـواتِ

كم أطاف الليلُ الكئيب على الجو وكـم أذعـنـت له الأكـوانُ
شـهـد الليلُ أنّه مـثلـمـا كـا ن فـأيـن الذين بالأمس كـانوا؟

كـيف يا دهر تنـطفى بين كـفَّـيـ ـك الأمـانى وتخـمـد الأحـلامُ؟
كـيف تَذْوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويـعـيش الـظـلام وهْو ظـلامُ

كـيف تحـيـا الأشـواك والزهر الفـا تن يذوى فى قـبـضـة الإعـصـار
كـيـف تمضى إلى الفناء الأناشـيـ ـد وتبـقى سـخـرية الأقـدار

حـدثّى الـقلبَ أنتِ أيتـهـا المأ ساة يا من قـد سُـمّـيت بالحـيـاة
ما الذى تصنعين بى فى الغد المجـ ـهـول مـاذا ترى مـصـير رفـاتى؟

أي قبر أعددت لي؟ أهْو كهفٌ ملء انحـائه الظلامُ الداجي؟
أم ترى زورقي سيغرق بي يو ماً فأثوي في ظلمه الأثباج

لهفتي يا حياة كم تلعب الأو هام بي؟ كم يؤودني التفكير
أبدا أسأل الليالي عن المو ت وماذا ترى يكون المصير؟

طالما قد سألت ليلي لكن عز في هذه الحياة الجواب
ليس غير الأوهام تسخر مني ليس إلا تمزق واضطراب

هل فهمت الحياة كي أفهم المو ت وأدنو من سره المكنون
لم يزل عالم المنية لغزا عزَّ حلا على فؤادي الحزين

فليكن يا حياة لن أسأل الليـ ـل عن السر فاحكمي كيف شئت
امنحيني عمر الزهور فلن أبـ ـكي ومدى الأيام لي إن رغبت

ما الذي ينفع البكاء وما يصـ ـغي إلى الصارخين قلب القضاء
لن يزيد البكاء يوماً على عمـ ـري ولن يرحم المماتُ شقائي

ولتجرّعني الحياة كؤوس الـ ـحزن واليأس ما يشاء شقاها
هل ستصغي إلى رجائي المنايا إن تمنيت صمتها ودجاها

هكذا جئت للحياة وما أد   ری إلى أين سوف تمضى الحياةُ
وسأحيا كما يشاء لى المجـ   ـهول حيرى تلهو بى الظُلُماتُ

إن تمنيت أن أعيش فما يسـ   ـتمع الموت أو يمد السنينا
أو تمنيت أن أموت فما يُرْ   حم حلمى ولست ألقى المنونا

هكذا، ما يريده القدر المحـ   ـتوم لا ما تُريدُه آمالى
سيرتنى الحياةُ أين ترى مَرْ   سى سفينى؟ وعند أى رمالِ؟

ها أنا الآن حيرةٌ وذهولٌ   بين ماضٍ ذَوىَ وعُمْرٍ يمرُّ
لست أدرى ما غايتى فى مسيرى   آهِ لو ينجلى لعينىَّ سرٌّ

يا ضفافَ الأفراح يا ليتنى أعـ   ـرفُ شيئاً عن أفقكِ المجهولِ
لم أعد أستطيع أن أكتم الشو   قَ فأيان يا ضفاف وصولى؟

كلُّ شئ حولى يحدِّثنى عنـ   ـك ولكن متى يحينُ اللقاءُ؟
فارحمينى من قبل أن يحطم المو   جُ شَراعى وتصخب الأنواءُ

آه يا ضفة السعادة ما أنـ   ـت؟ خيالٌ أم واقعٌ مشهودُ؟
أترى قلبى الطعينُ سيلقا   كِ أخيراً أم أنت حلمٌ بعيدُ؟

طالما حــدثوا فــؤادى عن لقـ		ـيـاكِ لكن مـا زلتِ حُلْمَ صـبى
لم أزل أصــرفُ الليــالىَ أبكى		وأغنى حـــزنَ الوجـودِ الشـــقىِّ

على تل الرمال

لم يزل مـجلسى على تلّىَ الرمـ — ـلىِّ يُصـغْى إلى أناشيـدِ أمسى
لم أزلْ طلـفـة سـوى أننى قـد — زدتُ جهلاً بكُنْهِ عُمْرى ونفسى

ليـتنى لم أزَلْ كـمـا كنت قلبـا — ليس فـيـه إلا السَّنا والنقـاءُ
كلَّ يـومٍ أبنى حـيـاتىَ أحـلا — مـاً وأنسَى اذا أتـانى المسـاءُ

أبداً أصـرف النهـار على التل — وأبنـى من الرمـال قـصـورا
ليت شعرى أين القصور الجميلا — تُ وهل عُـدْنَ ظلمـةً وقبـورا؟

ايه تـلَّ الرمـالِ مـاذا تـرى أبـ — ـقـيتَ لى من مـدينة الأحـلام؟
أنظر الآنَ هـل ترى فى حـيـاتى — لمحـةً غـيـرَ نشـوة الأوهام؟

ذَهبَ الأمسُ لم أُعـدْ طفلـة ترْ — قُب عشَّ العـصـفـور كلَّ صباحِ
لم أعـد أبصـر الحيـاة كـمـا كُنْـ — ـتُ رحيـقـاً يذوب فى أقـداحى

لم أعـد فى الشتـاء أرنو إلى الأمـ — ـطار من مَهْدىَ الجميلِ الصغيرِ
لم أعدْ أعشقُ الحمامة إن غنّـ — ـت وألهـو على ضفـاف الغديرِ

كم زهورٍ جـمـعـتـهـا لم تذر منـ ـهـا الليالي شـيئـاً سوى الأشـواكِ
كم تعـاليلَ صـغـتـهـا فَنِيتْ إلا خـيـالاً يؤودُ قلبي البـاكي

آه يا تـلُّ ها أنـا مـثلـمـا كـنـ ـتُ فـأرجع فـردوسـيَ المفـقـودا
أيُّ كفٍّ أثيـمـة سلبتْ رَمْـ ـلَكَ هذا جـمـالَهُ المعـبـودا

كنتَ عـرشي بالأمسِ يـا تليَّ الرمـ ـليَّ والآن لم تَعُـدْ غـيـرَ تلٍّ
كـان شـدو الطيـورِ رجعَ أنـاشيـ ـدي وكـان النعـيم يتـبـع ظلي

كـان هذا الوجـود مملكتي الـكبـ ـرَى فـيـا ليتني أعـودُ إليـهـا
ليت هذي الرمال تسترجع السحـ ـرَ وليـت الربيع يحنو عـليـهـا

لم أعـدْ أستطيعُ أن أحكم الزهْـ ـرَ وأرعـى النجـوم في كل ليلِ
هل أنا الآنَ غـيـرَ شـاعـرةٍ حَـيْـ ـرى وهل غير هيكلي المضمحلِّ؟

ذهب الأمسُ والطفـولةُ واعـتَـضْـ ـتُ بحسّي الرهيف عن لهو أمسي
كل مـا في الوجـود يؤلمني الآ نَ وهذي الحـيـاةُ تجـرحُ نفسي

أين لونُ الأزهـار لم أعـد الآ نَ أرى في الأزهار غـيـر البـوارِ
كلمـا شـممتُ زهرةً صـوّر الوهـ ـمُ لعـينيَّ قـاطـفَ الأزهارِ

أين شدو الطيور ما عدت ألقى ... في صَفَاهُ من يأس قلبي خلاصا
كلّ لحنٍ لصادحٍ يتلاشى ... في ادّكارى الصيّاد والأقفاصا

أينَ همس النسيمِ لم تَعُد الأنـ ... سامُ تغرى قلبي بحبّ الجمال؟
فغداً يهمس النسيمُ بموتى ... في عميقِ الهُوَى وفوق الجبالِ

أين منّى مفاتنُ القَمَرِ السا ... حرِ والصيف والظلام المثيرِ؟
لم أعدْ أعشقُ الظلامَ غداً أر ... قدُ تحت الظلام بين القبورِ

ها أنا الآن تحت ظلّ من الصَفْـ ... ـصاف والتين مستطاب ظليلِ
أقطف الزهر إن رغبتُ وأجنى الثـ ... ـمرَ الحُلْوَ في صباحي الجميلِ

وغداً ترسم الظلالُ على قبـ ... ـرى خطوطاً من الجمال الكئيبِ
وغداً من دمى غذاؤكَ يا صفـ ... ـصاف يا تينُ أيُّ ثأرٍ رهيبِ

ذاك دأب الحياة تسلبُ ما تعـ ... ـطيه بخلاً لا كان ما تعطيهِ
تتقاضى الأحياءَ قيمةَ عيشٍ ... ضمّهم من شَقَاهُ أعمقُ تيهِ

هى هذى الحياةُ ساقيةُ السمّ ... كؤوساً يطفو عليها الرحيقُ
أو مأتْ للعطاش فاعترفوا منـ ... ـها ومن ذاقها فليس يُفيقُ

هى هذى الحـــيـــاةُ زارعــةُ الأشـ ـــواكِ لا الزهرِ والدُّجى لا الضـيـاءِ
هى نـبعُ الآثامِ تســـتلـهمُ الشـــر وتحـيـا فى الأرض لا فى السـمـاء

آدم وحواء

حَسْبُها أننا دفعنا إليها ... ثمنَ العيشِ حَيْرةً ودموعا
أيُّ ذنبٍ جناه آدمُ حتى ... نتلقى العقابَ نحنُ جميعاً؟

وليكن آدمُ جَنَى حسبُهُ فُقْـ ... ـدانُ فردوسهِ الجميلِ عقابا
حسبُهُ يا حياةُ أن هبط الأر ... ضَ ليحيا ويجرعَ الأوصابا

حسبُهُ أنه أتى الأرضَ مطرو ... داً من الخُلْدِ مستطاراً حزينا
حسبُهُ ما رأى من الشر والإثـ ... ـم وما ذاقَ من عذاب السنينا

ليت شعرى ماذا يروق لعينَيْـ ... ـه على الأرضِ بعد سحر السماء
كيفَ ينسَى جمالَ فردوسهِ المفـ ... ـقود فى عالمٍ دجىِّ الفضاء

كيف ينسَى الأمس الجميل ليهنا ... بحياة موسومة بالشقاء؟
ليس يحيا فيها سوى الآثمِ الجبـ ... ـارِ يا رحمتاهُ للضعفاء

قابيل وهابيل

ولماذا ينسَى وهل ثمَّ فى الأر ... ضِ عزاءٌ عن حلمه المعسولِ
كلما لاذ بالخيالِ تجلّى ... لأساهُ ما كان من قابيلِ

أوَ لم تسمع الحقولُ صدى صر ... خةِ هابيلَ حين خرَّ قتيلا؟
أو لم يشهدِ القطيع على الجا ... نى؟ ألم يبصرِ الدمَ المطلولا؟

أين هابيلُ؟ أين وقعُ خطَى أغـ ... ـنامه فى الحقول والوديان؟
ليس منه إلا ضريح كئيبُ ... شادَهُ فى العراء أول جانِ

وأتت ظلمة المساء على الحقـ ... ـلِ وعاد القطيعُ من دونِ راعى
ليس إلا قابيل يمشى كئيباً ... وهو نَهْبُ الأفكارِ والأوجاعِ

ما الذى تنفعُ المدامعُ يا آ ... دم فيما قَضَتْ به السنواتُ
إن يكن من فقدتَ أول مقتو ... لٍ فلاً يا سُيْقَتلُ العشراتُ

يا لأحزان آدمٍ حينما أبـ ... ـصَر بابنيه قاتلاً وقتيلاً
أيها المستطار لن تردع الأقـ ... ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلاً

استــرح أنت، نَمْ، دع العــالَم المحــ ـــزون يحـيــا فــى ظُلْمـة الأرجـاسِ
دعْـهُ فــى غـيِّــه فـــمـا كـــان هابيــ ـــلُ القـــتيلَ الوحـــيد بـين الناسِ

إنهــا لعـنةُ الســـمـــاء علــى العـــا لَم مـــســـدولةَ الـرؤى مكفـــهـــرّه
كلـمــــا ذاق قطـرة من نـعـــــيمٍ أعـقـبتـهـا مـن الأسى ألف قطره

الحرب العالمية الثانية

لم يكد يستفيق من حربه الأو · · · لىَ ويهنا حتى رمته الرزايا
رحمةً يا حياةُ حسبُكِ ما سا · · · ل على الأرض من دماء الضحايا

انظرى الآنَ هل ترينَ سوى آ · · · ثار دنيا بالأمسِ كانتْ جِنانا
ليس من سحرها سوى سودِ أحجا · · · ر تثير الدموع والأشجانا

أين نُعماك يا بقايا القصور الـ · · · ـبيضِ أين الأزهار والأطيارُ؟
هجرتْكِ الطيورُ غيرَ غرابٍ · · · وجفاك الأريج والإخضرار

أين أهلوكِ؟ حدثينى ماذا · · · يا ركام الأنقاضِ كان المصير؟
أين يحيون؟ أى كهف من الأر · · · ضِ زواهم أساه والديجور؟

أين أهلوك يا قصورُ أتحتَ الثـ · · · ـلجِ أم مزقتهمُ القاذفاتُ
أسفاً ضاقت الميادينُ بالقتـ · · · ـلى وما عاد يُدْفَن الأمواتُ

فى سفوح الجبال تحت ذُرى الأشـ · · · ـجارِ خلف القصور والاكواخ
ليس غيرُ الموتى عظاماً وأشلا · · · ءً وغير اكتآبةٍ وصُراخِ

يا مَـلاكَ السـلامِ أقـبل من الأجـ   واءِ واهبط على الـوجـود الكئـيبِ
إبكِ للـراقـدينَ فى وَجْـمـة المو   تِ وأشـرِقْ عـلى الظلامِ الـرهيبِ

طف بهـذى القُـرىَ لتلـمَسَ آهَا   ت الحَزَانَى والساغبـينَ الظمـاءِ
وارحم الصـارخينَ فى سُـرر الأمـ   ـراضِ بيـن الأحـزانِ والأدواءِ

طُفْ بانقـاضِ عـالـمٍ ليس يدرى   هل سيحظى بمبهـجات الحيـاةِ؟
هو إن نـامَ لحظةً هـبَّ مـذعـو   راً لـيـبكى ويـرسلَ الآهـاتِ

مـا درَى حيـنَ أضـرمَ الحـربَ إلا   حُلُمَ الـنَصْـر والفَـخَـارِ العـظيمِ
يا لقـلب المسكين! مـا ينـفع المجـ   ـدُ لـقلبٍ مُلَـوَّعٍ مـصـدومِ

فلْيـفقْ حـسبُـهُ خـيـالاً وأوهـا   مـاً ليَلْقى مـا قـد جَنَتْ كـفَّـاهُ
عـالم مـظـلم يـضـجُّ به المرْ   ضَـى ويـشكـو مـن الـطَوىَ أبْـنـاهُ

جفَّ زهْرُ الـرياض والورقُ النَـضْـ   ـرُ وآوتْ إلى الجـفـاف الحـقـولُ
أسـفـاً لم تَدَعْ لـنا الحـرب شـيـئـاً   وتلاشى الحُلْـمُ الطَرُوبُ الجـميـلُ

من ترى يحرُثُ الحقولَ ويشدو أغنيات المراحِ وقتَ الحصَادِ
أين لهوُ الأطفالِ عند البحيرا تِ وفوقَ الثلوج فى الأعيادِ

أين؟ ضاع الخيالُ والحُلم الفا تنُ ضاع الجمالُ ضاع الرخاءُ
ليس إلاّ دنيا من الجوعِ والفقـ ـرِ عليها يعذَّبُ الأبرياءُ

يا قلوب الأطفال لا تخفقى الآ نَ حنيناً لن يرجعَ الآباءُ
هكذا شاءتِ السنينُ فرفقاً بعيونٍ قد عضَّ فيها البكاءٌ

عيون الأموات

يا رُفاتَ الأمـوات فى الأرض ماذا		رَسَم الموتُ فـوق هـذى العيـونِ؟
أىّ رعبٍ وحَـسْـرَةٍ وشَكاةٍ		أىُّ مـعنىً من الرجـاء الحـزينِ؟

كل عـينين فـيهـمـا صـور تبـ		ـكى وترثى لـلعـالم المغـرورِ
كلّ عـينينِ تَسْـخَـران من العَـيْـ		ـش وتسـتـهـزآن بـالمقـدورِ

كل عـينينِ تنظران إلى الأفـ		ـق بعيـداً عن كل مـا فى الحـيـاةِ
آه يا ربِّ آه لـو فـهـم الأحـ		ـيـاءُ مـاذا فى أعـين الأمـواتِ

يا فتـاةَ الخيـالِ حسبُك شـدواً		برثاء الموتى وحسبُك، حـزنا
سوف يبقَى الخصـام والشرّ مـا عا		ش الأناسىُّ والاناشـيـدُ تَفْنَى

هكـذا شـاءت المقـاديرُ للعـا		لمِ إثـم وشـقـوةٌ وحُـروبُ
وهىَ النفسُ تحـملُ الشـرّ والبـغـ		ـضَ فمـاذا يُفيـدُها التـهـذيبُ

كم تـغنّى بالسلم والحبِّ والرحْـ		ـمة من شـاعـرٍ ومن فيلسوف
أسـفـاً ضـاعت الأغـانى ولم تَبْـ		ـقَ سـوى ضَجَّةِ القتـالِ العنيفِ

يا لهـذا الكـون المعـذب فى قـيـ ـــد من الـشـــرّ والأذى والأثـام
كـيف ينجـو من الآسى ومتى يَشْـ ـفـى من الموجـعـات والآلام؟

كـيف ينجـو والطبعُ والقَـدَرُ القـا سى يَسُـوقـانه الـى الأحـزان؟
يَـا لَقَـلْب المسكـينِ ليسَ له فـى حـومـة الشـرِّ والشَـقَـاءِ يدانِ

كم أرادَ السُـمُـوَّ عن وَهْدَة الـشـر فـحـالت طبـاعُــه الآثمـاتُ
كم أرادَ النجـاة مـن مـخْلب الغَـدْ ر فـعـزَّتْ على مُنَاهُ الـنجـاةُ

مـا الذى رامَـهُ المسيحُ لـكى يُجْـ زى بما كـان مـا الذى كـان منه؟
أيهـا العـالمُ الـذى اقـتـرفَ الذنـ ـبَ أمـا آنَ أن تكـفِّـرَ عـنه؟

أو لـم يَكْـفكَ الشـقـاءُ أمـا زلـ ـتَ مَـشُـوقـاً إلـى حـيـاة الدمـاء؟
جفَّ نبعُ الدمـوعِ والدمِ يـا كـو نُ فـهـلاّ رثيـتَ للاشـقـيـاءِ؟

لُذْ ببُـرْج السـمـاء من نشـوة القَتْـ ـلِ ألا ولْيُـخـتمْ سـجـلُّ الرزايا
وليكن مـن فـقـدتَ فى هـذه الحر ب خـتـامَ الذين مـاتوا ضـحـايا

أنشودة السلام

أيهـا السـادرونَ فْى ظلمـة الأر — ض كـفـاكم شـقـاوةً وذهولا
احـملوا نـادمـينَ أشـلاء مـوتا — كم ونوحـوا على القبـور طويلا

ضـمّـخوها بالعطر لفّوا بقـايا — ها بـزَهْر الكنـارِ واليـاسـمـينِ
واهتـفوا حـولهـا بـأنشـودة السلـ — مِ ليـهنا فـى القـبـر كلُّ حـزينِ

اجمعوا الصبية الصغار ليشدوا — بلحـون الصـفـاء والإبتـسـامِ
أنقـذوا الميّـتين من ضـجّـة الحر — بِ ليستشعروا جمـال السـلامِ

فـيم هذا الصـراع يا أيهـا الأحـ — ـيـاءُ؟ فـيم القـتالُ؟ فـيم الدمـاءُ؟
فـيمَ راح الشُبّـانُ فـى زَهْرة العُمْـ — ـرِ ضـحـايا وفـيمَ هذا العـداءُ؟

أهْو حبُّ الثـراء؟ يا عَـجَـبَ القلـ — ـبِ! ومـا قـيـمـة الثـراء الفـانى؟
فى غـدٍ رحلةٌ فـهل يدفـع الأمـ — ـوات بالمالِ وحشـةَ الأكـفـانِ

كل حىّ غـداً إلى القـبـر مـغـدا — ه فـهـل ثَمَّ فـى الممـاتِ ثراء
افـتـحـوا هذه القـبـورَ وهاتوا — حـدثونـا أين الغنـى والرخـاءُ؟

انظروا ها هنا علـى الشوك والرمـ ـلِ ثوى الأغنيـاء والمعدمونا
أيُّ فَرقٍ ترى وهل غير صمت الـ موتِ فوقَ القبور والراقدينا؟

عجباً ما الذي إذن ساق هذا الـ ـكون للموت والأذى والدمَارِ
فيم تحدو الشعُوبَ أطماعُ غرٍّ يتصبَّى عينيهِ وهْجُ النارِ

نشوةُ النَصرِ؟ يا لسُخرية الألـ ـفاظ! يا للأوهامِ يا للضلالِ
أيها الواهمونَ حسبكمو وهْـ ـماً وهبّوا من الكرَى والخيالِ

نحن أسرى يقودنا القدر الأعـ ـمى إلى ليل عالمٍ مجهولِ
ليس منا من يستطيع فكاكاً ليس منا غير الأسيرِ الذليلِ

أبداً تأمرُ الليالي ونمشي ليس يُجْدي تضرّعٌ أو بكاءُ
ليس يخشى المماتُ صولةَ جبّا رٍ وما يستثيرهُ الضُّعَفاءُ

هكذا الموت غالبٌ أبد الدهـ ـر ونحن الصرْعى الضعافُ الحيارى
وله النصْرُ والفخارُ علينا فاندبوا ما دعوتموهُ انتصارا

أيها العالمُ المخرَّب قد أسـ ـفرتِ الحربُ عن غلاب المنايا
شهدتْ هذهِ القبورُ لها بالنـ ـصْرِ يا رحمتا لتلك الضحايا

ثم مــاذا يا ســاكنى العــالم المحـ ـزونِ؟ مـاذا من القـتـال جنيتُمْ؟
هل وصلتم إلـى النجـوم البـعـيـدا تِ وهل من كفّ العـذابِ نجوتم؟

هل تغلَّبتُمُ علـى الفـقـر والأحـ ـزان والسُــقْمِ أيهـا الواهـمـونا
أنجـــــــــوتم مـن المآثمِ أم لـم يَزَلِ الـعـيشُ فـتـنةً ومـجـونا

أسـفـاً لم تزل كـمـا كـانت الأنـ ـفُسُ تحـيـا فى إثمـهـا الابدىِّ
لم تزل خـمـرةُ الضـلال رجـاء الـ آدمـيـيـنَ فى الوجـود الـشـقىِّ

لم تزل فى الـوجـود أغنيـةُ الحـز نِ يغنّى بـهـا الضـعـاف الجـيـاعُ
لم يزل فى الوجود مـرضى حيارى أبداً تـعـتـريهـمُ الأوجــاعُ

كل شئ باقٍ كـمـا كـان قـبل الـ ـحرب غـيـر الأيتـام والأمـواتِ
غـيـر ظلّ من الكـآبة والحـيْـ ـرةِ يمشى عـلى ضـفـاف الحـيـاةِ

هؤلاء الأيتـامُ بالأمس كـانوا صـورةَ البـشـرْ والمراحِ الجـمـيلِ
تحت ظلّ الآباء يقـضـون عـيشـاً مـا دروا غـيـر صـفـوه المعسـول

وأفـاقـوا من حلـمـهم فـإذا الاقـ ـدارُ حـربٌ والكونُ قـتلٌ ونارُ
يا عـيـونَ الأطفـال لا تسـألى الدنـ ـيـا عـلام اللظـى؟ وفـيم الدمـارُ؟

فى سـبيـل المجدِ المزيف هذا الـ ـهولُ لا كـان مجدهُم لا كـانا
فى سـبيل النَصْر المموّهِ عـاد الـ ـعـالم الحلو فى اللهيبِ دخـانا

هؤلاء الصرعى على الصخر والشو كِ شبـاباً وفـتـيـةً وكـهـولا
كـيف كـانوا بالأمس أية رؤيا رسـمـوها فلم تَهِشَّ طويلا؟

أيهـا الأشـقيـاءُ فى الأرض يا من لم تمتهم قـذائفُ النيـرانِ
عـبـثـاً تـأملون أن يـرجع الآ نَ أعـزاؤكـم إلـى الاوطـانِ

أنظـروا ها هـم الجنود يعـودو ن فـرادى مـهشّـمى الاعـضاء
آهِ لولا بقـيـةٌ من حـيـاةٍ لمْ يُعـدّوا فى جـملةِ الأحـيـاءِ

عـبـثـاً يبحـثـون فى هذه الأنـ ـقـاضِ عن أهلهم وعن مـأواهم
عـبـثـا يسـألون مـا يعلم العـا برُ شـيـئـاً فـيـا لنارِ أسـاهم

كـيف ذاقـوا مـرارة الخيبـة السَوْ داءِ بعـد الآلامِ والأدواءِ
هل نجـوا من براثن الموت والأسـ ـرِ لكى يسقطوا أسارى الشقاءِ؟

أيهـا الأشـقيـاء يا زُمَـر الأحـ ـيـاء فى كـل قـرية وصـعـيـدِ
آنَ أن نستـعيـد مـاضىَ حبٍّ هو مـفـتـاح حلمنا المفـقـودِ

ما الذى بيننا من البغض ماذا		كان سر القتال والأحقاد؟
أيها الناقمون نحن جميعا		شرعٌ فى أيدى الخطوب الشداد

نحن نحيا فى عالم ليس يُدْرَى		سرُّه فهو غيهبٌ مجهولُ
تطلعُ الشمس كل يومٍ فما كنْـ		ـهُ سناها؟ وفيم كان الأفولُ؟

ما الذى يُطْلعُ النجومَ على الكو		نِ مساءَ؟ ما كنْهُ هذا الوجودِ؟
أى شئ هذا الفضاء وما سر		دجاه؟ هل خلفَهُ من حدودِ؟

نحن هل نحن فى الوجود سوى الجهـ		ـلِ مَصُوغاً فى صورة الإنسان؟
كلٌّ ما فى الأكوانِ يحكمنا ما		ذا إذنْ سرٌّ ذلك الطُغيانِ؟

فيم نطغى؟ وكيف ننسى قوى الكو		نِ وما فى الوجود أضعف منّا
ينخَرُ الدودُ ما نشيدُ ولا تُبْـ		ـقى البراكينُ والرياحُ علينا

فيم نقضى حياتنا فى العداوا		تِ ونمضى السنين يأساً وحزنا؟
كيف ننسى أنّا نعيش حياة الـ		ـوردِ سرعان ما يموت ويفنى

لن تدوم الأيام لن يحفظ الدهـ		ـرُ كياناً لكائنٍ بشرىٍّ
فلندعْ هذه الضغائنَ والأحـ		ـقادَ ولنحى فى الوداد النقىٍّ

البحث عن السعادة

قد بحثنا عن السعادة لكنْ ... ما عثرنا بكوخها المسحورِ
أبداً نسأل الليالىَ عنها ... وهى سرُّ الدنيا ولغزُ الدهورِ

طالما حدّثوا فؤادىَ عنها ... فى ليالى طفولتى وصبايا
طالما صوروا لعينىَّ لقيا ... ها وألقوا أنباءها فى رؤايا

فهى آناً ليستْ سوى العطرِ والألـ ... ـوانِ والأغنياتِ والأضواءِ
ليس تحيا إلاّ على باب قَصْر ... شيدته أيدى الغنى والرخاءِ

وهى آناً فى الصوم عن مُتَع الدنـ ... ـيا وعند الزهّادِ والرهبانِ
ليس تحيا إلا على صخر المعـ ... ـبدِ بين الدعاء والإيمانِ

وهى حيناً فى الإثم والمتع الدنُـ ... ـيا وفى الشرِّ والأذى والخصامِ
ليس تصفو إلا لقلب دنىءٍ ... لائذٍ بالشرور والآثامِ

وهى فى شرع بعضهم عند راعٍ ... يصرف العمر فى سفوح الجبالِ
يتغنىَّ مع القطيع إذا شا ... ء ويغفو تحت الشَّذَى والظلالِ

وهي في شـرع آخَرينَ آبنةُ العُزْ لةِ والفنّ والجمال الرفيعِ
ليس تحيا إلا على فمِ غِرِّيـ ـدٍ يغنّي أو شاعرٍ مطبوعِ

وهي حيناً في الحبِّ يُلْهمها سَهْـ ـمُ كيوبيد قلبَ كلّ محبٍّ
ليس تحيا إلا على شفة العا شقِ يشدو حياتهُ لحنَ حُبٍّ

حَدَّثوني عنها كثيراً ولكن لم أجدْها وقد بحثتُ طويلا
لم أزَلْ أصرفُ الليالي بحثا وأغنّي بها الوجودَ الجميلا

مرَّ عمري سدى وما زلت أمشي فوقَ هذي الشواطئ المحزونه
لم أجدْ في الرمال إلا بقايا الـ ـشوك! يا للأمنيةِ المغبونه

أين اصدافكَ اللوامع يا شطُّ إذن أين كنزُكَ الموعودُ؟
هاتهِ رحمةً بنا، هات كنزاً هو ما يرتجيهِ هذا الوجودُ

هاته حسبُ رملك البارد القا سي خداعاً لنا وحسبُكَ هُزْءا
يا لحلمٍ نزيدُ منه اقترابا وهو مازال أيها الشط ينأى

لم تعد قصة السعادة تغريـ ـني فدعني يا شاطئ الآهاتِ
عبثاً أرتجي العثور على الكنـ ـز فلا شئ غيرُ صمتِ الحياةِ

أين من هـذه الحـيـاة ابتـسـامـا ت الأمـانـى ونشـوة الأفـراحِ؟
كيف يحيا فـيها السـعيـد وليستْ غـيـر بحـرٍ تحت الدجـى والرياحِ

طال بـحـثـى يا ربِّ أيـن ترى ذا ك السـعيـد الجـذلان أين تراه؟
ليس حـولى إلا دياجـيـر كـونٍ لـيـس يَفْنَى بكاؤه وأسـاهُ

كل يوم مَـيْتٌ يسـيـر به الأحـ ـيـاء باكـين نـحـو دُنْيـا الظلامِ
يا لأسطـورةِ الخلود فـمـا الخـا لد غـيـر القـبـور والآلامِ

يـا دوىَّ النُـواحِ فـى الأرض أيّـا ن يكفُّ البـاكـونَ والصـارخـونا؟
ومـتى ينتـهى الشـقـاء مـتى يرْ تاح كـونٌ ذاق العـذاب قـرونـاً

عـالمٌ كلٌّ من على وجـهـه يَشْـ ـقَى ويقـضى الأيامَ حـزنـاً ويأسـا
جـرّعـتْـه السنين حنـظلَهـا المرَّ فـعـافَ الحـيـاةَ عـينـاً ونفسـا

إيه أُسْطورةَ السـعـادة هـاتى حـدّثينى عن سـرِّك المنشـودِ
أينَ ألـقـاكِ؟ أين مـسكنُـك المر موق؟ فى الأُفْق أم وراءَ الوجودِ؟

سرتُ وحـدى تحت النجوم طويلاً أسـألُ الليـلَ والدياجـيـرَ عنك
أسفاً لم أجدْكِ فى الشاطئ الصخـ ـرىِّ حـيـث الميـاه تفـتـأ تـبكى

حيثُ تبقَى الأشواكُ والورد يَذْوى ... تحتَ عــين الأيّام والأقــدار
حيثُ يفنى الصفاءُ والليلُ يأتى ... بجنونِ الأنواءِ والأعصارِ

حيثُ تقضى الأغنامُ أيامها غَرْ ... ثى ولا عُشبَ فى جديبِ المراعى
أبداً تتبعُ السرابَ وتشكو ... بُخْلَ دهرٍ مزيّفٍ خَدَّاعِ

حيث يحيا الغرابُ، والبلبلُ المو ... هوبُ يَهْوى فى عشِّه المضفورِ
ويغنّى البومُ البغيضُ على الدَوْ ... حِ ويثْوى القمرىُّ بين الصخورِ

حيث تبقى الغيومُ فى الجوّ رمزاً ... لحياة سوادُها ليسَ يَفْنَى
حيث تبقى الرياحُ تصفر لحناً ... هو سخّريّةُ المقادرِ منّا

حيثُ صوتُ الحياة يهتفُ بالأحـ ... ـياء: ماذا تحتَ الدُجَى تبتغونا؟
انظروا كلُّ ما على الأرض يبكى ... فأفيقوا يا معشر الحالمينا

بين قصور الأغنياء

سرتُ بين القصور وحدى طويلاً أسألُ العابرينَ أين الطروبُ؟
فإذا فتنة القصور ستارٌ خادعٌ خلفَهُ الأسَى والشحوبُ

لم أجدْ فى القصور إلا قلوباً حائرات وعالماً محزونا
ليس إلا قوم يضيقون بالأيّـ ـام ضيقَ الجياع والبائسينا

ليس ينجيهم الغنى من يد الأشـ ـجانِ ليستْ تُنْجيهمُ الكبرياءُ
ليس يعفو المماتُ عنهم فهم حزْ نٌ وصمتٌ وحيرةٌ وبكاءُ

كم وراء القصور من مُقَل تبـ ـكى وتشكو قساوةَ المقدورِ
كم قلوبٍ تَوَدُّ أن تُبدلَ القصـ ـرَ بكوخٍ على حِفاف الغديرِ

إن يكونوا نَجْوا من الجوع والفقـ ـر ولم يفترسْهمُ الحرمانُ
فلقد طالما أحسُّوا بجوعِ الـ ـروحِ واستعبدتهمُ الأحزانُ

إن يكونوا يقضونَ أيّامَهم بيـ ـن الحريرِ الملَّونِ الجذَّابِ
فغداً تعبرُ الدهورُ وهم مَوْ تَى على الشَّوْكِ والحَصى والترابِ

إن يكن فى قصورهم من سَنا الأضـ ـواء مـا يُرجِع الـظلامَ ضـيـاءَ
فـغـداً يخـمَـدُ الضـيـاءُ وتـبـقى ظلـمـةُ الليـلِ بُكْـرةً ومـسـاءَ

ليس تُنْجي القـصورُ من ربْقـة الحُزْ نِ إذا طـافَ بالـقـلوب دجـاه
كم غنيٍّ يَقْـضى الحـيـاةَ شـقـيّاً مُـغْـرقـاً فـى أنيـنهِ وبُـكاه

كل مـا فى هذا الوجـود من الأمـ ـوالِ لايسـتطيعُ دَفْعَ الـشـقـاءِ
كلُّ تلكَ الـكنوزِ مـا غَـمَـرَتْ قطُّ غنـيـاً بسـاعـةٍ من هـناءِ

يا طريقى مـلْ بى العـشـيّـة مـا عـا دَ جـمـالُ الـقـصـور يَحلُو لـعـينى
لم أجـدْ ومْضَـة السـعـادة فـيـهـا لم أجـدْ غـيـرَ ظلّ يأسٍ وحـزن

عند الرهبان

سِــرْ بنا نحــو ذلك المعْــبـد القــا		ئم فــوق الـصـخـور بين الجــبـالِ
سِـرْ بنا ســر بنا لعلّ لـدى الرهُـ		ـبـان ســرَّ النعـيـمِ والآمـــالِ

هؤلاءِ الـزُهَّادُ فـى القنّةِ الـبــيـ		ـضاء حيث الصفاءُ ملء الوجودِ
علَّهم يـعـرفـونَ مـا قـد جَـهِلْنا		عن شِـهـابِ الـسـعـادةِ المفـقـودِ

قد سألتُ الرهبان عن كنزنا السّحْـ		ـرىِّ لكـن لم ألـقَ منـهـمْ جــوابا
لم يُجِبْنى منهم سوى صوتِ محزو		نٍ يغـنّى ويـجـــرَعُ الأوصـــابا

لم أجدْ فـى تلك الصوامعِ غـير الـ		أوجُـه الـشـاحـبـاتِ والديجـورِ
لم أجـد غـيـرَ وحشـةٍ تبـعثُ اليأ		سَ وصمتٍ كـمثل صمتِ القبورِ

هؤلاء الأشــبــاحُ مـــاذا تراهم؟		آدمــيّــونَ أم بقـــايا طُـيـــوفِ
فـــيـم جـــاءوا هـنا وأيةُ سـلوىً		وجـدوها مـا بـيـنَ هذى الكهـوفِ

فى بعــيــد الآفــاق تحتَ دياجـيـ		ـرِ وجـــودٍ تمضـى الكآبةُ فـــيـــه
حيثُ مـا زالتِ الحـيـاةُ كـمـا كـا		نتْ عـلى عــهـــدِ آدمٍ وبنيـــه

حـــيث لا زهر لا عـــرائش لا أشـــ ـــجـــار لا شئَ غـيـر هـذا السكونِ
لا جـديدٌ فـيــه سـوى مـوتِ حيٍّ من بنيـهِ مــا بـينَ حـينٍ وحـينِ

أيّهـــا الراهبُ الذى يـقطعُ العُـــمْـ ـــرَ وحـيــداً فى كـوخِـهِ المكفـهِـرِّ
هاتِ حـدِّثْنى العـشـيَّـةَ عـمـا عـنـد دنيـاكَ من نعـيمٍ وبِشْــرِ

حـــدَّثونى عنكم فـقـالوا حيـاةٌ من نـعـيمٍ وأنـفُسٌ من نقــاءِ
عـجبـاً أين ما يقـولـونَ؟ مـا لى لا أرى غـيـر حَيْـرةِ الأشـقـياءِ

مـا الذى عندكم من البشـر والأفـ ـــراحِ؟ مـــاذا يا أيّهـا الـزاهدونا؟
ليس إلا عُــمْـرٌ يمـرّ حــزيناً يتــهـــاوَى كـــآبةً وسُكُـونا

حــدّثونى عنكم فـقـالـوا قلوب نُســجتْ من نـقـــاوة وثَرَاءِ
ونفوسٌ صـيغَتْ من الزهْرِ والعطـ ـــرِ وهـامتْ مـع السَّنَا والنَّقَـــاءِ

أين هـذا الذى يـقـــولـونَ عنـكم أيّهــا الراهـبـــونَ؟ أيـن تراهُ؟
إسمُ (تاييـسَ) لم يَزَلْ يمــلأُ الكو نَ فــأيـنَ الذى أضـلّت خُـطَاهُ؟

مـا نَسِـيـنا غَـوَايَة الراهـبِ المسْـ   ـكينِ فى حبِّـهـا، وكـيف هداها!
يـا لـه بـائـســـــأ بـابـنـةِ الإثـ   ـمِ إلى قـــمّـة السَّـمـاءِ وتاها

أيّهـــا الـراهـبـــون لن تنبت الأز   هارُ والعطرُ والسَّنَا فى النفــوسِ
عـبـثـاً تَهْـربونَ من مُـغْـريات الـ   ـعَيْشِ كم فى الـوجـودِ من تاييسِ

لن تذوقـوا شهـدَ السـعادة مـا دمـ   ـتم أنـاسـيَّ مـن تـرابٍ ومــــاءِ
كـتـبـت هذهِ الطبـيـعــةُ للأحـ   ـيـاءِ أن يَكْرعـوا كـؤوسَ الشـقـاءِ

أوَ تَـنْسَـــــون أنكـم لـم تزالـوا   مـثلمـا كنتـمـو حَـيَارَى حَـزَانَى
لم تَـزَلْ فــتـنةُ الوجـــود تنـاديـ   ـكم وتُـهْـفـيكمُ إلـى مـا كــانا

لم تَـزَلْ ذكـرياتْ أمْـسِكُمُ المهـ   ـجور تحـيـا فى الأنفسِ المحـزونه
وخـيــالٌ من عــالـمٍ فـاتنِ الألـ   ـوانِ ملءَ المشــاعــر المغــبــونه

أيهـــا الراهـبـــونَ مـــاذا إذَنْ نـفـ   ـعُ اعــتـزالٍ تشـوبُهُ الصـبـواتُ
آهِ عــودوا إلى مـصــارعــةِ الدهـ   ـر وعـيـشـواً كـمـا تشاءُ الحياةُ

أيهـا المعبـدُ الحـزين وداعـاً   أنت يا مـن لاذتْ بـه آمـــالـى
لم أجـدْ فى حِـمَـاكَ زهـرةَ أحـلا   مى فـيـا ضَـيْـعـةَ السُّـرىَ والكلالِ

لم أجـد زهرةَ الـسـعـادة والأفـ   ـراحِ عـند الـزُّهَّادِ والـراهبـيـنا
آهِ ضـاعتْ أيّامُ عُـمـرى ومـا زا   لَ شِـراعى يـطوى فـراغـاً حـزيناً

عند شط الحـيـاة ألـقـيتُ مَـرْسَى   زورقى فى الضـبـابِ تحت الظلامِ
أرقُبُ السائرينَ فى الشاطئِ الصخـ   ـرىِّ بيـن الـوهـاد والآكـــامِ

أين ألـقـاكِ يا سـعـادةُ؟ هـاتى   حـدِّثينى فـقـد بـحـثـتُ طويلا
طال تيـهـى فتبـئـينى مـتـى يبـ   ـلغُ قـلبى مـقـرَّكِ المجـهـولا

أولَم أقـطعِ البـحـارِ إلى الـرُهْـ   ـبـانِ والزاهدينَ فى الـصَّحـراءِ
أولَم تُـنْكـر الفـضـيـلةُ ألوا   نَكِ يا لـهـفـتـاهُ ضـاع رجـائى

مع الأشرار

قد رقبتُ الأشرارَ حيناً فلم أعـ ـشر لديهم على سناك الحبيب
فهمُ البائسونَ تَطحنُهم أيـ ـدى الليالى بما جَنَوا من ذنوبِ

ورأيتُ الطغاةَ يحيون محزو نين بين الأوهام والأشباحِ
ليس يشفيهمُ من الحزن واليأ س دواءٌ فالداءُ فى الأرواحِ

فإذا أخمدوا هُتافات مظلو مٍ فما يُخْمدون صوتَ الضميرِ
ذلك الراقبُ الإلهىُّ فى النفـ ـس لسانُ الهُدَى وصوتُ الشعورِ

أبداً ساهرٌ يراقبُ أقدا رَ الليالى وسَطْوة الأيّامِ
أبداً يرمقُ الحياةَ من الأعـ ـماقِ، مُستهزئاً من الأعوامِ

فإذا حادت القلوبُ عن الخيـ ـرِ علا صوتُ ذلكَ الجبّارِ
فَهُوَ الناقمُ النبيلُ على الشرِّ وقاضى الطُغَاةِ والأشرارِ

كيف ينجو الأشرارُ من شقوة الرو حِ وصوتُ الضمير بالمرصادِ
لا ملاذٌ من حاكمٍ يملكُ الرو حَ بما فى كفَّيْه من أصفادِ

عـجبـاً أينَ تلتـقيك حَـيَـاتى؟ يا ضـفـافَ السـعـادة المـنشـوده؟
جـبتُ هذا الوجـود أبحـث لكن لم تزالـى الحـقـيـقـةَ المفـقـوده

جـهلتْك الـدنيـا فـلا أحـدٌ يعـ ـلم مـا أنت واقعٌ أم خـيـالُ؟
كلُّـهم يـسـألون عـنكِ ولـكن لـم تحـدّثْ بسـرِّكِ الآزالُ

ها أنا ذى حـملتُ قلـبى على كـفّـ ـى وسـرتُ الحـيـاةَ أبحـثُ عنك
أسـألُ العـابرينَ هل فـيـهمُ من قـد روَى قلبَـهُ المشـوَّقَ مـنكِ

فـى الـريـف

عند هذى الأكـواخ شــاعـرتى ألـ ـقى المراسى تحتَ الفضاء الصاحى
أنظـرى أىُّ عـــالـم فــاتـنِ المجـ ـلى بعـيــدٍ عـن ضَـجَّـة الأتراحِ

أنظـرى علّـنا بلـغنـا أخـــيـــراً ذلكَ الـشــاطـئَ الذى نـتـــمـنَّى
بعــــدَ لـيلٍ من المســيـــر طـويلٍ ضـاعَ فـيـه عمـرى كَـلالاً وحُـزْنا

أنظرى أنظـرى هنا العُـشُبُ الأخـ ـضرُ نشـوانَ فى سُـفـوح الجـبـالِ
عنـدَ نبـعٍ من قُـنَّةِ الجـــبـلِ الأبـ ـيضِ يَجْـرى تحتَ السَّـنا والظلالِ

الصـبــاحُ الجـمـيلُ قـــد توَّجَ الود يان بالضــوء والجـمـــال البـهـيجِ
مـــا أحـبَّ الحـيــاةَ فى هـذه الجنّـ ـةِ تحتَ الضــيـــــاءِ بيـن المروجِ

ما أحبَّ الصـفاءَ يحتـضن الأشجـ ـجارَ والوادىَ النضـيرَ الخـصـيـبـا
مـا أرقَّ الأزهـارَ فى مَـهْـدها الور دىِّ مـــا أعطر الـرُبَى والسـهــوبا

كـلُّ شـئٍ فـى هـذه الجنّـة الحُـلْـ ـوة يوحى بأننا قــــد وصـلنـا
ها هنـا شــاطئُ الســعـــادةِ هذا حُلْـمُ قلـبى فـــمـــا ألذَّ وأهـنا

فلنُطفْ بالعرائشِ الخُضْر فلنَغْـ ـنمْ صفاءَ الحياة بَعْدَ أساها
فلتجفّ الدموعُ فليمضِ أمسٌ مرَّ بالقلبِ باكياً أوّاها

ولنعش للصفاء يفتنُّ دنيا نا غناءُ الرُعَاة عند الجبالِ
ونشيدٌ تُديرُهُ شَفتَا طفـ ـلٍ يُغنّى على تلولِ الرمالِ

وقطيعُ الأغنام فى المَرْج تحت الظـ ـلِّ والفجرُ والنَدَى والنسيمُ
وليالى الحصادِ والقَمَرُ السِحْـ ـرىّ والطيفُ والصَدى والغيومُ

فلنُقَضِّ الحياةَ فى هذه الجنـ ـة ناسينَ حادثات الحياة
ها هنا فتنةُ الطبيعة تُنْجى الـ ـكائنَ الحيَّ من خيالِ المماتِ

هاهنا أستطيعُ أن أفهم السـرَّ فـفيم الأسى وفيم البكاءُ؟
هل خَلَتْ هذه المجالى من الأغـ ـنامِ يوماً؟ وهل تعرَّى الفضاءُ؟

ها هنا يستطيعُ أن يفهَمَ القلـ ـبُ جمالَ الدنيا وسرَّ الخلودِ
كل حيٍّ باقٍ فإن ماتَ غِرِّيـ ـدٌ فكم فى الأعشاش من غِرِّيدِ

ها هنا كلُّ زهرة تبعثُ العطـ ـرَ فإن تَفْنَ فالشذَى غيرُ فانِ
كم زهورٍ ستنشُرُ العِطْرَ والألـ ـوانَ من بعدُ فى فضاءِ المغانى

ها هنا إن يَسرْ أبولو بضوء الشـ ـمسِ نحوَ المغيب كلَّ مساءِ
فالنجومُ المتلألئاتُ جمالٌ شاعريٌّ الألوانِ والأضواءِ

ها هنا تنطقُ العرائشُ بالشعْـ ـرِ وتحنو على مجاري الجداول
هاهنا تستحمُّ آلهةَ الأنـ ـهار في الماء تحت ظلِّ الخمائل

كلُّ شيءٍ حُلْوٌ فأينَ ترى السكـ ـانُ؟ أين الفلاّحُ والقُطْعانُ؟
فيمَ لا يملأون عالَمَهم لهـ ـواً؟ وأين الآمال والألحانِ؟

سرتُ فيه وحدى أسائلُهُ عن ساكنيه وأىُّ وادٍ حَواَهم؟
أىُّ لحنٍ يرنّمونَ إذا الشمـ ـسُ أطلّتْ؟ وما ترى نجواهم؟

كيف يحيَوْنَ فى صفاء من العيـ ـشِ بعيد عن قَسْوة الضرّاءِ
أأظلَّتْهُمُ السعادَةُ بالأحـ ـلامِ أم هُم كسائرِ الأشقياءِ

اتراهم يرنّمونَ الأغاريـ ـدَ ويَلْهُونَ فى ليالى الحصادِ
تحت ضَوْءِ النجومِ والقَمَرِ البا سمِ بين العطورِ والأورادِ

أتراهم أولئك البَشَر اللا هونَ بين الجمال والأحلامِ؟
أتراهم كما تخيّل قلبى؟ أم ترانى أمعنتُ فى أوهامى

يا رُعاةَ الأغنامِ في السفحِ عند النـ ـبعِ بين العرائشِ السّندسيّه
حدّثوني عن أغنياتكم الجَذْ لَى وعن بسمة القُرَى الشاعريّه

حدّثوني عن الربيع إذا مرَّ على هذه القُرَى والشطوط
حدّثوني عن الحَصَادِ ومجنى الـ ـزهرِ والبرتقالِ والبلّوط

حدّثوني ما لي أراكم حَزَانَى؟ كلُّ راعٍ في وحشةٍ واكتئابِ
كلُّ راعٍ جهمُ الملامح لا يشـ ـدو ولا يَزْدهيه سحرُ الغابِ

أنت يا أيّها الحزينُ أجبني أيُّ حزنٍ في مقلتيكَ أراهُ؟
أي قيدٍ من المرارة واليأ س أظلّتْكَ يا كئيبُ يداهُ؟

كيف يَشْقَى من في حمى هذه الجنـ ـة يحيا وتحت هذي السماءِ
كيفَ يشقى الراعي وبين يديهِ جنّةٌ من مفاتنٍ وضياءِ

أسفاً قد خُدِعتُ لم تَصْدُقِ الأحـ ـلامُ فيما رسمن من أفراحِ
لم أجدْ عند ذلكَ الشاحبِ الصامتِ إلا مرارة الأقداحِ

فهو عندَ الينبوعِ ينظُرُ في الظلِّ إلى الأفْقِ شاحباً مصدوما
ممعناً في الجُمُودِ والصمتِ كالمو تَى يُنَاجِي الفضاءَ يَرْعَى الغيوما

لم تزلْ قُـربَـهُ على العُـشْب النا   دى عظامٌ لكائنٍ مـقـتـولِ
هو ذاكَ الراعى الصـغيرُ الذى را   حَ طعـامـا للذئبِ بين الحقـولِ

إيه راعـى الأغنـامِ يا أيّـهـا المقـ   ـتولُ فوق العُشْب الندىِّ النضيرِ
كيف مـاتَ الراعى ولم تَمُتِ الأغـ   ـنامُ يا لَـلْمـقـدَّر المَسْطورِ

يا لحَكمِ الأقـدارِ يا راعـىَ الأغـ   ـنامِ يـا ظُلْمَ مـا تُريدُ الصـروفُ
كيف تَفْنَى الأشـواكُ حارسةُ الزهـ   ـرِ ويَبْقى الوردُ الرقيق الضـعيفُ؟

إنهـا قـصَّـة الطبـيـعـة يا را   عى قـتـالٌ وأدمعٌ وشكـاةُ
إن تكنْ قـد قُـتلتَ فـالثـأرُ باقٍ   وغـداً تَقْـتلُ الـذئابَ الرُعَـاةُ

نازعـتنا البـقـاءَ فى هذه الأر   ضِ وحوشُ الأحراش والأطيارُ
فلنا النصـرُ مـرّةً ولهم أُخـ   ـرى كـمـا تبتـغى لنا الاقـدارُ

فـعـزاءً يا أيّها الجَسَدُ المصـ   ـروعُ فى غـمـرة الكرى الأبدىّ
قـد بكاكَ الراعى الصـديقُ ومـا زا   لَ غـريقـاً فـى حُـزْنه الأخـوىّ

لم يزَلْ جـامـداً على حـافـةِ النبـ   ـعِ وفى مقلتيه دَمْع الشجـونِ
يرقب الماءَ شـاكيـاً قسـوة الاقـ   ـدار مستنكراً ضـلال المنونِ

صامتاً ساهماً بعيداً عن الأغـ ـنامِ حيرانَ فى ضَبَابِ الوجودِ
رازحــاً تحت وَطأة الألَمِ الطا غى مُشيحاً عن الشذى والورودِ

كلما جفَّ دمعُهُ ذكر المقـ ـتولَ والذئبَ فاستردَّ أساهُ
يا لأحزانِه المُلحّاتِ يا للـ ـهولِ ماذا ترى يعيدُ صفاهُ؟

السَّنا والجمال؟ يا حَيْرةَ الرا عى ويا ضَيْعةَ السنا والجمالِ
بعد حينٍ ستَعْصفُ الريحُ بالصَفْـ ـصافِ والوردِ فى سُفُوح الجبالِ

بعد حين يأتى المساءُ كئيباً ويلفُّ الجبالَ بالأحْزانِ
ويسودُ السكونُ غير هتَافِ ردّدتْهُ ضفادعُ الغدرانِ

غيرَ صوت النشيج فى قرية الرا عى تعالَى تحتَ الدُّجَى المنشورِ
غيرِ صوتِ القَدُومِ يُعْمِلُهُ الحفْـ ـارُ فى الأرض بين صَمْتِ القبورِ

ثم يمضى الليلُ العميقُ إلى غيـ ـرِ رُجوعٍ وتبسمُ الاضواءُ
ويعودُ القُمْرِىُّ يَصْدحُ جذلا نَ كأنْ ليس فى الحياة شقاءُ

غيرَ دار ماذا يعذِّبُ أهل الـ ـقرية البائسين من آلامِ
غيرَ دارٍ ما خلفَ اكواخهم من رَعَشاتٍ ولوعةٍ وسَقَامِ

ليسَ يدرى القُـمْرىُّ لا ليس يدرى ... مــا وراء الأكــواخ من حِــرْمــانِ
ليس يدرى أنّ الطـبـيـعـةَ تَقْــسو ... لـيـس يدرى مـــرارةَ الأحـــزانِ

ليس يدرى مـاذا وراء بـيـوت الطـ ... ـيـنِ هذى من وحـــشـــةٍ وظلامِ
ليس يدرى مـــاذا يهـزُّ الخـيـامَ الـ ... ــســـودَ من لهـــفـــةٍ ومِن آلامِ

ليس يدرى القـمرىُّ ما يُحْـزِنُ الفـ ... ـلاحَ فـى كـــوخِـــه وليـس يراهُ
ليس يـدرى أنّ الأمــاسىَّ قــد تمـ ... ـضى عـليـهِ ومـا يغـيـبُ أســاهُ

ليس يدرى مـا يفعلُ الجـوعُ والحز ... نُ بأهـلِ الأكـــواخِ كلَّ شـــتـــاءِ
حـــينمـــا تَغْـمُــرُ الثلـوجُ ثَرَى المر ... جِ وتطـغَى عـــواصفُ الأجـــواءِ

حـينمـا فى حَـضَـائرِ القـريةِ الحـيـ ... ـرَى يمـوتُ القطيعُ مـوتَ غَـبـينِ
حـينـمـا تُذْبلُ العـــواصفُ زهر الـ ... لوز والبـــرتـقـــال واليـــاســـمـــينِ

حـينمـــا تدفن الثلوجُ حـقـول الـ ... ـقـــمح يـا رحـــمـــتـــاه بالفـــلاّحِ
حـينمـا يصـرخُ الجـيـاعُ الحَـيَـارَى ... فى ظلامِ الأكـــواخِ كلَّ صـــبـــاحِ

أيّهـــا الصـــادحُ المغـــرِّدُ فـوق الـ ... ـدَّوحِ طِرْ عن هذا الـوجـودِ الأليمِ
دَعْ أســاهُ يا طيــرُ لى أنا وحـــدى ... واحِىَ أنتَ الجـذلانَ بين الغـــيـومِ

دعْــهُ لى دَعْ آمـــالَ قـلبى تـذبل   بعـد بحثى الطويل فى الكون عنـها
دع فـؤادى يَعُـدْ إلـى ظُلْمـة الأحـ   ـزانِ واخلص يـا بلبلى أنت منـهـا

خَــيبتْ هذه الـقُـرَى حُلْوَ أحــلا   مى فــلا رَسْمَ للســعـادة فــيهــا
ليس يدرى الـراعى المعـذَّبُ مـأوا   ها ولا كــان مــرّةً من بنيــهـــا

خـدعــتنى الأوهامُ لـيس لدى الرا   عى رخـــاءُ الحـــيـــاة ليس لـدَيْه
فـهو ذاك المـكدودُ تصهـرهُ الشمـ   ـس ويقسو الحَـصَى على قَـدَمَيْـه

يتـــمنّـى أن لو تبـــدّلَ بيتُ الـطـ   ـين قــصـراً على حـفــاف المدينه
ويُريدُ الحــيــاةَ لـهــواً فــلا أغـ   ـنامَ تـثــغـو ولا نُفُــوسَ حــزينه

يا لوهـم المسكين، كـم من شـقىٍّ   فى ظلال القـصــور كم مـصـدومِ
ليـس للـمـــال أن يُـذيقَ فـــؤاداً   بشـــريّا مـــعنى الرضى والـنعـيمِ

يا سـفيـنى ما عـاد فى القـرية الحلـ   ـوةِ مــرسى لـنا فـفــيمَ البــقــاءُ
ليسَ تحتَ الصفصاف إلا بيوتُ الطـّ   ـين والسُــقْم والـطَوَى والبـكاءُ

أقلعـى أقلعى بـنا قــد ســئــمـنا   صَـرَخـاتِ الجـيـاع فى كلّ شـعْبِ
قـــد رأينا الـدمـوعَ فـى كلّ عــينٍ   وشَــهِـدْنا الشــقـاءَ فـى كلِّ قلبِ

مـا الذى يا سـفـيـنُ يُغْـرى بأن نَبْـ ـقى إذن؟ مـا الذى تـرى يُبْـقـينا؟
هل وجـدنا طيفَ السعـادة هل فى هذه الأرضِ فـــرحـــةٌ تُغْـــريـنا؟

بين الفنانين

انشرى يا سفينُ أشرعةَ السيـ ـر وشُقّى عُبابَ هذى الحياةِ
ثم ارسى بنا على شاطئ الفنِّ وبين الأشعار والأغنياتِ

علّنا واجدونَ فى ذلك الشا طئ ظلَّ السعادةِ المتمنَّى
علهم قد ترشّفوا شهدَهَا السا حرَ حتى صاغوه شعراً وفنّا

طالما صوّروا لألحانهم ما قد دَعَوْهُ بنشوةِ الفنّانِ
طالما حدّثوا عن الأملِ الحلـ ـوِ وغنَّوا بالنور والألوانِ

فلنقف عندهم إذن ولنراقبْ ركبَ أيّامهم وكيفَ تمُرُّ
أتراها ليلٌ ودمعٌ وحزنٌ؟ أم تراها فجرٌ وضِحْكٌ وبِشْرُ؟

مأساة الشاعر

قد هبطنا فى شاطئ الشعر والفن   فماذا فيه من الأفراحِ؟
ها هو الشاعرُ الكئيبُ وحيداً   تحت سمع الآصال والأصباحِ

أبداً ساهمٌ يراقبُ أيّا   مَ حياة لاتنقضى بَلواها
لا يرى الواهمون غير ضُحَاها   ويعيشُ الفنّانُ تحت دُجَاها

يرقبُ الأشقياءَ فى ظُلْمة العَشْـ   ـشِ ويبكى لهم بكاءَ غَبينِ
ويصوغ الألحانَ يرثى لبلوا   هُم ويبكى على الوجودِ الحزينِ

طالما باتَ ساهدَ الطرف حيرا   نَ يُسِرُّ الظلامَ أحزانَ شاعر
لا يَرَى فى الحياة إلا وجوداً   ظلّلَتْهُ يدُ الشقاء العاصرْ

أبداً لا يَرَى سوى مسرح المأ   ساة بين الدموع والتنهيدِ
وستاراً من الدُجَى يتجلَّى   كلَّ يومٍ عن ميّتٍ ووليدِ

واكتئاباً يمشى على صور الكو   ن جميعاً ولوعةً وشقاءَ
ودموعاً تلوحُ فى كل عَيْنيـ   ـنِ ودهراً يخادعُ الأحياء

ليس يَلْقَى الحياةَ إلاّ حزينَ الـ ـقلب حيرانَ فى هموم الحياةِ
كلما أنَّ بائسٌ ذرف الشا عرُ دمع الأسَى على المأساةِ

وإذا أذبلَ الجليدُ زهو الـ لوز رانَ الأَسى العميقُ عليه
واذا ماتت البلابلُ ظمأى جال دمعُ الرثاءِ فى مُقْلَتَيهِ

فهو قلبٌ قد صيغَ من رقّة الزهـ ـر وعينٌ قد طُهِّرتْ بالدموعِ
وحياة حسّاسة ليس يدرى سرَّها غيرُ شاعرٍ مطبوعِ

هى عمر ظمآنُ تعصُرُهُ العُزْ لةُ عَصْراً، يمرُّ كالآزالِ
فى سكونٍ لا صوتَ يُسْمعُ فيه غيرُ صوتِ الصرَّارِ تحت الليالى

غير همس الحمام فى الجَبَل المو حشِ أو لحن بلبلٍ مهجورِ
وحفيف الأشجار فى قبضةِ الر يحِ وصوت الرعود فى الديجورِ

غير همْس الأشباح ملء دُجَى الشا عرِ فى ليله الطويل الجديبِ
يتلقّى الأشعارَ عنها ويحيا أبداً فى حمى الأسّى والشحوبِ

أيها الشاعرُ الذى يسهرُ الليـ ـلَ وحيداً مستَغرقاً فى الجمودِ
مُحْرِقاً روحَهُ بَخُوراً على حبٍّ (أبولو) ووحيهِ المنشودِ

ساهداً حانياً على القلم الشا عر يرثى الدجى ويبكى السنينا
راسماً للحياة صورتَها المرّ ةَ بين الجياعِ والبائسينا

أطفئ الضوءَ أيّها الشاعر المتـ ـعبُ وارحم فؤادَكَ الموجوعا
كاد يخبو ضوء السراج وتأتى ظُلُمات الدُجَى عليه جميعا

رقد العالَمُ المعذَّبُ تحت الـ ليلِ فارقد واترُكْ بقايا النشيدِ
حسبُكَ الآن ما سهرتَ مع الحا رسِ تَرثى لليلهِ المكدودِ

قد أوى الحارسُ الكئيبُ إلى الكو خِ إلى غمضة الكَرَى والطيوفِ
فكَفَى يا حزينُ عطفا على الكو ن ورفقاً بقلبك الملهوفِ

عجباً كيف تُسْهِر الشاعرَ المُلْـ ـهَمَ أحزانُ من عن الحزن ناموا
كيف ترقا مدامعُ الورد فى الحقـ ـل ويبكى على أساها الحَمَامُ

آه يا شاعرى المعذَّبَ ماذا؟ أكذا تصرف الحياةَ غبينا؟
فى سبيل الوحى السماويِّ تحيا شاحب الوجه متعباً محزونا

بعتَ بالشعر لهوَ أيّامك الظمأ ى وعُفتَ الحياةَ عيناً وقلبا
ونذرت الشبابَ والحبَّ للفن لتحيا على الجراح مُحبّا

ليس يعنيكَ أن ترافقَك الأحـ ـزانُ ما دمت مُلْهَما صَداحا
ليس يُرضيك غيرُ لحنٍ تغنّيـ ـهِ وإن صغتَهُ أسىً ونواحا

ليس تُعْطى الحياةُ للشاعر المجـ ـدَ إذا لم يَذُقْ هموم الحياةِ
ليس تسمو الأرواحُ إن لم تطهّرْ ها معانى الدموع والآهاتِ

فإذا أشحبَ الأسى وجنةَ الشا عـرِ أو بات ليلَهُ أوّاها
وإذا عضّ قلبَهُ مخلبُ الحز نِ وضاقت حياتُهُ بأساها

خاطبتْهُ الحياةُ: يا شاعرى الملـ ـهمَ يا ابن الشحوب والآلامِ
النجومُ الوضاءُ لاتبعثُ السحـ ـرَ اذا لم يُسدَلْ ستارُ الظلامِ

والذى يجمعُ الزهورَ يدوس الـ ـشوكَ يا شاعرى ويمشى عليهِ
والذى يعشقُ الطبيعةَ لا يَثْـ ـقُلُ صمتُ الدُجَى على مِسْمعيه

فاحتمل ما استطعتَ أحزان عمر هو لولا الأحزانُ ما كان شيّا
وادفنِ النورَ فى جفونك مَيْتاً وابعثِ الشعرَ من فؤادك حيّا

غنِّ هذا العذابَ صف لحياة النـ ـاسِ ماذا يُبكى فؤادَ الشاعر
صِفْ لهم كيف يصرفُ العمرَ حيرا نَ ويحيا على أساهُ العاصر

صفْ لهم ذلك الصراعَ صراعَ الـ ... ـفكر والقلبِ فى ظلام الحياةِ
كلَّما أخفتَ النعيمُ صراخَ الـ ... ـقلب ضجَّ الفكرُ الأبِّى العاتى

فهما فى حياته نبعُ أحزا ... نٍ يَردّ الحياة أفْقاً كئيبا
وهما الثائرانِ لابدَّ ممن صو ... تهما وليكنْ دماً ولهيبا

شرعة الفكر أن يغرِّدَ بالشعـ ... ـر ويشدو وان يكن محزونا
ومُناه السموُّ للعالم الأعـ ... ـلىْ وان يَلْق فى الطريق المنونا

فهو أفْقٌ حرٌّ يريد حياة الـ ... ـعقل فى معزل عن الإحساس
وسواءٌ لديه أن يشحبَ الشا ... عرُ أو أن تقسو عليه المآسى

أفليس الشحوبُ والألمُ العا ... صرُ نبعاً للشعر والألحانِ
أو لا تقنعُ الحياةُ من الشا ... عر باللحنِ فى حِمَى الحرمانِ؟

فيمَ كان الصراعُ يبعثه القلـ ... ـبُ إذنْ فيم؟ فيم لا يطمئنُّ
فيمَ يأبَى الحياةَ فى وحشة العُزْ ... لةِ والفكر فيم يمضى يئنُّ؟

هكذا تصرُخُ الخواطرُ بالشا ... عر فى ليله، فإن جاءَ فجرُ
ورأى الراعىَ الصبىَّ يسوقُ الـ ... ـغنَم الظامئاتِ لم يبقَ شِعرُ

ومضى القلبُ صارخاً أين حبّى؟ أين لهوى؟ وفيمَ أبقَى أسيرا
أبداً لا أنى أضحّى بأفرا حى، وأحيا ذاكَ الحزينَ الكسيرا

من بكائى تصوغُ شعركَ للكو نِ ومنّى المُنَى ومنّى الحنينُ
من دمى هذه الملاحمُ فارحمـ ـنى أنا العاشق الشجِى المغبونُ

انطلق بى دعنى أذقْ فرحة الحبِّ لعلّى من الشقاء أفرُّ
ما غَنَاُء الأشعارِ يا شاعرى المتـ ـعَبَ إن كانتِ الحياة تمرُّ؟

ليس يُغْنى عنكَ النشيدُ إذا متَّ حزيناً وليس يرويك لحنُ
لاتَقُلْ فى غدٍ غدٌ نَدَمٌ قا سٍ على ما مضى ويأسٌ وحزْنُ

تحت ثقْلِ الثَرَى وفى وحشة المو تِ سيخبو هذا النشيدُ ويَفْنى
فإذا لحنُكَ الذى صغتهُ يأ سا وحزناً للناعمينَ يُغَنّى

وستُنْسَى أنت الذى ملأ الدنـ ـيا جمالاً وماتَ ظمآنَ جَهْما
وسيُبْلى الترابُ ما يتبقّى منك يا مستطارُ لحماً وعظما

ثم ماذا؟ غداً يقولونَ قد كا نَ فتىً بيننا طواهُ الهزالُ؟
ما رأينا منه سوى طيفِ إنسا نٍ فقدناهُ واصطفاهُ الخيالُ

سيقولون شاعرٌ رَكبتْهُ لُوثَةٌ فانزوَى وعاشَ غريبا
أبداً يرقب الفضاء يصيد النـ ـجمَ أو يحصدُ الظلام الكئيبا

يرمق الزهر من بعيد وفي عيـ ـنَيْه أحلامُ عاشقٍ ولهانِ
جامداً قانعاً بعُذْريّ حبٍّ يكتفي بالعطورِ والألوانِ

أيها الشاعرُ السجينُ كفانا غربةٌ في حياتنا ووجوما
حسبُكَ الآنَ ما خضعتَ لصوت العقل وارحم شبابَكَ المحروما

ويمرّ النهار والشاعر المغـ ـبونُ حيرانُ بين فكّي أساهُ
بين همس الصوتين يحيا كئيباً ويناجي طيوفَهُ ومُنَاهُ

فاذا جاش قلبُهُ بمعاني الـ ـيأس ألقى أحزانَهُ في النشيدِ
لائذاً باليَرَاع يسكبُ فيه ما يُعَاني من العذابِ الشديدِ

ساكباً روحَهُ على كل بيت ناحتاً من فؤاده الألحانا
راضياً بالشُحوب والسُقْم حبّاً لأبولو مُسْتسهلاً ما كانا

كلُّ بيت من شعره يتقاضا هُ شحوباً ورعشةً وسَقَاما
فهوَ في لحنه يُذيبُ صباهُ ويضيعُ الشبابَ والأحلاما

ثم مــاذا؟ سـرعـانَ مـا يزأر الإعـ ـصــارُ، والزهرةُ الجـمــيلةُ تذْوى
وإذا الضـوءُ فـى الأعـالىِّ يخــبو وإذا النجـمــةُ الوضـيـئـةُ تهـوى

ويغــيبُ الضــيـاءُ فى لـيلِ قـبـرٍ ليس تبكى لـه ســوى الأمـطارِ
ليس يرثـيـه غـيــر ذاوى صِـبـاهُ وبقــايا الـقــيـثــارِ والأشــعــارِ

ذلك الشــاعـرُ الذى كـان يحــيا عــمَــرهُ باكــيــاً علـى كلِّ باكِ
ذلك العــاطفُ النبـيـلُ على الأحـ ـزان ذاكَ المُـلْقَى عـلى الأشــواكِ

نبــذَتْهُ الأيام فـى قــبــره المو حش تحت الريـاح والظلـمــاتِ
حــيثُ لا آهةٌ يُـصَــعِّــدُها قـلـ ـبٌ ولا دمــعــةٌ علـى المأســاةِ

هكذا فى العذاب تمضى حياة الشـ ـاعــرِ الملهمِ الرقــيقِ وتُنْسَى
هكذا يمــلأ الوجــود جــمــالاً ويذوق الآلام كـــأســـاً فكأســـا

هكذا كـلُّ شــاعـرٍ فـارحـلى بى يا ســفينى عن عــالَمِ الشــعـراءِ
ولندْعــهم فى ذلك الشَـجَـنِ العـا صــفِ بـيــن الآهـات والأدواءِ

ولنسـر فى بحـر الحـيـاة كـمـا كنـّ ـا ونُلْقى المرَسى على كل ساحلْ
ربما يـا ســفــينُ نلـقى ضـيــاءً يتــجلّى بعــد الظـلامِ القــاتلْ

عند العشاق

ربما كـان فـى حـيـاة المحـبـيـ ـنَ رجـاءٌ أو دفـقـةٌ من ضـيـاءِ
ربما كـان عـندهـم ذلكَ الإكـ ـسيـرُ بين الخـيـالِ والأهواءِ

شـاطئ الحبِّ أيّهـا اللامعُ الخـا دع هاتِ الحـديث عـن أبنـائكْ
صفْ منَاهم وبِشْـرهم وأسـاهم صفْ لنا مـا اختـفى وراء صفـائك

صفْ لنا كيف يعصرُ العاشقَ الشو قُ إلـى من يـنـامُ عـن بـلـواهُ
كـيف يلهو به الخيالُ فـيُمْـضى الـ ـليـلَ سـهـرانَ غـارقـاً فـى مناه

صفْ حـيـاةَ الذى استبـدَّ به الحبُّ فـخـال الحـيـاةَ جنّة سـحْـر
ومَـضى فـاتحـاً ذراعـيـه لـلنو رِ يصـوغُ الحـيـاةَ ديوانَ شِعْـر

يلثم الـزهْرَ فى الحـقـول ويشـدو للـيـالى الحـصـادِ لحنَ هواهُ
راقصاً كـالفراش لـلقَـمَـر الخلـ ـو خـليـاً مـن يأسِـه وأسـاهُ

راسـماً للغـد الجـميلِ من الأحـ ـلام مـا لا تطيـقُـهُ الأقـدارُ
سـادراً فـى أوهامـه غـيـرَ دارٍ أن هذى الحـيـاةَ هـولٌ ونارُ

فى يـديه كـــأسُ الرحـــيق يغنيـ ـه على مـــسْـمعِ النهـــار ويَشْربْ
وعلى ثغــره ابتـــسامـــةُ مـخـــدو عِ يُغَنى له الشـــقـــاءُ فـــيطرَبْ

ثم يخـبـو الضـيـاءُ ذات مـــساء ويُفـــــيقُ النشـــــوانُ بـالأوهامِ
فـــإذا الحـــقل ذابلٌ لا زهورٌ لا فــراشٌ لا شىءَ غـيـــر الظلام

أين تلكَ الأحلامُ؟ كيف ذوى الحبُّ؟ وأين الوجــهُ الحـبـيبُ النضـيـرُ
يا لَغَــدْرِ الأيامِ لـم تحـفظِ العـهـ ـدَ لقـلبٍ جَنَى علـيــه الشـعـورُ

وتمرّ الحـــيـــاةُ والعـــاشق المهـ ـجـورُ قلبٌ دامٍ ووجـهٌ شـاحبْ
أبداً يُـرجعُ الخـــيـــال إلـى الما ضى ويبكـى على الغــرام الذاهب

أبداً يَرْمـقُ الحـيــاة كــئـيـبـاً من وراء الـدمـــوع والأحـــزان
ويراهـا الذئبَ الـذى ينـهشُ القـلـ ـبَ ويقـسو على الأسى الإنسـانى

أبداً يـســـأل الظلام حـــزيناً شـــاردَ الفـكر أين ألحـــانُ قلبى
أيـن زَهـرى وأيـن بـلـبـلـىَ المنـ ـشودُ؟ ماذا أضـاع أحلامَ حبّى؟

أين تـلكَ التى سكبتُ علـيـهـــا من حـيــاتى ومن فـؤادى ولحنى
أين تلـكَ العـيـونُ تُلـهمُ أحـلا مى وتمحـو غـشـاوة الحـزن عنّى؟

يا لَقلبِ المسكينِ تلذعه الذكـ ـرى وتُخْفِي غرامَه وأساهُ
هكذا قد قضى عليه كيوبيـ ـدُ فماذا تُفيدُهُ شكواه؟

فليجدْ فى الخيال والشعرِ والذكـ ـرَى دواءً لحبّه المصدومِ
وليقضِ الحياةَ بين حقول الـ ـقمح والقطن تحت ضوء النجومِ

وليحبّ الغيومَ والفجرَ والنهـ ـرَ ويُمْضى الأيّامَ بين التلالِ
يتغنّى فيعشقُ الزهرُ موسيـ ـقاهُ عند الهُوَى وفوق الجبالِ

فحياةُ الخيال أجملُ من وا قعِ حبّ ملفّعٍ بالرمادِ
وهنا يا مصدومُ حرّيةُ الرو ح فماذا يُغْريكَ بالأصفادِ

سل كيوبيد عن شقاوة صرعا هُ وماذا يَلْقَوْن من تعذيبِ
كيف يَحْيَوْن فى جحيمٍ من الشكِّ وليل من الضّنَى والشُحُوب

إن قضتْ بالحرمانِ أيّامُهم عا شوا حَزَانَى معذَّبين حَيَارى
يشتكون الأقدار والزمن العا تى ويحيون أشقياء أسَارى

وإذا ما تحقق الحُلُمُ العَذْ بُ أشاحوا عن سحره كارهينا
ويعودُ الضياءُ ليلاً دجيّاً وتعود الأزهارُ شوكاً وطينا

هكذا يخـمـد الغـرامُ وتخبـو　　　شـعلـةُ الحبّ والمنى والحنينِ
فـالسعـيـدُ السعيـدُ من دَفَنَ الحبَّ　　　وعـاشَ الحيـاةَ غـيـرَ سجـينِ

يا دموع العشّاق قد شبع العا　　　لم بؤسـاً فـلا تَزيدى أسـاهُ
قـد مـلأنا الكون الجـميل دموعاً　　　وشبعنا من صـمـتـهِ ودجـاهُ

فـانضبى أنتِ حسبُنا شَجَنُ العيـ　　　ـش وبلوى الحـيـاةِ والأيامِ
حسبُ هذى الأرضِ الكئيبةِ دمع الـ　　　ـبـائسين الجـيـاعِ والأيتـامِ

انضبى واطردى خيالَ كيوبيـ　　　ـدَ وحسبُ الغرامِ هذى الضحايا
لن ينالَ العشّاقُ يومـاً سوى أد　　　مـعِ حبٍّ حـفَّتْ سناهُ المنايا

قيس وليلى

كيف مات المجنون؟ هل سَعدتْ ليـ ـلى؟ سلوا هذه الصحارى الحزينه
اسألوها ما حدَّثَ الريحَ قيسُ الـ أمسِ ليلاً وكيف عاش سنينَهْ

ذلك الشاعرُ الشريدُ الخيالىُّ صديقُ الظباءِ فى الصحراءِ
ونجىُّ الرمالِ والوحشِ والبيـ ـدِ وطيف الشحوب والأدواءِ

سحقَ الحبُّ قلبَهُ المرهفَ الغضَّ فعاش الحياةَ دونَ مقرٍّ
فوق تلك الرمالِ يُنْشِدُ أشعا رَ هواهُ لكل هوجاءَ تسرى

راسماً فوق صفحةِ الرملِ ما كا نَ من الشوقِ والأسى والحنينِ
لاثماً كلَّ موضعٍ خطرت ليـ ـلَى عليه فى ماضياتِ السنينِ

يومَ كانت ترعى الشياهَ ويرعى قيسُ أغنامَهُ فتشدو ويشدو
وتدوّى باللحن تلك الرمالُ الـ ـسُمْرُ حيث الظباءُ تلهو وتعدو

يومَ كانتْ يا لهفةَ الشاعرِ العا شقِ ماذا قد أبقت الأقدارُ؟
نضبتْ فرحةُ الصِبا وذَوَى الوا دى وجفَّت فى رَحْبِه الأزهارُ

وتبــقّى قــبـــر على قَــدَمِ التلِّ ذَوَتْ تحــتَــهُ مــعـــالم ليلى
وحَنَتْ فــوقَــهُ شـجـيــرةُ ورد تخـذَتها الأشلاءُ في القبرِ ظلاًّ

وتبــقّى قــيسُ المعــذَّبُ يبكى مــا تبقَّى من عُـمْـره المصــدومِ
راقـداً عند حـافــة القبــر لا يفــ ـتأ يشكو إلى الصَبَا والـغيومِ

يتــمنى ليلَ المنـايا ويـدعـــو هُ إليــه بأعـذبِ الأســمـــاءِ
ويغنّى للمــوت أجــملَ ألحــا نِ هواهُ تحت الدُجى والضــيـــاءِ

ثم جـاء الصبـاحُ يومـاً وقــيسٌ في يد الموتِ ذاهلٌ مـصـــروعُ
ليس تَبكيه غيــرُ تنهيـدةِ الريـ ـحِ وصوتِ البومِ الكئيبِ دموعُ

يا قلوبَ العشَّاق حسبُك حبّاً واقبسى من مأساة قيسٍ مثالا
هى هذى الحـيــاةُ لاتمنحُ الأحـيـ ـيــاءَ إلا الـعــذابَ والأهوالا

خدعتنْا بالحبّ والشوق والذكـ ـرى وما خلفـهـا سـوى الأوهامِ
عــالمٌ ســافلٌ يضجُّ مـن الإثـ ـم ويحـيــا بين الهـُـوَى والظلامِ

فى أحضان الطبيعة

أيها الشاعرون يا عاشقى النبـ ـلِ وروحِ الخيال والأنغامِ
ابعدوا ابعدوا عن الحبِّ وانجوا بأغانيكمُ من الآثام

اهربوا لا تدنّسوا عالمَ الفنِّ بهذى العواطف الآدميّه
احفظوا للفنون معبدها السا مى وغنّوا أنغامَها القُدُسيّه

قد نعمتم من الحياة بأحلى ما عليها وفزتمُ بجَنَاها
يعمَهُ الآخَرون فى ليلها الدا جى وأنتم تحيَوْنَ تحت سناها

اقنعوا باكتئابكم واعشقوا الفنَّ وعيشوا فى عُزْلة الأنبياءِ
وغداً تهتفُ العصورُ بذكرا كم وتحيَوْنَ فى رِحابِ السماءِ

اقنعوا من حياتكم بهوى الفنِّ وسحر الطبيعة المعبودِ
واحلموا بالطيور فى ظُلَلِ الأغـ ـصان بين التحليقِ والتغريدِ

اعشقوا الثلجَ فى سفوح جبال الـ أرضِ والوردَ فى سفوحِ التلالِ
وأصيخوا لصوتِ قمريّةِ الحقـ ـلِ تغنى فى داجيات الليالى

اجلسوا فى ظلال صَفْصافة الوا   دى وأَصْغُوا إلى خرير الماءِ
واستمدّوا من نغمة المَطَر السا   قطِ أحلى الإلهام والإيحاءِ

وتغنّوا مع الرعاة إذا مرّ   وا على الكوخ بالقطيع الجميلِ
وأحبّوا النخيلَ والقمحَ والزَهْـ   ـرَ وهيموا فى فاتناتِ الحقولِ

شجرات الصَّفْصاف أجملُ ظلاً   من ظِلال القصورِ والشُرُفاتِ
وغناءُ الرعاةِ أطهَرُ لحناً   من ضَجيجِ الأبواقِ والعَجَلاتِ

وعبيرُ النارنج أحلى وأندى   من غُبارِ المدينة المتراكِمْ
وصفاء الحقول أوقَعُ فى النفـ   ـسِ من القَتْل والأَذَى والمآثِمْ

وغرامُ الفراشِ بالزهر أسمى   من صبابات عاشق بَشَريٍّ
ونسيمُ القُرَى المغازلُ أوفى   لعهودِ الهَوَى مِن الآدميِّ

وحياةُ الراعى الخياليِّ أهنا   من حياة الغنىّ بين القُصُورِ
فى سفوح التلالِ حيثُ القطيعُ الـ   ـحلوُ يرعَى على ضفاف الغديرِ

حيثُ تثغو الأغنامُ فى عطفة المَرْ   ج وتلهو فى شاسعاتِ المجالى
وينامُ الراعى المغرِّدُ تحت السّـ   ـروِ مستسلماً لأيدى الخيالِ

فى يـديه النايُ الـطَروبُ ينـاجـيـ ـه ويـشـدو عـلـى خُطَى الأغـنامِ
مـسـتـمداً من همسِ سـاقـية السـفـ ـح لحـونَ الشـبـاب والأحـلامِ

آه لو عـشتُ فى الجـبـال البـعـيدا ت أسـوقُ الأغنـامَ كل صـبـاحِ
وأغّنى الصـفـصافَ والسّروَ أنغـا مىَ وأُصْـغـى إلى صـفـيـرِ الرياحِ

أعـشقُ الـكَرْمَ والعـرائشَ والـنبـ ـع وأحـيـا عُـمْـرى حيـاةَ إلهِ
كلَّ يومٍ أمـضـى إلى ضـفّـة الوا دى وأرنو إلـى صـفـاء الميـاهِ

أصـدقـائى الثلـوجُ والزَهْرُ والأغـ ـنامُ، والـعـود مـؤنسـى ونجـيّى
ومـعى فى الجـبـال ديوانُ شعـرٍ عـبـقـرىٌّ لشـاعـرٍ عـبـقـرىٍّ

أتغنَّى حـيناً فـتُـصْـغـى إلى لحـ ـنى مـيـاهُ الوادى ومـرتـفـعـاتُهْ
وأناجى الـكتـابَ حـيـناً وقـربى هدهدٌ شـاعـرٌ صَـفَتْ نـغـمـاتُهْ

وخـريرٌ من جدولٍ مُـعْشبِ الضـفّـ ـة يجـرى إلـى حـفـاف الوادى
وثغـاءٌ عـذْبٌ من الـغنم النشـ ـوَى وهمسٌ من الـنسـيم الشادى

آه لو كـان لـى هنالك كـوخٌ شـاعـرىٌّ بيـن المروج الحـزينه
فى سكون القُـرى ووحـشتـهـا أقـ ـضى حيـاتى لا فى ضجـيج المدينه

ليتني من بناتِ تلك الجبالِ الـ ـغُنِّ حيثُ الجمالُ في كل رُكْنِ
ليتني ليتني وهل تبعث الأحـ ـلامُ إلا الدموعَ في كلِّ عينِ

قدّرتْ لي السنينُ أني هنا أقـ ـضي حياتي قلباً رقيقاً شجيّا
في ضبابِ الخيالِ أمشي وحولي عالم للغنِي يموت ويحيا

قد أحبُّوا أيامَهمْ وتمرّدْ تُ عليها فعشتُ في أحلامي
إن أكنْ قد وُلدتُ في هذه الضجّـ ـة فلألتجئْ إلى أوهامي

ولأعشْ في الخيال حيث تهيمُ الـ ـروحُ بين المروجِ والقطعانِ
هكذا تَهْدأُ الأماني إلى حيـ ـنٍ وتخبو مرارةُ الأحزانِ

هكذا أدفِنُ الطموحَ كما يَدْ فِنُهُ كلُّ طامحٍ بَشَرِيِّ
وعيون الأقدارِ يضحكن مني هازئاتٍ بضعفيَ الآدميِّ

يا عيونَ الأقدار لا ترمقي دمـ ـعي ولا تهزأي بقلبي الحزينِ
إن يكن في دمي طموحٌ نبيٌّ فأسى اليائسينَ ملء عيوني

كان هذا الطموح لعنةَ أيّا مي فيا ليتني عصيتُ هواهُ
كلما حقّق الزمانُ لقلبي حُلُماً صوّرتْ حياتي سواهُ

لست أدري مـاذا سيجنيه قلبي ... من شُـرُودي فـي كل أُفـقٍ ونجمِ
أبداً أرتقي النجـومَ وأرنو ... لمجاهيلِ عالمٍ مـدلهمٍّ

لست أدري شيئاً أنا اليأس يا أر ... ضُ وأنتِ ابتسامتي ودموعي
أنتِ وحيي ومنكِ تنبعُ أحلا ... مي، وإن كنتُ في حماكِ الوضيعِ

ارفعيني إلى السماء إذا شئـ ... ـتِ بوحيٍ من سحرِكِ الشاعريِّ
وأعيدي مني إذا شئتِ للطيـ ... ـنِ فتاةً تبكي على كل حيٍّ

أضحكيني وأطلقيني ورقاء ... تغني بحسنكِ الفتّانِ
أو دعيني أبكي على أشقياءِ الـ ... أرضِ بين الحنينِ والحرمانِ

ضاع يا أرضُ فيكِ معنى الأماني ... وتبقَّى الشقاءُ والأكدارُ
وخبَتْ في كآبةِ الموتِ أصوا ... تُ الأغاني واستسلم القيثار

فعلام العزاءُ والأمل المو ... هومُ في حومة الدجى المدلهمِّ
ولم الأشقياءُ يُخفون بَلوا ... هُمْ ويَحْيَوْن في خداعٍ ووهمِ

قد وصفتُ الشقاء في شعري البا ... كي وصوَّرتُ أنفسَ الأشقياءِ
وشدوتُ الحياةَ لحناً كئيبا ... ليس في ليلِهِ شعاعُ ضياءِ

فـأثارت كـآبتي عَـجَبَ النا　　　　سِ وحـاروا في سـرِّها المجـهولِ
مـا دروا أنني أنوح على مـا　　　　سـاتهم في ظلامـهـا المسـدولِ

أنا أبكي لكل قلب حـزيـنٍ　　　　بعـثـرتْ أُغنيـاتـه الأقـدارُ
وأروِّي بأدمـعي كلَّ غـصنٍ　　　　ظـامئٍ جفَّ زهـرُهُ المـعطارُ

القصر والكوخ

كلَّ فجرٍ أرى الرعاةَ يمرّو نَ فأبكى على حياة الرُّعاةِ
فى ثلوجِ الجبالِ أو لهب الشمـ ـسِ يريقون مبهجات الحياةِ

ويمرّ القطيعُ بى فأرى الأغـ ـنامَ بين الذبّاحِ والسكّينِ
يا حياةَ الإنسانِ لا فرحةٌ فيـ ـكِ إذا لم تُصحبْ بدمع غبينِ

فكنوز الغنىِّ يجمعها الفلاَّ حُ فى عُمُره الشقىّ الكسيرِ
ذلكَ الكادحُ المعذّبُ فى القَرْ ية بين المحراثِ والناعورِ

كلَّ صيف يسقى البساتين تحت الشـ ـمسِ ، والقصرُ هاجعٌ وسنّانُ
فهو يُلقى البذورَ والمترفُ الها نئُ يجنى وتشهدُ الأحزانُ

يا ليالى الحصادِ ماذا وراء الـ ـحقلِ والحاصدينَ من مأساةِ
شهد الكوخُ أنّه يحمل الحز نَ لتحظى القصورُ بالخيراتِ

كيف يجنى الأزهارَ والقمحَ والأثـ　　ـمـارَ من لم يجـرحْ يديّه القَـدُومُ؟
ويمـوتُ الفـلاّحُ جـوعـاً ليـفـتـرَّ　　لعـينَي ربٍّ القـصـورِ النعـيمُ؟

كـيـف هذا يا ربِّ؟ رفـقـاً بنا رفـ　　ـقـاً قـد غَـصَّتِ الكؤوسُ دموعـا
وطغت في الـفـضـاء آهاتُنـا الحيـ　　ـرَى تغـنى رجـاءنا المصـروعـا

كآبة الفصول الأربعة

نحن نحيا في عالمٍ كلُّه دمـ ـعٌ وعُمْرٍ يفيض يأساً وحزنا
تتشفّى عناصر الزمن القا سي بآهاتنا وتسخَرُ منّا

في غموضِ الحياةِ نسربُ كالأشـ ـباحِ بين البكاءِ والآهاتِ
كلَّ يومٍ طفلٌ جديدٌ وميْتٌ ودموعٌ تبكي على المآساةِ

ثم ماذا؟ في أيّ عالمنا المُحْـ ـزن نلقَى العزاءَ عمّا نقاسي؟
عند وجهِ الطبيعة الجهم أم عنـ ـدَ فؤادِ الزمانِ وهو القاسي

قد عبرنا نَهْرَ الحياة حَيَارَى في ظلامِ الفصولِ والسَنَواتِ
وثبتنا على أسانا خريفاً وربيعاً فما جمالُ الحياةِ؟

طالما مرّ بي الخريفُ فأصغيـ ـتُ لصوتِ القُمْريّةِ المحزونِ
وأنا في سكون غرفتي الدجـ ـياءِ أرنو إلى وجوم الغصون

طالما في الخريف سرت إلى الحقـ ـل وأمعنتُ في وجومي وحزني
كيف لا والكآبةُ المرَّةُ الخـر ساءُ قد رفرفتْ على كلِّ غصنِ

والحـمـامُ الجمـيلُ قـد هَجَـر الأعـ ـشاشَ سأمانَ مـن وجومِ السهوب
وطيـــورُ الكنـار آثرت الهـــجـ ـرةَ والعيشَ فـى حـقـول الجنوبِ

وغـصونُ الأشـجـار مـصفـرّةُ الأو راقِ والزهـرُ ذابلٌ مـكفـــهـــرُّ
ورياحُ الخـــريف تعـــبث بالأو راقِ والسُـحْبُ فى الفـضـاءِ تمرُّ

طالما سـرتُ فى المســاء وفى سمـ ـعىَ صـوتُ الأوراقِ تحت خُطايا
كلّـمـا ســرت خطـوة أنّت الأو راقُ فـاسـتـجـمـعتْ بعيـد أسـايا

أرمقُ الحـقل والجـداولُ قـد جـفـ ـتْ ولون الفـضـاء أسـودُ غـائم
وأحسُّ الـيـومَ الكئـيبَ يُغـنّى منْ بعــيــدٍ بين النخـيـلِ الواجمْ

وأرى النهـر من بـعـيـد كـسـرٍّ غلّفـتـه أيدى الخـريف الكئـيبِ
لا رُعـــاةٌ على شـــواطئـــه يُزْ جـونَ أغـنامـهمُ قُـبيلَ الـغـروبِ

لا اخضرارٌ يغـرى الحزَانى بأن يَسْـ ـعَـوْا إليـه ولا صـفـاءٌ جـمـيلُ
لـيس إلا رطـوبـةُ الأرض والوحـ ـشـةُ والصـمتُ والـرُبَى والنخـيلُ

فـإذا رعـــشــةٌ تضمُّ فـؤادى وإذا الـروحُ ضـــائق بـأســـاهُ
مـا أمـرَّ الخـريفَ يا ربِّ مـا أو حشَ إصـبـاحَـهُ وأقسى مَـسـاهُ

ثم يأتى الشتــاء بالثلج والأمـ ـطارِ والـريح فى سكون الـليـالى
وتمرّ الأيـام مــوحــشــةَ الخطـ ـو بطاءَ الإصبــاحِ والآصـالِ

وتموتُ الأزهارُ فى قــبـضـةِ الـثلـ ـجِ ويعـرو الأشـجارَ لونُ الزوالِ
وتغــيب الأطيــارُ فى الموقــد المهـ ـجور أو فى كـهفٍ وراء الجبـالِ

ويـجىءُ المســـاءُ بـالمطـر المنـ ـهلِّ يبـكى على شَـجا الإنسـانِ
وتظَلُّ الرياحُ تـعــصـفُ بالنـخـ ـلِ وترثـى لكـل قـلبٍ عــانِ

آه مـا أكـأبَ الـشـتـاءَ ليـاليـ ـه وأيـاَمـهُ ومـــاأقــســاهُ
حينَ أخـلو لنارِ موقـدىَ الخامـ ـدِ والـقلبُ مُـغْـرَقٌ فى أسـاه

لستُ أصـغى إلا إلى ضجـة الإعـ ـصارِ بين النخـيل والصـفـصـافِ
واصطفاقِ الأمواجِ فى شاطئ النهـ ـرِ ووقعِ الأمطارِ فـوق الضـفـافِ

كل شىء فى الكون حـولى كئـيب فى ليـالى الشـتـاء ذات الرعــودِ
كل شىء حولى سوى ساعتى الصمّـ ـاء فى صمتِ غــرفـتى المعـهـودِ

ايه يا ســاعـتـى الكئـيـبـةَ يا من صـحـبـتنى فى فـرحـتى وشـقـائى
مـا الذى تبـعـثـين فى نفـسى الحـيـ ـرَى من الحـزن فى ليـالى الشتـاءِ

أبداً تخفقين في معصمي البا ... رد والليلُ مُظلمٌ ممدودُ
لحظاتٌ تمرُّ في ثِقَلِ السا ... عِ وليلٌ معذَّبٌ منكودُ

كم سهرت المساءَ أصغي إلى دقـ ... ـاتك الحائراتِ في مسمعيّا
أنت يا من أحصيتِ ساعاتِ أيّا ... مي وكنتِ الرسولَ منها إليّا

رحمةً في الشتاء بي لا تعدّي ... ما تبقّى يا ساعتي من حياتي
واتركيني أُصْغي إلى نَغَم الأمـ ... ـطارِ فوقَ الحقولِ والرَّبواتِ

اتركيني فنغمةُ المَطَرِ الهـا ... مرِ أحلى من صوتكِ الجبّارِ
يا رسولَ القضاءِ والزَمَنِ المُفْـ ... ـني وصوتَ الأحداثِ والأقدارِ

اتركيني وحدي وإن كان ليلي ... مكفهراً تحت البروقِ طويلا
اتركيني أُصْغي إلى الرعدِ والأمـ ... ـطارِ يا ساعتي وكُفّي العويلا

وغداً يُقْبلُ الربيعُ فيحلو ... عقرباكِ المحبّبان لعيني
وتعود الدقّاتُ منك نشيداً ... أتغنّى به ويصدَحُ قّني

الربيعُ الجميلُ فصلُ الطيور الـ ... ـبيضِ والزَهْرِ والسَّنا والعطورِ
عندما تكتسي العرائشُ بالكر ... مِ وتشدو طيورُها في البكورِ

عندمـــا يخـــرجُ الرعـــاةُ إلى الوا دي بأغنامـــهم وتزهـو الضـفــافُ
عندمـا يُـزْهر البنفـــسجُ والخـبّـ ـازُ والبـرتقــالُ والصــفـصـافُ

وتذوبُ الثلوجُ فى القـــمم العُـلْـ ـيا فـتجـرى السـيولُ فى كل وادِ
ويعـــودُ البطُّ الجـمـيلُ إلى الشــا طئ بـين الأعـــشـــابِ والأورادِ

ويعــود الفّــلاحُ يخــرُجُ للحــقـ ـلِ طروبَ الـفـؤادِ كلَّ صـبــاحِ
تحت شمسِ الربيعِ يسقى جذورَ الـ ـتـين والبـرتـقـالِ والتــفّـاحِ

وتعـــود الطيــورُ لـلوطن المهـ ـجـور جَـذْلَى مـفـتـونةً بـالربيعِ
فى ثنايـا الأغـصـانِ تتـخـذُ الأعـ شـاشَ تحتَ الـنور النقىِّ البـديعِ

والقــمــارىُّ تسـتــحـمُّ وتلهـو بين زهر الخبّــاز فوق الضـفـافِ
وتغّـنى للـنهـــر أعــــذبَ ألحـــا نِ الأمانـى فى مِسْمـعِ الصفـصافِ

وزهورُ السـفـوحِ تضـحـكُ للنحـ ـلِ وتُحنى رؤوسـهــا للنسـيمِ
وقـطيعُ الأغنـامِ يمَــــرحُ والـرا عى يُقَـضّى النهـارَ تحت الكروم

وصبـــايا القُــرَى يرحنَ ويغــدو نَ نَشَـاوى على ضـفـافِ السواقى
منشــداتٍ أحـلامَـهنّ علـى سـمـ ـع الـيـنـابيـعِ والورودِ الـرقــاقِ

وسـمـاء الحـيـاة تزخـر بـالوحـ ـى ويصـحـو الشـعـورُ والأحـلامُ
أى أدونيس آه لـو عـشتَ فى الأر ضِ فـعـاشَ السَّنا ومـات الظلامُ

آه لو لم يـكن مـقـامُـكَ فى عـا لمنا المكفـهـرِّ حُـلْمـاً قـصـيـرا
آه لـو دمـتَ يـا أدونـيـسُ لـلأر ضِ وأبقـيتَ عطرَكَ المسـحـورا

يا ضيـاع الأحلام فى مِـسْمع المو تِ ومـاذا تُفـيـدنا الأحـلامُ
ليس يـبـقـى الربيعُ إلا قليـلاً ثم يخـبـو الجـمـالُ والأوهامُ

مثل زهْر الصحراء سُرْعـان ما تقـ ـتلُهُ الشـمسُ والـرياحُ الهـوجُ
وتعـودُ الواحـاتُ قَـفْـراً كـمـا كـا نت ويَذْوى العشبُ النضيـرُ البهيج

هكـذا يرحل الـربيعُ سـريعـاً وتعـود الحـيـاةُ لـلأحـزانِ
وتمـوتُ الآمـالُ فى كـل قلـبٍ وتعـيـشُ النفـوسُ للـحـرمـانِ

فكأنّ الحـيـاةَ لـم تبـتـسم إلاّ لـتُلـقـى سـوادَهـا فى رؤانـا
وكـأنّ الزهـورَ لم تنـشـرِ الأشـ ـذاءَ إلا لـكى تُثـيـرَ أسـانا

وكـأنّ النضـارةَ الحـلوة الجَـذْ لى حُـداءٌ بنا لصـمت الـقـبـورِ
وكـأنّ الطـيـورَ ترسل لحـن الـ ـمـوتِ فى سـمع كلِّ حىٍّ غـريرِ

يا شبابَ الحياة ما أنتَ بالخا ... لـد إلا خلودَ زهرِ الربيعِ
ليس تُبْقى على نَضَارتك الأقـ ... ـدارُ فى حومةِ الأسَى والدموعِ

أسفاً يا ربيعُ يا وردُ يا عطـ ... ـرُ أهذا ختامُ كلِّ جمالِ
أكذا يخفتُ الضياءُ ويَبْقى الصـ ... ـمتُ والحزنُ فى سكون الليالى

قصّةُ الحبِّ والجمال أهذا ... ما إليه تكونُ بعد صِباها؟
تتصدَّى لها يدُ الزَمَن الما ... حى فتُبْلَى ضياءَها وصداها

هكذا يا ربيعُ يَخْتتم النسْـ ... ـيانُ والصمتُ كلَّ شىء جميلِ
ويعيشُ الإنسانُ تعصرُهُ الذكـ ... ـرى ويبكى على أساهُ الطويلِ

فإذا عضّتِ الكآبةُ قلبى ... فى أضاحى الربيعِ واشتدَّ حزنى
فعلى مصرَعِ الفراشاتِ أبكى ... وذبولِ الوادى الشجيرِ الأغنِّ

يا معانى الزوَالِ والعَدَم الرا ... ئع رحماكِ وارفقى بصبايا
لا تُطّلى علىَّ من كلّ شىءٍ ... فى وجودى فقد سئمتُ أسايا

اتركينى أرَ الربيع طيوراً ... ليس يَنْوى لها الأذَى مُغْتالُ
ولتكن زهرةُ البنفسج فى عيـ ... ـنى خلوداً لا يَعْتريهِ زوالُ

ودعينى أعشْ مع الذكريات الـ ... ـبيضِ فى أمسىَ الجميلِ الراحلْ
علَّ هذا يجلو أسَى الصيفِ عن قلـ ... ـبى ويُحْيى مَوَاتَ حُلمى الذابلْ

فلقد جفّت الرياضُ الجميلا ... تُ فلا زهرةٌ ولا أشذاءُ
وانطوتْ فرحةُ الربيع ومات الـ ... ـعُشْبُ فى أرضها وجفَّ الماءُ

لم تَعُدْ فى العشاشِ قمريّة تشـ ... ـدو وتسقى أفراخها فى النهارِ
كيف تحيا الطيورُ فى لَهَب الشمـ ... ـسِ وتلهو تحتَ اللظى والنارِ

لم يعد للنسيم قلبٌ يحبُّ النـ ... ـهرَ والمرجَ فى ظلام الأماسى
لم يعد للأزهار لونٌ جميلٌ ... يتجلّى لمرهفى الإحساسِ

كلُّ شىءٍ فى الصيف ينطق بالقَسْـ ... ـوة والشمسُ شعلةٌ ولهيبُ
تتشكّى عريشةُ الكَرْم لكن ... ليس يُجْدى توسُّلٌ ونحيبُ

آه ما أكأبَ الظهيرة فى الصيـ ... ـف إذا لاذَ جوُّها بالسكونِ
وتلاشى فى الجوِّ كلُّ هُتافٍ ... غيرَ صوتِ الطاحونةِ المحزونِ

وبكاءُ الحمامةِ الخافتِ النا ... ئى وصوتُ الغرابِ بين الكرومِ
وأزيزٌ من نَحْلةٍ تملأُ القلـ ... ـبَ مَلالاً بصوتها المسؤومِ

ثم ماذا؟ ماذا ترى العينُ فى الصيـ ـف إذا أقبل المساءُ الداجى؟
هل سوى مَنْظرِ النخيلِ البعيدا ت وحزنِ الاشجار خلفَ السياجِ

هل سوى منظر الرعاة يعودو نَ بأغنامهم حيارَى بطاءَ
بعدَ يومٍ أمضَوهُ تحت لَظَى الشمـ س ملالاً وشقوةً وعناءَ

هل سوى الصائدين فى النَهَر الضَحْـ ـلِ يعودون فى المساءِ الكئيبِ
لم يصيدوا وصادَ أرواحَهم حرُّ نهارٍ مؤذٍ وعيشٍ جديبِ

كلَّ يوم يمضى النهارُ ولا صيـ ـدَ يعزِّى صيّادَهُ الطوَّافا
يا لَقَلْبِ المسكينِ قد سئمَ النهـ ـرَ وعافَ المياهَ والمجذافا

فهو عند الغروبِ يرجعُ بالزَوْ رقِ سأمانَ واجمَ الألحانَ
إن تغنَّى فبالشكاةِ يُزَجّيـ ـها إلى خافق الحياةِ الجانى

كم رأيتُ الصيَّادَ فى الشارع المُقْـ ـفرِ يمشى معذَّباً مَصْدوما
عكستْ مقلتاهُ أحزانَ قلبٍ سئم العيشَ والوجودَ الأليما

لستَ أنتَ المحزونَ وحدَكَ يا صيّـ ـادُ فى حومة الشقاء المخيف
هو سجنُ الحياةِ قد كَبلت أقـ ـيادُهُ السودُ كلّ قلبٍ رهيفِ

ذلك شأنُ الإنسانِ يا أيّها الصيّـ ـادُ يا شاكياً ظلامَ الرزايا
في صراعٍ مع العناصر لا يَهْـ ـدأُ حتى يأوي لوادي المنايا

في سبيل الحياة يبذلُ أفرا حَ صِبَاهُ ويستطيب أساهُ
فهو يجري وراءَ حُلْم كذوبٍ رسمتْهُ أوهامُهُ ورؤاهُ

وعجيبٌ أنّا نذوقُ سوادَ الـ ـعيش واليأسِ والملالِ لنحيا
أيُّ عُمْرٍ هذا؟ وأيّةُ مأسا ةٍ بَلَوْنا سوادَها الأبديّا؟

أبداً نحنُ في كفاحٍ مع الأقـ ـدار والحادثاتُ تُبْلي وتُفْني
يتحدّى أحلامَنا الواقعُ المرّ ويقسو زمانُنا المتجنّي

ونخافُ الغدَ الدجيَّ ولا نعـ ـلمُ ماذا يكونُ فيه المصير
يا ظلامَ المجهولِ ما أرهبَ التفـ ـكيرَ لا كانَ سرُّكَ المَسْتورُ

آه لو كان في الحياة مفرٌّ من شقاءِ الأوهامِ والأفكار
في شعابِ الهُدوء يا ليتنا نُلْـ ـقى بأعباءِ خوفِنا الجبَّار

أسطورة نهر النسيان

مـخلبُ الخوفِ والتشـاؤم قد جَـرَّ حَ أيَّـامنـا وأدْمَى صـــبـــانـا
ليت نَهْـرَ النسيـانِ لم يـكُ وهمـاً صــــورَتْهُ أحــــلامُنـا لأسـانا

لَيتـــهُ كـانَ ليتَ أخـبـارَهُ حقٌّ لنـنسَى مـــا كـــان أو مـا يـكونُ
ونعــيشُ الأحـرارَ مـن قـيـدِ بلوا نا ويـعــفــو عنا الـغـدُ المجـنونُ

يا ضفـافَ النسيـان قد جـاءك الشا عــرُ فلتــرحـمى جـراحَ أسـاه
انضَــحـيــهِ بمائك الأسـودِ البـا ردِ ولتُـــشْــفــقى على بـلواهُ

فـهـو ذاكَ القلبُ الذى طوّقـتـهُ حـــادثـاتُ السنين بـالأشـــواك
منحـتْــهُ الحسَّ الرهيفَ وقـالتْ: لتـكن فـى الحـــيـــاةِ أوّلَ باكِ

يا ضفافَ النسـيـانِ يا ليتَ هذا الـ مـوجَ يَطْغَى على الوجـودِ الحـزينِ
يغــسلُ الإثـمَ والدمـوعَ ويأســو كلَّ جـــرحٍ فى قلبـــه المطعـــونِ

أَلمُ العَيش يا ضِفافُ قَوىٌّ   وشَقاءُ المماتِ أقوَى وأقسَى
فى ظلام الحياةِ نضطربُ الآ   نَ ونفنى عمَّا قليلٍ ونُنْسَى

كلُّ عُمْرٍ قصيدةٌ كتبتْها   فى كتابِ الحياة كفُّ الزمانِ
وغداً يمحَّى الكتابُ جميعاً   وتذوبُ الحروفُ فى الأكفانِ

أنشودة الأموات

لحظةُ الموتِ لحظةٌ ليس من رَهْـ   ـبتها في وجودنا المرِّ حامي
وسيأتي اليومُ الذي نحنُ فيه   ذكرياتٌ في خاطر الأيّام

كلُّ رسمٍ قد غيّرتْهُ الليالي   كلُّ قلبٍ قد عادَ صخراً أصمّا
دفنتْ عُمرَنا السنينُ كأنْ لم   نملأِ الأرضَ بالأناشيدِ يوما

ليسَ إلا صوتُ العواصف فوق الـ   ـمدفنِ الصامتِ الرهيبِ الستورِ
وحفيفُ النخيلِ في رعشةِ الريـ   ـحِ ونوحُ الأمواج بين الصخورِ

قد سمعنا صوتَ الرياحِ المدوِّي   حينَ كان الوجودُ مِلْكَ يدينا
وعَشِقنا صوتَ النخيلِ وهِمنا   بخريرِ الأمواجِ قلباً وعَيْنا

وعبدنا أشعّةَ القمرِ الضا   حكِ في الصيف وابتسمنا إليهِ
وشدونا الأنغامَ تحتَ سناهُ   ورسمنا الأحلامَ بين يَدَيْهِ

وضحكنا مع الزمانِ وسرنا   في ظلامِ الحياةِ مُبْتسمينا
تارةً ساخرين من كل ما نلْـ   ـقَى وأخرى تحتَ الدُجَى باكينا

وبنينا قصورنا تحت ضوء الشـ ـمسِ يوماً إلى جوارِ القبورِ
وزرعنا زهورَنا وتخذنا من دماءِ الموتى غذاءَ الزهورِ

وضحكنا إذ الطبيعةُ تبكى بالدُّجى والرياحِ والأمطارِ
وسَخِرنا والدهرُ غضبانُ جَهْمٌ ورَقَصْنا على حفافِ النارِ

فإذا غَنَّت العصافيرُ وافترَّ تْ ثغورُ الأزهارِ فوقَ ثرانا
وتمشَّى الأحياءُ فوقَ بقايا نا وداسُوا عظامَنَا ودمانا

فهو ثأرُ الطبيعة البارد المرِّ وسخريّةُ الزمانِ العاتى
وحقودُ الحياةِ لابدَّ للميِّـ ـتِ منها فى عالمِ الأمواتِ

يا جموعَ الأحياء فى الأرضِ هيها تَ يعودُ الماضى الجميلُ إليكم
فاغَنموا لَيلكُم وغنُّوا فمن يَدْ رى؟ لعلَّ الصباحَ يقضى عليكم

علّها الليلةُ الأخيرةُ من عُمْـ ـركمُ فى الوجود يا أحياءُ
ليس منكم من يضمَنُ الغَدَ فاشدوا فقريباً يضيعُ هذا المساءُ

ربما كنتمُ مساءَ غد تحـ ـتَ ترابِ القبورِ والأحجارِ
يتباكى عليكمُ البومُ والغر بانُ بعدَ الكؤوسِ والأوتارِ

وتعـودُ الـقـصـورُ والزَّهرُ مـلْكاً لسـواكـم من ضـاحكى الأحـيـاءِ
ويظَلُّ الـقـمـرىُّ يشـدو وأنـتم فى سـكونِ المَنيـةِ الخـرسـاءِ

وتعـود الحـقـولُ فى الفـجـر خلواً من أغـانيكمُ ووقعِ خـطاكـمْ
ويذيبُ الـنسـيـانُ ذكـر أمـانيـكمْ ويُذْوِى المماتُ غـصنَ صباكـم

ويـظلّ الـراعى يـغـرِّدُ للأشـجارِ والـنبع فى صـفـاء المـغـانى
وتـنامـونَ أنـتمُ لا حَـراكٌ لا نشـيـدٌ فى قـبـضـةِ الأكـفـانِ

لن تـنوحَ الحـيـاةُ إن مُـتّمُ أنـتم فـغنّوا ولا تَنوحوا عليـهـا
فـهى تلكَ الخَلُوبُ تبسِمُ للأحـيـاءِ والسمُّ كـامنٌ فى يديْهـا

فـانعَـمُوا فى ظلال أفـراحكم فـيـهـا ورَوُّوا الـظَمـاءَ قـبلَ الممـاتِ
وامرحوا فى الحقولِ واستنشقوا العطـرَ وصـوغـوا فـواتنَ النَغَـمـاتِ

ودِّعـوا هذه الشـوارعَ عند الـنـهـر يا أشـقـيـاءُ قـبلَ الرحـيلِ
ودّعوها فليس فـى القَبْرِ غـيرُ الصـمـتِ والهـمِّ والـظـلامِ الطـويـلِ

وابسـمـوا للـنجـومِ والقـمـر الحُلْـوِ وغنّوا النسـيمَ كلَّ مـسـاءِ
أىُّ غبنٍ أن تـفـقِـدُوا كـلَّ شىء فى الـبِلَى والسـكونِ والظـلمـاءِ

مرثية للإنسان

أيُّ عُبنٍ أن يذبلَ الكائنُ الحيُّ ... ويذوي شبابُهُ الفَيْنانُ
ثمّ يمضى به محبُّوهُ جثماناً جَفَتْهُ الآمالُ والألحانُ

ويُنيمونَه على الشوكِ والصخرِ وتحتَ الترابِ والأحجارِ
ويعودونَ تاركينَ بقاياهُ لدنيا خفيّةِ الأسرارِ

هو والوَحْدةُ المريرةُ والظُّلْمةُ فى قبرهِ المخيفِ الرهيبِ
تحت حكم الديدانِ والشوكِ والرَّمْلِ وأيدى الفَناءِ والتعذيبِ

وهو من كان أمسِ يضحكُ جذلانَ ويشدو مع النسيمِ البليلِ
يجمعُ الزَّهرَ كلَّ يومٍ ويلهو عند شطِّ الغديرِ بين النخيلِ

ذلكَ الميّتُ الذى حَمَلوهُ جُثّةً لا تُحسُّ نحو القبورِ
كان قلباً بالأمسِ تملؤه الرغبةُ والشوقُ بين عطرِ الزهورِ

كان قلباً له طموحٌ فماذا تَرَكَ الموتُ من طموحِ الحياةِ
يا لحزنِ المسكينِ لم تبقَ أحلامٌ سوى ظُلمةِ البِلَى والمماتِ

آه يا حـاملـيـه نحـو سـكون الـ ـقـبرِ لاتُسرعـوا وسيروا الهـوَيْنا
اتركـــوه يودّعِ العـــالمَ الـفـــا تنَ قـبل الرحـيل ظلمـاً وغُـبنا

واكشفوا جسمَهُ الغبينَ لضوء الشـ ـمسِ والـعطر فـهـى آخِـرُ مـرّه
لن يَرَى بعـدُ ذلكَ الضـوءَ لن ينـ شقَ فى سـجنِ قـبـرهِ عِـطْر زهره

لا تنوحـوا عليـه وليكـنِ الشَـدْ وُ خـتــامـاً لما وَعَـتْ أُذُناهُ
حـســبُـهُ أنَّـه يودِّعُ دنيـا هُ إلـى قـبــرهِ وتـفنـى مُنَـاهُ

فـاتركوا نعـشَهُ على الأرض حـيناً قـبل أن تقـبـروهُ تحت اللحــودِ
ربّمـا كـان خـائفـاً من دُجَى القبـ ـرِ حـريصـاً على جـمـالِ الوجـودِ

ربما كــان راغــبـاً فـى وَدَاع الـ أرضِ من قـبلَ أن يسـودَ الظلامُ
قـبلَ أن تـتـركـوهُ فى وحـشـة المو تِ وتخـبــو العطورُ والأنـغـامُ

اتـركـــوهُ يـراكـمُ أنـتمُ يـا من دفـعـتُمْ به إلى الـظلمـاءِ
وهو من كـان أمسِ ملءَ أمـانيـ ـكم فـصـار الغـداةَ ملء الـفناءِ

هـكذا الآدمـيُّ يُسْلـمُـهُ أحـ ـبـابُهُ لـلـتـرابِ والديـدانِ
ربِّ لا كـانـت الحـيـاةُ ولا كنّـ ـا هـبطنا هـذا الوجـودَ الفـانى

فـيمَ جـئـنا هنا؟ ومـاذا يـعـزّيـ   ـنا عن الـعـالم الذى قـد فـقـدْنا
ليـت حـــوّاءَ لم تذُقْ ثَـمَـــرَ الدو   حــةِ لـيت الشـيـطانَ لم يتــجنّا

علـمــتْنَا ثمــارُهـا فكرةَ الشــرّ   فكان الحـــزنُ العـمـــيقُ العــاصرْ
وفـــهـــمنـا مـعنى الفـناءِ وأدركـ   ـنا صـــراعَ البـقـاءِ تحتَ الـدياجِر

وهبـطنا هذا الـوجــودَ لـنشـــقى   منذ فـجـــرِ الحـيـاةِ حـتـى المغـيبِ
كلّنا نســتـغـيثُ من شَـجـنِ العيـ   ـش فـيــا لليلِ الحـــزينِ الـرهيبِ

يا لَظُـلمِ الأحـــزانِ مـــا سَلِم الأط   ـفـــالُ من أســرِها ولا الشـــبّــانُ
كم وليـــدٍ يبكـى ومـا تعـلم الأمّ   لمـاذا يبـكى ومــــــا الأحـــــزانُ

مأساة الأطفال

ودمـــوعُ الأطفـــال تجـرحُ لـكن ... ليس منهـا بدٌّ فـيـا لَـلْشـقـاءِ
هؤلاء الذيـنَ قـد مُنِحـوا الحسَّ ... ومـا يـملكـونَ غـيـرَ البُكاءِ

منحـتْهم كـفُّ الطبيـعة قلبـاً ... بشـرّيـاً يـسـتـشـعـرُ الآلامـا
ورمتْـهم فى كـفّـة القَـدَر الـغا ... شمِ جسـمـاً لا يستطيع كـلامـا

فـإذا مـا بكوا فـأدمعُ خُـرْسٍ ... ربما كـان خلـفَـهـا ألـفُ مـعنى
ربما كـان خـلفـهـا الألـمُ القـا ... تلُ أو رغـبـةٌ مع الـريحِ تَفـنَى

ربمـا ربمـا ومـا يـنـفع الـظَـنُّ ... ونَوحُ الأطـفـال ملء الحـيـاةِ
وُلِدوا صـارخـينَ بين يـدِ الأقـ ... ـدارِ فليـصـرخُـوا ليـوم الممـاتِ

علهـم يدركـونَ مـا لم نقـفْ نحـ ... ـنُ عليـه من ظُـلْمـةِ الأسـرارِ
ويرونَ الحـيـاة ليـلاً من الشـرِّ ... تدلَّـى على حـفـاف النـارِ

فـهـمُ يصـرخـونَ من ألم المُقـ ... ـبلِ أو يـندبون مـا قـد أضـاعـوا
أو لم يُقْـبلوا على غَـيْـهَب الـعـا ... لم حـيـثُ المحـيـا أسىً وصـراعُ

لم يَزَلْ فى نفوسهم أثَرُ الما   ضى النقىِّ الجميلِ أو ذكراهُ
حين كانوا فى عالم عبقرىٍّ   كلُّ حىٍّ على ثراهُ إلهُ

عالمٌ غيرُ عالم البَشَر المرّ   بعيد عن الدُّجَى والفَنَاء
ليس فيه أسىً عنيف ودمعٌ   وقبورٌ تلفّعتْ بالخَفَاءِ

ليس فيه طبيعة جَهْمةُ المر   أى تدوسُ الأحياءَ والأيّاما
ليس فيه معذّبون حَيَارَى   وثكَالى تحت الدُّجَى ويتامَى

ليس فيه شرٌّ وظُلْم وتعذيـ   ـبٌ ولا فيه مولدٌ ومماتُ
ليس فيه هذا النزاعُ على الخُبْـ   ـزِ ولا فى صفائه مأساةُ

يا جموع الأطفال يا مُرْهَفِى الحسِّ   كفاكم تفجعاً وبكاءَ
لم تزالوا فى أوّلِ العُمُر المرِّ   ولأياً ستعرفونَ الشقاءَ

لاتنوحوا على الذى قد فقدتم   من جمال ومتعة وسموٍّ
وأصيخوا لمأتم القَدَر الظا   لمِ فى عاصفِ الحياةِ المُدوّى

لم تزالوا براعماً لم تُفَتّحْـ ـها الليالى على ظلام الحياةِ
فاضحكوا الآنَ قبلما يزأرُ الهو لُ وتستنسرُ الهموم العواتى

قبلما تدلهمُّ أعماركُم تحـ ـتَ غيوم الشباب والاحلامِ
وترَوْنَ الوجود قفراً فما فيـ ـه سوى الليلِ والأسى والقتامِ

أينما ترسلوا عيونَكُمُ الظمـ ـأى فثَمَّ الأهوالُ والأضغانُ
وتضيعُ الآمالُ والمُثُلُ العُلـ ـيا وتبقى الآهاتُ والأحزانُ

امرحوا الآنَ فى ظلال أب يَشـ ـقَى وأُمٍّ جَنَتْ عليها الحياةُ
فغداً تحملون أنتم همومَ الـ ـعيشِ إذ ذاكَ تُسْفرُ المأساةُ

شيّدوا فى الرمالِ أبراجَ أحلا مكمُ وابسموا للهو الطفوله
كلُّ طفلٍ غداً فتىً ضائعُ الأحـ ـلامِ تحتَ المقادرِ المجهوله

وغداً تدركونَ ماذا أضعتم من صفاء ومُتْعة ونقاءِ
وترونَ الحياةَ منبعَ شرٍّ ليس منه منجىً وليلُ شقاءِ

وإذا مـــا بـنيـــتـمُ أمس زَهْـرٌ ذابلٌ تحت رحــمــة الإعــصــار
وإذا كلٌّ رغــبــةٍ كــوكــبٌ خــا بٍ وأنتـم علـى شـــفــاهِ الـنار

تتـــشــفَّى بكـم يدُ القَــدَر الـقــا سى وتُـلقْـى عليكمـــو بالـرزايا
وتبـيع الـشــبــابَ بالأدمُعِ الحـرّ ى وتَلْهــو على رُفَـاتِ الضــحـايا

فــإذا كلٌّ ضُــحْكةٍ من صــبــاكم بعـدها فـى شبـابكم ألفُ عَــبـره
وإذا عُــمْــرُكم مــســاءٌ حــزينٌ ليس تجـلو ســوى المـنّيــة ســـرَّه

أحزان الشباب *

يا همـــوم الشــبـــابِ فــيمَ تكـونيـ   ـنَ أحـــرَّ الهـــمـــومِ والأحـــزانِ؟
أنتِ يا مَــنْ يصـوغُـكِ القَــدَرُ الظا   لمُ ليـــلاً على الوجــودِ الـفــانى

فـيمَ كـان الشبـابُ مـرمـاكِ يا أحـ   ـزانُ مــاذا ترى الشــبـــابُ جَنَاهُ؟
فــيمَ لاتعـصـــرينَ إلا صِــبَـــانا   حَـــسْـبُـنا يا أحـــزانُ مـــا ذقـناهُ

ســوف يطوى شـبـابَنـا الزمنُ المُسْـ   ـرِعُ والحـلـمُ يـنطـفى ويضـــــيعُ
وتُميتُ الشـيــخـوخـةُ المرّةُ السَّـوْ   داء أحــــلامنـا ويمـــضى الربيعُ

فـــاتركـــينا رحـــمـاكِ نَنْعَمْ به الآ   نَ لننسَى مـــا فى غـــد ســيكونُ
قــبلَ أن تخـمـــد الأمــانى ويَفْنَى   فى الديـاجى شـبــابُنَاً المغـبـــونُ

ها أنا فى الشـــبـاب تقـتلنى الوحـ   ـدةُ والصـــمتُ والأسَى يا همــومُ
أينمـــا أتجـــهْ فـــثـــمّـــةَ أحـــزا   نٌ أراها ووحـــــشـــــةٌ ووجــــوم

كـلُّ شىءٍ أراه يـملـؤنـى حُــــزْ   ناً ويأسـاً من مُــبْـهـجـاتِ الحيـاةِ
يا لعُـمْـرٍ يمـــرُّ جَـهْـمـاً مـخـيـفـاً   تحت عـبءِ الأحـــــلامِ والآهاتِ

ومعاني الفناء ألمحها حو … لِيَ في كلِّ ما تراه عيوني
في دويِّ الرياح في نغم الطيـ … ـرِ وفي ظلمة المساء الحزين

فإذا أنّت الرياح الحزينا … تُ تذكّرتُ خلدها وفنائي
ورأيت القبور تحت يد الريـ … ـح وصوت الأمطار والأنواء

واذا غنّت الحمامة في الوكـ … ـر تبرّمْتُ بالنشيد المثير
وتذكرتُ أنها سوف تثوى … في غدٍ تحت عشها المهجور

وإذا أقبل المساء ولفّ الـ … ـكون بالصمت والدجى والهموم
وحملتُ العود الكئيب الى الوا … دي أغنّي شعري لضوء النجوم

صرخَتْ نفسي الكئيبة لا يخـ … ـدعْك هذا الظلامُ يا أختاهُ
كم شعوبٍ غنّتْ له فمحاها … وهو ما زال في ربيع صباهُ

نحن تحت الليل العميق ضيوفٌ … وقريباً تدوسنا قدماهُ
فاحفظي يا أختاهُ ألحانك الظمْـ … ـأى فما ترحمُ الشجا أذناهُ

أين أمضي يا ربِّ أم كيف أنجو … من قيود الفناء والأيام؟
ضاق بي العالم الفسيحُ فيا للْـ … ـهول أين المفرُّ من آلامي؟

كلَّ يومٍ أرى شَـبـابَ حـيـاتى | فى حـمى الوَحْـدَة المـريرة يَذوى
وأرانى أسـيـرُ مـرغَـمـةَ الأقـ | ـدامِ فى عـاصفِ الزمـانِ المُدَوِّى

لستُ ألقى حولى سوى عالمٍ يَشْـ | ـقَى ويَـلْقَى عـزاءَهُ فـى الشُـرُورِ
ويـبـيـع الحـيـاةَ بـالمُتَعِ الحـمـ | ـقـاءِ والإثـمِ والأذَى والغـرورِ

ويرَى اللـهـو فى الحـيـاة أمـانيـ | ـه ويدعـو الخيـالَ والشـعْرَ حُـمْقـا
يا لَجـهـلِ الإنسـانِ فليـبـقَ حـيـرا | نَ إذن ولْيَـظَلَّ يـأسى ويَشْـقَى

ولأعشْ فى ظلال وَحـدتَى الخـر | سـاءِ أبكـى ولا مُـصـيخَ إلـيّـا
لا فـؤادٌ أبـثّـهُ ألمى المـرَّ | ولا خـافـقٌ يحنّ علـيّـا

ولْيقـولوا إنّى فـتـاةٌ جنـى الشعـ | ـرُ عليـهـا فـعـشتُ للأحـزانِ
وعـبـرتُ الحـيـاةَ كـالشَبَحِ الضلـ | ـيلِ فى غَـيْـهب الوجـودِ الـفـانى

يا ظلالَ الشـبـاب فـابقَىْ إذا شئـ | ـتِ معى أو فـأسرعى بالرحيلِ
لستُ أُعْنَى بظلِّك الشـاحب المُقْـ | لق مـا دمتُ فى خـيـالى الجـميل

سـوف أبـنى اذا رحلتِ شـبـاباً | لفـؤادى أعـيشُ تحت سـمـائهْ
من رحـيق الخيالِ والشـعـرِ والأنـ | ـغـامِ أَسْقـى الزهورَ فى أرجـائهْ

وجـمـالُ الحـيـاة يَذْوى ويُفْنيـ ـه الأسَى والدمـوعُ والآهـاتُ
فليضعْ عُمْرى الحزينُ كما شا ءَ فعندى من الشعورِ حياةُ

فإذا أدبر الشبابُ وآويـ ـتُ لظلِّ المشيبِ والأسقامِ
ظلَّ قلبى الحسَّاسُ ذاك الفتَى الفيـ ـنانَ بين الخيالِ والأحلامِ

ثم ماذا؟ من قالَ إنّى سأبقى فى الوجودِ الحزين يا آمالى
كيف أدرى أنّى سألبث فيه ربّما متُّ فى صباىَ الحالى

ربما تنقضى حياتى قريباً وتموتُ الألحانُ فى شَفَتَيا
قبلَ أن أسمعَ الحياةَ أناشيـ ـدى ويُصْغى سمعُ الوجود إليّا

ربّما... لستُ أعلمُ الآنَ شيئاً فلأعشْ فى انتظار ما سيكونُ
ولأُحبَّ الحياةَ ما شئتُ من أجـ ـلِ نشيدى وان رمَتنى المَنُونُ

ولتجئْ بعدها المنايا كما تر جو فما فى الوجود ما يُغْرينى
لستُ ألقَى فيه حياةً أغنّيـ ـها فيا بؤسَ عُمْرىَ المغبونِ

أو لم أترك الحياةَ وما فيـ ـها إلى معبدِ الأسَى والشعورِ
أوَلم أرضَ عُزْلتى فى ظلال الشـ ـعرِ والعودِ والخيالِ الطَهُورِ

فـــاذا مـــا أتمتُ لحنى كـــمـــا أهـ ـوَى فـــمـــاذا أريدُهُ مـن حـيـــاتى؟
ليس فى الكونِ بعـد شعرى مـا يغـ ـرى فـؤادى فـمـرحـبـاً بالممـاتِ

سـوف ألقى الموتَ المحَّبب روحـاً شـــاعـريّاً يُحـبُّ صَـمْتَ الـتـراب
وفـــؤاداً يرى المـمــــاتَ شـبـــاباً للمُنَى والشـعـورِ أىَّ شـبـــابَ

سـوف ألقــاكَ غـيـرَ مـحــزونة يا مـوتُ فى مـيـعة الشبـاب الغَـريدِ
وعـــــــزائى أنّـى تـركتُ ورائـى لحنَى الـســرمــدىَّ ملء الوجـــود

لستُ وحـــدى التى تموتُ ومـــا زا لتْ شـبـــاباً لم تَسْـــقـــه الأنداءُ
تَعِـسَـتْ هذه الحـيـــاةُ فكم قـــد مـاتَ فى مـيـعـة الصِبَا شَـعـراءُ

أذبلتْ عُـمْـرَهـم يدُ القَـدَر الجـا نى وكـانوا نشيــدَ هذى الحـيــاةَ
يسكبـونَ الشـبـابَ والحبَّ والأحـ ـلامَ لحنـاً مــرقــرقَ الـنـغـمـاتِ

ويُضـيـعـون عُـمْـرَهم وصـبـاهم ليـصـوغـوا الحـيـاةَ لحنَ صـفـاءَ
وإذا عـــــاصفُ المـنـايا المُدَوّى يَتَـــعَــــالَى على لحـــونِ الغـناء

يا يدَ الموت فـيمَ كـان نصيبُ الشـ ـاعــر الفـــذِّ منك هـذا التــجنّى؟
فــــيم لا تُطْفــــئـين إلاّ مـناهُ؟ وهو فى مـيـعـــةِ الشـبـابِ الأغنِّ؟

ألكـي تكتــــبي الخـلودَ لذكـــــرا ـهُ علـى الأرض وهو غـضٌّ يافـعْ؟
أم لكي تُنقـذيه مـن شَجَن العُــزْ لـةِ والـفكـرِ والأسَـى والمدامـعْ؟

أم تُرى تبــخَلين بـالنَغَـمِ العَـــذْ بِ على الـعــالمِ الأثيمِ الشــقيِّ
فــتــضــمّـين لـلدُجَى والمنـايا كلَّ شـادٍ في الأرض أو عــبـقـريٍّ

أم ترى سنّةَ الوجــود تَـرَى مــا ليس يَدْرِى الأحيــاءُ أو يُدْركـونا
فـهى تَسْرى كـمــا تشـاءُ المقـاديـ ـرُ وتُصْــمِى شــبـابنـا المطعـونا

وسـواء عـلى المقـادير مــوتُ الشـّ ـاعـرِ الفـذِّ في الـصـبَا أو حيـاتُهْ
فـهــو جـسمٌ على الثَــرَى بشـريٌّ ضَـــيّـعْـتــهُ أحــلامُــهُ وشـكاتُهْ

فـاذا مـاتَ فى صِبَاهُ فـمـا اخـتـا رَتْهُ كـفُّ المنون للأكـــــفـــــانِ
واذا عــاشَ مــا يشــاءُ فـمـــا للـ ـمـوتِ فى عُـمْـرِهِ الطـويلِ يدان

نبــئـــينى أهكذا الأمـــر يـا أقـ ـدارُ أم قــد ضللتُ فـى أفكارى؟
أترانـا كــالزهْـرِ يقطفُـــهُ الفـــلاّ حُ فى الفــجـرِ شـارداً غـيـرَ دارِ؟

ليـس تعـنيــــه هذه الـزهرةُ الحُـلـ ـوةُ مـــا دام فـى يَدْيـه ســـواها
وهو يَـجْنـى منـهنَّ مـــا هو دانٍ منْهُ مــا دمنَ فى الشَّذَى أشـبـاها

أكـذا يا أقـدارُ؟ مـا أخـيب المَسْـ ـعَـى إذن فى ظلامِ هـذا الوجــودِ
أكــذا تتـركـينَ حـكمَكِ للصـُـدْ فـةِ؟ يا للـشـقــاءِ والتـنكيــدِ

كـل حَـيٍ منـا إذن لـيـس يـدرى مـا سيلقى فى يومـه من شـقـاءِ
ربمـا كــانـت المنَيــةُ فـى أوّ لِ ســاعِ النهــارِ أو فى المســاءِ

فـهـو يحـيـا عـلى شـفـا الألم الرا ئعِ منـذ الشـروق حـتى المغـيبِ
كلَّ يوم يـقــول: حــان رحــيلى يا لَهـذا الـعُـمْرِ الشـقىِّ الـكئيبِ

أفليس الممــاتُ فى مـيـعـة العُـمْـ ـرِ إذنْ نعـمـةً على الأحــيــاءِ
حـين ينجو الحىُّ الشقىُّ من الخـو فِ ويَفْنَى فى داجـيــاتِ الفـناءِ

تاركــاً هـذه الحـيــاةَ ومــا فـيـ ـهــا من الزيفِ والأسـى والظلامِ
بيـن كفِّ الرياح والـقَــدَر العــا تى ونَـوْحِ الشــيــوخِ والأيتــامِ

آلام الشيخوخة

يا دموعَ الشيوخِ فى الأرض هيها	تَ تجفّين فى العيونِ الشقيّه
أيُّ شيخٍ لا يَذْرف الأدمُعَ الحرَّ	ى على ما مضَى ويشكو البليّه

فهو ذاكَ المحزونُ قَضَى صِبَاهُ	فى لهيبِ الهمومِ والأحزانِ
ثم ذاق الشبابَ كأسةَ دمعٍ	ما لحىٍّ على قَذَاها يدانِ

ثم غاب الشبابُ فى ظلمة العُمْـ	ـرِ ومات الأحبابُ والأنصارُ
كلَّ عامٍ يرَى الأحبّاء يَفْنَوْ	نَ وتمحو ذكراهمُ الاقدارُ

يا لركبٍ مشى به القَدَرُ الخا	دعُ تحتَ الرياحِ والظَلْماءِ
رامياً فى فم المنيّةِ فرداً	منه فى كلّ بُكْرةٍ ومَسَاءِ

يا شتاءَ الحياة لم يبق فى الظُلْـ	ـمة إلا هذا الشقىُّ الغبينُ
ذهبوا كلُّهم إلى الموتِ إلاّ	هُ فدوًى نحيبُهُ المحزونُ

وهو ذاكَ المسكينُ أضعَفَهُ العُمْـ	ـرُ وحلّتْ بجسمه الأدواءُ
ومضتْ ظُلمة الحياة بعينيـ	ـهِ وغابتْ عن وعيه الأشياءُ

وهو يدرى أنَّ المماتَ قريبٌ   منهُ قُرْبَ الأحزانِ والأوجاعِ
كلَّ يومٍ يكادُ يُلقى على العا   لمِ والعُمْرِ أغنياتِ الوداعِ

يا غموضَ الحياةِ من أسلمَ الإنـ   ـسانَ للحادثات والأقدارِ
ذلك البائسُ الضعيفُ الذى يأ   تى ويمضى ولم يَزَلْ غيرَ دارِ

فهو ما زالَ هائماً بهَوى العا   لمِ والعيشِ فى ظلال الزهورِ
يتغنَّى بحبِّهِ رغم ما يَلْـ   ـقى من الحُزْنِ واحتدامِ الشعورِ

فاذا ما بَدَتْ له ساعةُ المو   ت ولم يبقَ فى الحياةِ رَجاءُ
رسمَ الحزنُ فى محيَّاهُ رعباً   ما رأى مثلَ هَولهِ الأحياءُ

وأطَلَّتْ عيناهُ تُلقى على الكو   نِ تحايا الوَدَاعِ والحرمانِ
فى ذهولٍ وروعةٍ يملآنِ الـ   ـقلبَ حقداً على الوجود الفانى

يا معانى الذهولِ فى جبهة الميِّـ   ـتِ، لا لن أخافَ هذى المعانى
سأرَى فيك بَلْسماً يُنقِذ الأحـ   ـياءَ مما يَلْقَوْنَ من أحزانِ

سأرَى فى الممات خُلْدَ حياتى   حين تعفو عنّى المُنى والجروحُ
وينامُ الجسمُ الوضيعُ على الأرْ   ضِ وتختالُ فى السماءِ الروحُ

عندمـا تخفتُ الأعـاصيرُ فى سَمْـ   ـعى وأنسى الأصـواتَ والأشـيـاءَ
كلُّ شىء فى العـالمِ الأحـمقِ الجـا   هلِ يخـبــو ويســتـحـيلُ هبـاءَ

فـإذا أمـعنَ الـنشـاوَى بـكأس الـ   إثم فى الـلهـو والصُـراخِ الأثيمِ
لم يجئْنى مـن صـوتهم أىُّ همسٍ   وتفـــردْتُ بـالسـكونِ المُقـــيمِ

وتمـرُّ الـسنـيـنُ لا ألـمٌ فــــيـ   ـهـــا ولا إثمَ فـى ظلال الخـلودِ
عـالـمٌ ليس لى التـغلغلُ فـيـه الـ   آنَ فـلأمـضِ فى غناءِ نشـيـدى

ولأعشْ فى هذى الحـيـاة مع الأحـ   ـلامِ تحت النهـار والظـلـمـاتِ
أعـشقُ الفـتـنةَ النبـيلـةَ فى الور   دِ وفى ضـجّـةِ الرياحِ العــواتى

وأسلّى نفـسى وقـلبى بمـرأى الـ   ـعـابثـينَ الأشـرار والواهمـينا
هؤلاء الـذينَ يـقـضـون أيّا   مَ صـبـاهُمْ فـى هَذْرهم سـادرينا

ليس تَعنيـهـمو الفـضـيلـةُ والنبـ   ـلُ ومـا يحـزنون للأشـقـيـاءِ
فـإذا مـا رأوا حـزينـاً مـعـنّىً   رجمـوهُ بالـشـوك والأقـذاءِ

وضعـافُ الطيـور فى ظُلَلِ الأغـ   صـانِ تَلْقى منهمُ صنوفَ الـنَكالِ
وزهورُ الخـبّـازِ فى رحـبـةِ الحقـ   ـلِ يدوسـونهـا فـيـا لَلضَّـلالِ

وحـــيـــاةُ الفنّانِ فـى عـالـم الوَحْـ		ـدة والـفكـرِ عنـدهم كـــالجـنون
يا لـهـــذى المأســـاةِ يا ربِّ مـــاذا		كـتـــبتْ للأحـــيـاء كفُّ الـسنينِ؟

ولتــســرْ هذه الحـــيـاةُ كـــمـــا تر		جـــو المقـــاديرُ والأسى والـظّلامُ
وليَظَلّ الأحـــيـاءُ فى التـيـهِ يشـقـو		نَ وتقـــســـو عليـــهـــمـــو الأيّامُ

ولأعشْ مـــا يشـــاؤه الـقَـــدَرُ الظا		لمُ أَبـكى علـى أسَى الأحـــيـــاءِ
هؤلاء الصَـرْعَى الظمِـاءُ الحَيَارَى		بـــيـــن فـــكّ الآثـــامِ والأدواءِ

بين يدى الله

المســاكــينُ يا ســمــاءُ فـمُــدِّى لأســاهم كَّـفْـيك يَفْنَ الشـقــاءُ
إن يكونـوا جنَوْا فـقلبُكِ أسْـمَى أو يكونوا ضَـلُّوا فـأنـتِ السمــاءُ

ليـس يُعْــيـى كفَّ الألوهـة أن تمـ ـحـوَ حُـزْنَ المعــذَّبين الجـيــاعِ
فـهـى نبعُ الحـيــاةِ والخيــرِ والفنِّ وبُـرْءُ الأحــــزانِ والأوجــــاعِ

جئتُ يا ربِّ تحتَ ليلى الطويلِ الـ ـمـرِّ أبكى حـزنى وحـزنَ الوجـودِ
حيـنَ ضـاقتْ بى الحــيـاةُ وأسلمـ ـتُ قــيــادى لليــأسِ والـتنكيــدِ

جــئــتُك الآنَ يا إلـهى ومـــالى غـيـر قـلبى ونغـمـتى من شــفـيعِ
أنا من قـد رسـمتُ مـأسـاة هذا الـ كــون شـعــراً روّيتُـهُ بدمــوعى

ها أنا قــد مـــددتُ كـفَّىَّ يا ربِّ وعــودى مُلْقىً على قَــدَمَــيّــا
وهو لحنـى الأخـيـــرُ يا ربِّ ذوَّبْـ ـتُ حيـاتى فـيـه وحُلْـمى النقـيّـا

فــإذا لـم تصِلْ ســمـــاءَكَ ألحـا نى فــعُـذْرى كـيــانىَ البَشَــرىُّ
وإذا مــا تـركـتَنى لشـقـــاء الـ ـعــيشِ يَلْهــو بىَ الـدُجَى الأبدىُّ

فهو حظّي من الحياة قضتْهُ شرعةُ الدهرِ والوجود الأبيدَ
كلّ حيٍّ لابدَّ أن يقطعَ العُمْـ ـرَ صريعاً على ترابِ الوجودِ

بين فكٍّ الرَحَى يغنّى ويبكى ويذوقُ الحياةَ بِشْراً وحُزْنا
آهِ لابدَّ من أسانا فماذا نفعُ هذى الشكوى الحزينة منّا

فلنلذْ بالإيمانِ فهو ختامُ الـ ـيأسِ والدمعِ والشقاءِ العاتى
يمسَحُ الأعينَ الحزينةَ من أد معها الهامراتِ فى الظلماتِ

فاصرخى يا رياحُ فى شُعَبِ العا لَمِ وامضى تفجُّعاً وعويلا
واصخبى يا بحارُ ما شئت فى سمـ ـعىَ واستصرخى الضُحَى والأصيلا

واطغَ يا ليلُ بالأسَى ومعانى الـ ـيأسِ فى قلبىَ الرقيقِ الكئيبِ
لن تنالَ الآهاتُ منّىَ بعد الـ آنَ حتى إن عشتُ فوقَ اللهيبِ

فوراء الحياة معنىً عميقٌ ليس تفنيه سورة الأحزانِ
هو معنى الألوهةِ الخالدُ المر جوُّ خلفَ الوجود والأزمانِ

الرحيل

فوداعاً يا كلّ ما في الوجود الـ ـعبقريِّ العميق من آهاتِ
كنتِ في قلبيَ الخياليِّ مأساةً وأنت الغداةَ سرُّ حياتي

سوف أهواكِ يا دموعي وأحزاني ما عشتُ في الوجودِ الجميلِ
فاصْحَبيني إذا أنا عشتُ في العالم أو حانَ عن ثَراهُ رحيلي

يا حياتي في هذه الأرضِ أمّا أنت فامضيْ كما يشاءُ الزمانُ
انشري ذلك الشراعَ وسيري وتَغَنِّيْ ما شاءتِ الألحانُ

وإذا ما هبّت رياحُ الردَى يوماً وهزَّت كفُّ القضاء الشراعا
فابسمي للأمواج مغمَضَةَ العيـنِ وقولي يا أُغنياتُ وَدَاعا

هكذا تبلغ السفينةُ يا شاعرةَ الحزن شطَّها الأبديّا
شاطئَ الموتِ شاطئَ الوحي والأسرارِ ذاك المحجَّب المخفيَّا

أغنية للإنسان

- ١ -

"نظمت هذه القصيدة عام ١٩٥٠"

في عـميق الظلام زمـجرتِ الأمـ ـطـارُ في ثـورة وجُنَّ الـوجــــودُ
طاش عَـصْفُ الرياح والتهب البر قُ وثارت علـى السكون الـرعــودُ

ثـورةٌ ثـورة تمـزّق قــلــب الــ ليل والصـمت بـالصـدى بالبـريق
ثورةٌ تحت عــصـفــهـا رقــد الكو نُ عـمـيقَ الأسى كـجـرْحٍ عـمـيقِ

•

صرخـاتُ الإعصـار أيقظتِ الرعـ ـبَ بـقلب الطـبـيـــعــة المدلـهمَّ
تتلوّى الأشــجــار ضـارعــة والـ ـمطـر البــارد الشــتــائيّ يهـمى

تتـلوّى فى رعـــشـــة، فى جـنون وفـــؤادُ الإعـــصـــار فى غَلَيــانهْ
تتـلوّى كــــأنهــــا روح إنســـا نٍ يريـد الخـــلاصَ من أحـــزانهْ

كل شـىء فى ثورة وانـفـــعــــال كلُّ شـىء فى لـيلـىَ المحــــزونِ
وأنا مـــثـلُهـــا تمـزقنـى الثــو رة والحـزنُ، مــثلُهـا فـى جنونِ

أنا حـــيثُ الآلامُ تُطبـق جُنْحــيـ ـهـا المخـيفـين فى الدياجيـر حولى
أدمع فى مــحــاجـرى، ولهـيبٌ فى دمى واكــتــئــابةٌ فـوق ظلّى

لم أزل فـى كـــآبتـى وشـــرودى
أرقبُ الليلَ والأعـاصـيرَ حَيْـرى

فى عـيـونى آثارُ حُلْمٍ جـمـيلٍ
كـان يـومـاً وأصبـح الآن ذكـرى

فى جـمـود وقـفتُ أرقـب من نا
فــذتـى ثورةَ الـدُّجَى وجـنونَـهْ

ورشــاش الأمطار يلـطم وجـهى
وأنا فـى خـواطـرى المحـزونهْ

يا أعـاصيـرُ من دمـائى خـذى النا
رَ ومن حـزنى العـمـيق الشـديدِ

يا دياجيرُ من فـؤادى خـذى الظلـ
ـمـةَ إنـى فى غـيـهـبٍ ممدودِ

عـصـرتـنى الحـيـاةُ لم يبـقَ معنىً
لوجـــودى لأدمـعـى لحـيـــاتى

كل شىء يـلوحُ لى عَـدَمـاً مـرّاً
ولـغـــزاً مكـفّـنـاً بـالشـكـاةِ

كلُّ شـىء تلـفّـه ظلـمـة أعـ
ـمقُ من أن يُنيـرهـا قطُّ ضـوءُ

ظلمـة كـالمـمـات تخنقنى خنـ
ـقـاً هـى اللاانتـهـاءُ واللاشىءُ

ظلمـة فى امتـدادها يخـبط الأحـ
ـيـاءُ فـى غـفلة عن الأقـدارِ

أين نمشى مـا عدتُ أحـتمل الجـهـ
ـل متى الفجـرُ؟ طال بى انتظارى

فى ضبـاب الأحلام والشعـر مرّغـ
ـتُ غـرامى ونشـوتى وصـبـايا

فى بحـار الخـيـال تاه شـراعى
فـيمَ؟ مـاذا جنيتُ غـيـر أسـايا؟

ودفنتُ الشـبـابَ والحبّ من أجـ   ـلِ طموحى ولـم أزل فى هيـامى
حـرقـة الاطّلاعِ تصـهر أحـلا   مى وإحسـاس فكرى المتـرامى

وشعورى الرقيقُ؟ أوّاه من عمـ   ـق شعورى وحسّى المشبوبِ
كيف أنجو من الأحاسيس من حـ   ـبّى وكرهى؟ من هدأتى ولهيبى؟

كيف أنجو من الأسى إن يكن حو   لى وجـود مـقـيّـدٌ مـوبوءُ
ألفُ جُرْح فى صدره ثار فى عمـ   ـق هدوئى فلم يعد لى هدوءُ

وأكفّ الحياة تجرحنى والـ   لغزُ يبقى لُغْزاً عميقاً خفيّا
تتحدّى الأحياءَ قهقهةُ المو   تِ وتبقى الحياةُ ليلاً دجيّا

أين أين الذين غنّوا على الأر   ض طويلاً واستبشروا وأحبّوا؟
لا صدىً من غنائهم لا لهيبٌ   من أحاسيسهم يثورُ ويخبو

ليس منهم إلا قبور حزينا   تٌ تبقّت على ضفاف الحياة
جفّ نبع الحياة فيهم فلاذوا   فى سكون بعالم الأمواتِ

المساء الجميل حدّثنى عنـ   ـهم أقاصيص كلُّها أحزانُ
شهد الليل أنّه مثلما كا   ن فأين الذين بالأمس كانوا؟

كـيف يا دهر تنطفي بين كـفّـيـ ـك الأمـاني وتخـمـدُ الأحـلامُ؟
كـيف تذوى القلوبُ وهي ضـيـاءٌ ويعـيـش الظـلامُ وهو ظـلامُ؟

كـيف تحيا الأشـواكُ، والزَهَرُ الفـا تنُ يَذْوى فى قـبضـة الإعـصـار؟
كـيف تمضى إلى الـفناء الأناشـيـ ـدُ وتبـقى مـرارةُ الأقـدار؟

وأكفّ الحـيـاة تجـرحنى فـيـ ـمَ بقـائى؟ حسـبى أسىً وعـذابا
فى ربيع الشـبـاب مـا أعـمق الجـر حَ إذا كـانـت الحـيـاةُ شـبـابا

الشـبـابُ الذى يسـمّـونه نُعْـ ـمى شـبـاب الشعورِ والرَغَبـات
والشـبـابُ الذى أسـمّـيه إحـسا سـاً عـمـيـقـاً بـكلّ مـا فى الحـيـاةِ

الشـبـاب الكئـيـب حين يفـيق الـ ـحـالـمُ القلب شـارداً مـسـتطارا
ويرى فـى تفـجّـعِ جـثّـة المـا ضى الغريقِ الشـاوى وكيف تُوارى

ذكـريـاتُ الطفـولة الـعـذبةُ البـيـ ـضـاءُ راحت تنهـار في اسـتسـلامِ
وظلال البـسـاطة الفـجّـةُ الحُلْـ ـوةُ ذابـت فـى مُـنـحَنـى الأيّـامِ

والفـؤاد الرقـيق يصـدمـه الإحـ ـسـاس بـالواقع الغـريـب الجـديد
واقع لـم يحـسَّـهُ قـط من قـبـ ـل وأفقٌ مـن عـالمٍ مـفـقـودِ

ليس يدري مــــاذا يُحسُّ لماذا ... تتبــقّى أعمــاقُهُ في انتــفاض
مُـــســـتَــل في تمزّق واصطراعٍ ... وأحــاسيسُ مــا وعـاها مــاضى

رَغَبـاتٌ كـالليل غـامضةُ الأصـ ... ـداء تُرْغى فيــما وراء الشعـورِ
وشـعـورٌ بفـورةٍ فـي الدم الجـا ... رفِ تبــقـى كناقمٍ مـــوتـورِ

وانبـــثـاقٌ يريـد أن يملكَ الـنجـ ... ـمَ ويسطـو علـى ذرى الآفـــاقِ
واندفـــاع إلى مــــعـــانٍ وراء الـ ... ـحسّ في المستحيل في الأعماقِ

كل هـذا يُحـــسّـــه قـلبـي الدا ... مي بجُرْح الشباب والإحساسِ
ليــتني لم أشبَّ بعـدُ عن العـشـ ... ـر ولم يَستـفـقْ شعـوري الناسي

ليـتني لم أزل كـمـــا كنتُ قلبـاً ... ليس فـــيـــه إلا السَّنا والنقـــاءُ
كلَّ يـوم أبنى حـــيـــاتيَ أحـــلا ... مــــاً وأنسـى إذا أتانـي المســـاءُ

فـــوق تلّ الرمـــال أصـــرف أيّا ... مي وأبني مـــســتـقـبـلاً من رمـالِ
لا أحسّ المأســـاة حـــولي ولا أسـ ... ـمعُ فـي الرمل ألفَ ألـفِ ســؤالِ

كـالعـصـافـير لم أحيّـر أحـاسيـ ... ـسـي يومـــاً بما تـقـــول الـرياحُ
فــوق تلّ الـرمــال أرسم أشــبـا ... هَ قـــصـــورٍ سكَّانُهـــا أشــبـــاحُ

وتمرّ الساعاتُ بى وأنا أبـ　　ـنى خفايا مدينة الأحلامِ
أيّ يوتوبيا فقدتُ وعزّ الآ　　نَ إدراكُها على أيّامى

تلك يوتوبيا الطفولة لو تر　　جع لو لم تكن خيالَ مَنامِ
إيه تلّ الرمال ماذا تُرى أبـ　　ـقَيْتَ لى من مدينة الأحلام؟

هو ذا أنت، مثلما كنتَ تلاً　　شاعرياً مكللاً بالجمال
وأنا لم أزل أمرّغ أحلا　　مى وأبنى... لكن قصورَ رمالِ

كنتْ عرشى بالأمس كنت لىَ الأو　　لمبَ والآن لم تعد غير تلٍّ
كان فى هذه الرمال وجودٌ　　شاعرىٌّ يلفُّهُ ألفُ ظلٍّ

ذهب الأمسُ لم أعد طفلة تر　　قبُ عشّ العصفور كل صباح
لم أعد أبصر الحياة كما كا　　نتْ رحيقاً يذوب فى أقداحى

لم أعد فى الشتاء أرتقب الأمـ　　ـطار من مهدىَ الجميلِ الصغيرِ
لم أعد أتبعُ الحمامة إن غنّـ　　ـتْ وألهو على ضفاف الغدير

لم أعد أستطيعُ أن أحكم الزهـ　　ـر وأرعى النجومَ فى كلِّ ليلِ
لم أعد أمزج الوجود بقلبى　　وأعدُّ الحياةَ قصّةَ طفلِ

ذَهبَ الحُلْم والطفولة واعتضـ ـتُ بحسّى الرهيفِ عن لهو أمسِ
كل ما فى الوجود يجرحنى الآ نَ ولون الحياة يطعن نفسى

أين شعر الوجود؟ أسفر عن شىءٍ طَوَى سرَّهُ ذبولُ الرماد
كل شىء قد عاد أشبه بالقبـ ـر رهيباً ملّفعاً بالسواد

النشيد القديمُ ضاع صداه حين مرّت به يد الأعوام
كلّ شىء ينهارُ إلا عنادى وحنين الجمال فى أحلامى

وحوالىَّ تُطبق الخيبةُ المرّ ةُ جُنْحَى نسرٍ مخيف السكون
أيها الواقعُ الثقيلُ حنانَيْـ ـكْ أهذى عقبى المنى والحنين؟

رعشات الأزهار لم تعد الآ نَ نشيداً وضحكة استبشار
بعضُ شىءٍ فيها يمرّ على سَمْـ ـعى بأقدام قاطفِ الأزهار

وغناء الطيور لم يعد الآ نَ شفاءً لأدمعى وخلاصا
بعضُ شىءٍ فيه يذكّرنى الأقـ ـيادَ والصائدين والأقفاصا

وعبور النسيم لم يعد الآ نَ كما كانَ فرحةً فى كيانى
بعضُ شىءٍ فيه يُذكّرنى الأ مواتَ تحت السكون والنسيان

واختلاجُ الأمواجِ في النهر ما عُدْ ت أراه إلا دُجَى مدلهَما
بعض شيء فيه يذكّرني جسـ ـم غريقٍ رأيتُهُ فيه يوما

ومرور الأيّام ما عاد يبدو لي ربيعاً ملوّناً سحريّا
بعض شيء فيه يذكرني الأقـ ـدار والموت والأسى الآدميا

وجمال الوجود ما عاد يبدو لي مثيراً لنشوة لا تُحَدُّ
بعض شيء فيه يلخّص لي القصّـ ـة في لفظتين: مهدٌ ولحدُ

عُدْتُ أخشى الحياةَ، أفرق منها وأراها دعابةً لاتطاقُ
إنها الآن قصّةٌ حاكها بالدّ مع والنار ماردٌ عملاقُ

حسبُها أنّنا دفعنا إليها ثمنَ العيش حُرْقةً ودموعا
أي ذنب جناه آدم حتى نتلقّى العقاب نحن جميعا؟

أيُّ ذنبٍ جنتْه حوّاءُ؟ ماذا عرفتْ من ثعبانها المشؤومِ
ليتها لم تمسَّ دوحتها قطُّ ولم تصبْ للجَنَى المسموم

ليتها لم تحسّ بالشرّ والخيـ ـر ولم تَدْرِ للتمرّد طعما
ليتها حافظت على جهلها المطـ ـبق ما دامت الغباوةُ نُعْمى

وليكن آدمٌ وحـــواءُ قـــد ثارا		وداســا السـمــاءَ فى إصــرارِ
أو لم يكـفِ أن أضـاعـا جـنانَ الـ		ـخُلْد؟ لم تكف سورة الاحـتقار؟

وسدىً يبـحـثـان فى عـالم يَسْـ		ـكنُ فـيـه الغـمـوض والأسـرارُ
السـمـاء الـتى أضـاعـهـا خلودٌ		وهنـا يحـكم الـرّدَى الجـبّـار

هبـطا فى تـعــثـرِ صـامت الآ		هات غـرقـانَ فى جـمـود الذهول
يسحبـان الذكرى الكئيبـة فى صمـ		ـتٍ ويستحـيـان جَـذْب الحقـولِ

إيه حـوّاءُ! كـيف عـوقبـتِ بالنفـ		ـىِ ولـولاكِ مـا عَـرَفنا الـنورا
أنتِ يـا من بعتِ الخلودَ بـأحــزا		نِ ليـالـيكِ واشـتريتِ الشـعـورا

الخطايا الـتى اقـتـرفتِ ستبـقى		شُـعَـلاً فى وجـودنا وضـيـاءَ
كـخطـايا الربّ ســرق الـنا		رَ لعـبّـاده ونـال الشـقـاءَ

آهةٌ فى الـوجـود تُسْـمع يا حـوّ		اءُ روحى حـديثـك المجـهـولا
كـيـف ألقـيتِ رأسك الحـلو فى يأ		سٍ على صـخـرةٍ ونُحـتِ طويلا

وعـلى بـعـد خطـوتيـن حنـا آ		دم فى صـمـتـه الرهيبِ الحـزينِ
شـعـرهُ الأشـقـرُ الجـمـيلُ تهـاوى		خُـصُـلاتٍ على شـحوب الجبـينِ

إهدآ أيّهـا الكئيبـان مـا زا   ل لقلبيكمـا بقـايا هـناء
بعضُ ذكرىً من السماء غداً تمْـ   ـحَى بذُرِّيَّةٍ من الأشقياءِ

فى الجبال التى تموتُ بها الأصـ   ـداءُ رجعٌ من ماضيات القرونِ
وكأنى هناك أسمع أصدا   ء خطىً تستثيرُ قلبَ السكونِ

شبهُ أقصوصة يُرَجّعها الوا   دى حديثاً عن سيرة بَشَريّه
مسحتها الأيامُ لم تُبْقِ منها   غيرَ همس فى الأنفس الشاعريّه

حدّثتنى الوديانُ عن زمنٍ مرّ   ولفّته بالضباب الليالى
عندما كان فى الوجودِ فتىً را   عٍ يُغنّى الرياحَ فوقَ الجبالِ

كان يُدْعى هابيل كان يسوق الـ   ـغَنَم الظامئاتِ كلَّ صباحِ
كان فى روحه بقيةُ ذكرىً   من حياة السماء والأرواحِ

مقلتاهُ حُلْمان بالشعر والحب   يذوبان فى صفاء المراعى
شفتاه ارتعاشتان لما يُبْـ   ـصِرُ من فتنةٍ ومن إبداعِ

يسقط الليل بالنَدَى فوق جَفْنَيـ   ـه ويغفو على ظفائر شعره
ذلك الحُلْمُ، ذلك الأبَدُ النا   ئمُ هابيلُ فى صفاهُ وطُهْرِهْ

كـان يـومـاً ينـام فى ظُلَّة الجـو ز علـى شطّ جـدول نعـسـان

حـالماً بالآفـاق كـفَّـاه فـى الما ءِ العـبـيـرىِّ فى سكـون المكان

نشـوةٌ ملءَ روحـه، روحـه الظمـ ـأى إلى كـل فـاتن مـسـحـورِ

ليس يصـغى إلا إلى هـمـسـة الما ء وخطو القطيع قـوى الصـخورِ

لم يشـاهد قـابيلَ تـقـتـلُهُ الغَـيْـ ـرةُ يمـشى فى نقـمـة مـحـمـومـه

فى يـديه سكّينُهُ الحـاقـدُ المسْـ ـمومُ فى مـقلتَيْـهِ طيفُ جـريمـه

لم تكن غـيـرُ صـرخة، غـيـر تأويـ ـهـة حزنٍ غـيـر اضطرابِ قـصيرِ

هدأ الجـسم بعـدها وثـوى الرا عى النبـيلُ المقـتـول عند الغـدير

وأتت ظلمـةُ المسـاء على الحـقـ ـل وعـاد القطيعُ من دون راعى

ليس إلا قـابيل يمـشـى رهيبَ الـ ـخـطوِ نهبَ الأفـكارِ والأوجـاع

عَـبَـثـاً يطرد الجـريمـةَ والمقـ ـتـولَ عـن ذهنه الأثـيم المسىءِ

كلمـا قـاتل الأسـى عـاودتْهُ فى الدُجَى صـرخةُ القـتيل البـرىءِ

أولم تسـمع الحـقـولُ صـدى أنّـ ـة هابيل حـين خـرّ قـتـيـلا

أولم يشـهـدِ القطيعُ عـلى الجـا نى ألـم يـبـصـرِ الدمَ المطـلولا

أين هابيلُ؟ أين وقع خطى أغـ ـنامه في الجبال والوديان؟
ليس منه إلا ضريح كئيب شادَهُ في العراء أولُ جانِ

يا لأحزان آدم عندما أبـ ـصرَ بابنيه قاتلاً وقتيلا
أيها المستطارُ لن تردَعَ الأقـ ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلا

استرحْ أنت، نم دع القاتل الآ ثم يسكر على نشيش الدماء
لَعَنَاتُ القتيل لن تعرفَ الصمـ ـت غداً تستبدّ بالأحياء

لعنات تظل تصرخ بالثأ ر وتبقى تحزُّ في الأعصابِ
وتحيل الأيدي مخالبَ والأر ضَ قبوراً والناسَ محض ذئابِ

سوف يأتي جيل من الناس محمو مٌ يصيحُ الجنونُ في رغباته
يتمنى لو كانت الأرض لحماً ليصبَّ المزيدَ من طَعَناته

وانبثاقُ الدماء يُغريه ما لذ ةُ هذي الثمالة المسمومهْ؟
إنها اللعنة القديمة أبقت في عروقِ الأبناء نبض الجريمهْ

ذلك النبض لن ينام إلى أن يترك الكون في الفضاء شظايا
ذلك النبض لو يحدّثُ عما سال في الأرض من دماء الضحايا

حـدثينا يا فـورة الشـرّ فى أعـ   ـماق هذى السلالة العـمـياء
عن جنون الطموح يقتات من ضوء   المآقى ويرتوى بالدمـاءِ

عن جمود الرجاء فى أعين القتـ   ـلى ولون الشرود والنسيان
العـيـونُ التى تحدّق فى اللا   شىءِ فى غفلة من الأزمانِ

عن عيون كأنّ فيها فُتوراً   ساخراً من وجودنا المجنونِ
وعيونٍ كأنها تقذف اللعنة   والموت فى لظى وجنونِ

وعيون ترسّب الصمتُ فيها   وانطوى خلف لونها ألف سرٍّ
وعيون أخرى يضجُّ أساها   ترمق الموت فى ابتهال وذُعْرِ

والعيون التى تحدّق لا قـ   ـر لها لا بداية لا نهايه
والعيون التى استحالتْ رماداً   مطفأ ليس فى تلاشيه غايه

والعيون التى تحقّرُ فى صمـ   ـت وتلك التى تلوح ذهولا
والعيون التى يغلفها الحز   نُ وتبكى شبابها المقتولا

والعيون التى يعفّرها الرمـ   ـلُ وتمحو ضياءَها الظلماتُ
والعيون التى تحدّق فى الأر   ضِ كأن ليس فى الوجود حياةُ

وعـيـون العـدل الصـريع مع الأمـ ـوات بـين الدمـــاء والأشـــلاءِ
من رآها اسـتـحال صـخـراً أصمّـاً مّـيت الحـسّ خـادر الأعــضــاءِ

أين أيـن المفــــرُّ مـن هاتـه الأعـ ـينِ من لـونهـا العــميـق الرهيبِ
إنهـــا لا تنام لا تعـــــرف المو تَ وتبـقى فى حـقـدها المشـبوبِ

إنهـا لا تغضُّ أحداقــهـا الـسـو د وتبـقى غـضـبى تفـيـض جنونا
إنها فى السماءِ فى الأرض فى كل مـكانٍ يـحسّ بـالميــــتــــينا

فى هدوء العـروق تصـرخ فى الليـ ـل وتـعــوى فـى كلّ قلـب أصمٍّ
فى جـمود الضـمائر الميـتة الشـلاَّءِ فـى كل قـــادم مـــدلهـمٍّ

ليس يقـوى على فـظاعـتـهـا النِسْـ ـيـانُ فـهى ارتجـافـة فى الشـعـورِ
وانعــصـار فى الروح يغلـى جنونا وسـيـاط تـنصبُّ فـوق الضـمـيـرِ

وكـوابيسُ كـالسَعَـالى تجـوسُ اللـ ـيلَ خلـف استنامـة اللاشـعـورِ
كلمــا أخلد الضــمـيـرُ إلـى النو م أفـاقت من كـهـفـهـا المسـحـورِ

ودعت مــوكبَ الخطايا فــخــفّتْ من أقاصى الدُجَى المخيف الجديبِ
مــوكب قـــاد خطوهُ الـنـدم القـا تل غـــرقـــانَ فى جــمــود رهيبِ

أين أين المنجى؟ وكيف تنامُ الر وحُ في ضجّة الضمير المُهانِ؟
أيّ نوم يذوق راحته الجلاّ دُ؟ هل للذنوبِ من نسيانِ؟

يا حبال الجلاّد لفّى على الأعـ ـناق أفعى الذنوب والآثامِ
انسجيها من رجع أغنية الأمـ ـواتِ من لعنة الجراحِ الدوامى

اجمعيها من كل عمر طوته كفٌّ (آريس) وهو ما زال غضّا
القطى لحنها من الموكب الأخـ ـرسِ ما بين ثاكلين ومَرضَى

من شفاه الأطفال تحلم بالمأ وَى وبالدفء في رياح الشتاءِ
من عيون الصبيان ترسم في الظلـ ـماءِ أحلامَ عودة الآباءِ

من جنون الرياح تعصف كالأقـ ـدار فوق الخرائب المنثوره
حيث كانت تقوم أبراج تلك الـ ـمدن العبقريّة المسحوره

حيث أمست تمتدّ مملكة الغر بان والليل والمنايا السودِ
عالم يحكى التأكّل فيه ليس فيه غير الصدى من جديدِ

وأماسيه لا تمرّ كما كا نت عليها الأوتار والأقداحُ
إنها الآن مسكنُ الرُّعْب تأوى لذراها الرياح والأشباحُ

القـصور الـبـيـضـاء هبّت من الحُلْـ ... ـم عـلى منجـل الردى القـتّـال
تتهـاوى أحجارها الـسـود فى صمـ ... ـتٍ وتنـهـار فى سكون الـلـيـالى

ذلك الحلم فى عـيـون الصـبـايا الـ ... ـناعـسـات الأجـفـانِ والأعـمـارِ
حَـصَـدَتْهُ فى الفـجـر قهـقـهـةُ المد ... فعِ فـانهـار خـامـدَ الأوتارِ

والشـفـاه العـذراء أطبـقـهـا المو ... تُ على لحـن حبِّـهـا المبـتـورِ
والجـبـاه التى ذوت قـبـل أن يلـ ... ـمَـسَـهـا إصبعُ الهـوى المسـحـورِ

والخـدود التى تعيـر مـغيب الشـمـ ... ـسِ ألوانـهـا وتسـقى الـشـروقـا
غـارَ فيـهـا جُرْحُ الـتراب عـمـيقـاً ... وذوت قـبل أن تذوق الرحـيـقـا

والعيون الظمـأى التى تشرب الأنـ ... ـجم منهـا وتـسـتـعـيـر سـناها
دفن المـوت خلف أهـدابهـا أغـ ... ـنيـةَ اللون وانطـوت ذكـراها

والأكف التـى انطوت وهى مـا زا ... لت تحـوك الطـمـوح والأهواء
لـم تزل غـضّـة أصـابعـهـا اللد ... نة تسـتـعـصـر الحـصـى والهـواءَ

والقلـوب التى بنت من صـبـاها ... مـعـبـدا للجـمـال والألحـانِ
من ضباب الأحلام من ملمس الور ... د ومن روعـةِ الدجـى الوسـنان

فى جنون ظلت تصفّق شوقاً لرحيق المستقبل المجهولِ
فأفاقت على مطاردة المنـ ـجل فى ميعة الصِبا المعسولِ

وأطلّت إلهةُ الفجر أورو را على المشهد المثير الرهيبِ
لحظة ثم أطبق الأمس جفنيـ ـه على الحاضر المقيت الجديبِ

لحظة ثم نامت الأعينُ الشهلا ءُ واستسلمت إلى النسيانِ
وحَشَاها التراب صمتا وبردا بعد دفء الشعور والألوان

لحظةً ثم مَرَّغَت مُدنُ الأحـ ـلام أبراجها الضخام القباب
فى تراب الفوضى وعادت خيالاً مَسَحَتْ رسمَهُ يدُ الأحقاب

حيث كان الجمال يفرش ضوء الشـ ـمسِ روحاً وفتنة وطيوفا
أصبحت ترسل الخرائب صوت الصـ ـمتِ والموت غيهبيّا مخيفا

حيث تمتدّ وحشةُ المُدُن الميـ ـتةِ صَماءَ فى جُمُودِ الصخورِ
كل شىء فيها تحوّل صمتا ليس فيه من خلجةٍ أو شعورِ

غير معنىً مكبّل ربما استيـ ـقظَ فى رقدة الرخام الحزين
لا تعيه إلا النفوسُ التى تَسْـ ـمعُ همس الدجى وصوت السكونِ

لا تعـيـه إلا القـلوبُ التي تـقـ ـرأ ســرّاً الذهـول فى عـينينِ
وتُحسّ البـغـضـاء ترجف كـأسـا وتحسُّ الجنونَ فى شـفـتـين

هذه الأنفـس العـمـيـقـة تدرى أنّ سـراً يشـيـع فى الأحـجـار
وتواريـخَ كـامـلاتٍ يغـنيـ ـهـا العـمود الكابى لحزن الجدارِ

وتلال الأنقـاض تـروى الأقـاصيـ ـصَ لسـمـع الظلام والأشـبـاح
عن مئـات الخطى التى عـبـرت يو مـاً ومـاتت مع الدجى والرياح

عن أغـانٍ مـرّتْ بـأعـمـدة الأبـ ـهـاء غَـرْقَى بالـدفءِ والأحلامِ
ناعـمـات تغـوص فى رجعـهـا الآ هاتُ سكرى الخطـوط والأنغـام

الأغـانى التى تلامس خـد الـ ليل ملسـاءَ صـافـيـاتِ الشـفـاه
نام فـيـهـا لُـغْـزُ الجـمـال وأغـفت فـتـنة الحبّ والشـبـابِ اللاهى

جفّ عـرق الحـيـاة فيـهـا وعـادت ذكـريات مـطمـوسـةَ الألحـانِ
فى زوايا الأنقـاضِ تـسـردها الأعـ ـمـدةُ البّـاليـاتُ للجُـدْرانِ

وتلولُ الأنقـاض تروى الأقـاصيـ ـصَ لسـمـع الظلام والأشـبـاح
عن فلـول الذين عـادوا من الحـر بِ حطامـاً وحـفنةً من جـراحِ

كيف مرّتْ على وجوههمُ الربـ ـداءِ كفُّ الردَى فلم تُبْقِ لونا
كيف عادوا يرتلون نشيدَ الـ ـموتِ ملء الفضاء لحناً فلحنا

كيف ألقى الحرمان ظلَّ السنين الصـ ـفرِ فوق العيون فوق الشفاه؟
ويدُ الموتِ كيف أبقتْ أساها وتراث الذهولِ فوق الجباه؟

وخطاهم كأن وقعَ صَدَاها جرسُ الموت رنّ ملء الفضاء
منشداً للحياة أغنيةَ الفَوْ ضَى ولحن الجنائز السوداءِ

رَجَعوا فى جباههم صُفْرةُ الأشـ ـباح يمشون فى جمودٍ عميقِ
هذه الأعينُ الرماديةُ الأسْـ ـرار هل خلف صمتها من بريقِ؟

هل حديث عن الليالى البطيئا تِ وعن ثلجها الكثيف الثقيل
عن جليد الضباب ينهش جسمَ الـ ـصمت فى ظلمة المساء الطويلِ

عن سهاد الأحزان فى أعين الحرّ اسِ فى الخندق الرهيب الدامى
رَسَبَ الليلُ فوق أهدابهم ثلـ ـجا ومات الإحساسُ فى الأقدام

سهروا يرصدون أقبية الليـ ـلَ سكارى بالسهد والانتصار
مات فى ذكرياتهم وتر الإحـ ـساس بالبرد والسكون العارى

يرصــدون الحـيـاة فى ملل مـرّ　　التـلوى مــسنِ الأصــفـاد
كل عــينينِ فـيـهمـا قـصـة تُـ　　ـلى وتَروى لـلّيل ســهـد الرمـاد

والجنود الذين أغــفــوا مع المو　　تى ونامــوا عـلى الثـرى الثـلجى
كل أحــلامــهم كــوابيس من نا　　رِ وقـــتـلى ووحــــشــةٍ ودوىّ

ثم يـأتى الصـــبـاحُ ثـانيـةً يـصـ　　ـحَـبُـهُ المـوتُ أسـودَ الأنيـابِ
من جـديد يمـرُّ يحـصُـدُ لا يُـبْـ　　ـقى على الأرض غير صمتِ الخرابِ

ويضـيعُ المسـاءُ فى ألف فـجـر　　ويضـيع الصـبـاح فى ألـف ليلِ
كلُّ شىء يذوى وينـهـار لا يُـبْـ　　ـقى على الأرض غيـرَ ذِكرىً وظلِّ

ويطلُّ الـسـلام ذاتَ ضـحىً حطّ　　ـمـه الليل والمدى المستـحـيل
ملء عـينيـه نعسـة الحـلم الخجـ　　ـلان والصـمت والـرجـاءُ الهـزيلُ

السـلام الحــزين هذا الطـريد الـ　　ـتـائه الخطو مـا له من مَـقَـرّ
ذو العـيون الزرقـاء ينبع منهـا الشـ　　ـعـرُ والحبُّ فى صـفـاءِ وطهـر

ها هو الآن يـسـتـقـر على الأر　　ض غــريبـا يمرغ الجنحـين
فى دمـاء الـسنين تتكئ الخـيـ　　ـبة فى مـقلتيـه فى الشـفـتينِ

يعــبــر المّيــتــين والمُـدنِ الصــمّــ ـــاءَ والجــــدب والأسى والـذهولا
باســـمـــا فى مــرارة لـيس يدرى كـيف عـاد الأمس القـديم ذبولا؟

اتركـوه يـهـيم فى الجـــدب والفـو ضى ويحــصى الجــراح والآهاتِ
اتركـــوه مـضـيـــعـاً دونَ مـــأوى تائهـــاً فى مـــجـــاهـل الظُلُمـــاتِ

يتـــغـــذى بالـذكـــريـات ويأوى لتـــلال الأنـقـــاض والأشـــلاء
ويغنى له الغـــراب نشـيـــد الشـ ـــرّ والموتِ فى اربداد المســـــاءِ

أىُّ قلبٍ يؤويه؟ كيفَ يعيش الضـ ـوءُ فى رفـقـــه الدُجَى والشرورِ؟
كـيفَ يحـيا البـيـاض فى هذه الأو عـية السـود فى خمودِ الصـدورِ؟

أىُّ عـــينينِ تُدركـــانِ صَــفَـــاهُ وتُحـــسّـــــان ســــره المكنـونا؟
هل تبــقت إلا كـهــوف شـقـيّـا تِ تسـمى مـــآقــيـــاً وعـيـــونا

ملـؤها اليـــأس والمرارة حــيـناً ملـؤها الشــرُّ والأذى أحــيـــانا
أين يأوى الســلام والحب؟ يـا للـ ـحربِ لم تبق فـى الثـرى إنســانا

ليـس إلا قـــوافل مـن حَــيـــارَى نام فـى ذكـــرياتـهم كلُّ صـــوتِ
يذرعـون الحـيـــاة فى حيـرة الأشـ ـباح يـمـشـون مــيـتـا إثـر مـيتِ

بردت فى عـيـونهم قـصـة الحب   وأبقت صـمـتـا عـمـيـقـاً طويلا
وخبتْ فى جفونهم ومْضة المعـ   ـنى وأبقت غـشـاوة وذهولا

الحـيـارى لا يـدركـون لماذا   يمـلأون الوجـودَ ضـحكا وحـزنا
وجنونُ الحـيـاة من أجلِ مـاذا؟   أى مـغـزى وراءها؟ أى مـعنى؟

الحـيـارى أبقت لهم قـصـة الحـر   ب اضطـرابا ممـزقـا لا يقـر
وجـحـوداً يكادُ يـكفُـرُ بـالرّو   حِ وشكـا فى كـل شىء يـمـر

يعـبـرون الأيام أجنحـة شـلاء   قـصـت زوابـعُ الأيـام
ريشهـا فهى فى الثرى تبصـر التحـ   ـليـق فى غـطَّـة من الأحـلامِ

وانطوت فى عـيـونـهم قـدرةُ التلـ   ـوين والخـلْق واصطيـاد المعـانى
فـهم لا يرون مـا يخـتـفـى خَلْـ   ـفَ جـمـودِ الأشـيـاء من ألوانِ

ربما أبـصـروا على الأفـق النعـ   ـسان قـوسَ الأمطار يقطر شـعـرا
كل لونٍ يـذيع فى خـاطر الغـيـ   ـم نشـيـداً يذوب شـهـداً وعطراً

وهم يسـحـبـون أقـدامـهـم فـو   قَ تراب المـلال والبـغـضـاء
ومـآقـيـهم الرمـادية الجـد   باء قـبـر الجـمـال والإيـحـاءِ

اشــحبى يــا غـيــوم وانطفــئى يا   مـقلة الشمس فى الفـضاء الـبـعيـد
ولمن يشـــرق الجـــمــال؟ أللـنسـ   ـيــان؟ للاحـتــراق؟ للتـبــديد؟

ولمن تضــحك الـنـجـومُ؟ لمـن تَسـ   ـكبُ أهدابـهـا كـؤوس الضــيــاء
ولمن ترقـص الفــراشـــات سكرى   بعـــيـــون البـنـفـسج الـزرقــاء؟

ولمـن هذه الـعـــبـــذوبة فـى الأز   هار؟ فى نَعـسةَ الـشذى النشـوان؟
فى غنـاء الجـداول الـعـذبـة الوَسْـ   ـنَى لأرض عـشـبـيـة الأحـضـان

فى ابتــسـام المروج بـعـد مــســاء   ممطـر الصــمـت دافئ الديجـــور
فى دمــــوع النَدى َعـلى زهرة بيـ   ـضـاءَ نامتْ على حـفاف الغـدير

ولمن تُرسلُ الـعـصــافـيـرُ لحن الـ   ـحبِّ والضوء والشَذى َكل فجر؟
والحـفـيف المفـتـون إن لم توسـد   ه رؤانـا لمن يـذوبُ ويَسْـــــرى؟

أغنـاءُ ولا مـــســامعَ تـؤوى الـ   لحن والحب فى كـؤوس الشعـور؟
وجــمــال ولا عــيـون تحـوك الـ   ـحبَّ مـنه لحُلُمــهـا المـسـحـور؟

ويـنـابيـعُ تـسـكـب الـسكّـر الـذا   ئبَ مـــاءَ وليس مـن عطـشـــان
وورودُ حــمــراء يحـتــرق العط   ـرُ عليـهـا فـى الجـدب والنسـيـان

ومهادٌ من الشذى رخصة العشـ ـب تذيع اخضرارها فى الفراغ
وعطور تظل تجرفها الأمـ ـطارُ فى عاصفِ الرياح الطاغى

كلُّ هذا العطر المبعثر ملء الأ رضِ ملء الحياة والآفاق
لم يعد يوقظ العروق التىَ أغـ ـفت عن اللونِ والسنا البراق

وانطوت فوق ذاتها ترقب الأيـ ـامَ مملوءةً أسى وملالا
الشعورُ العميق تدعوه وهماً وتسمى حب الجمال خيالا

هذه الأنفسُ الممزّقةُ العمـ ـياء، هذى المدافن الجوفاءُ
هدّمتْها مخالبُ الحربِ وامتصّـ ـت شذاها الدماءُ والأشلاءُ

وتبقت فيها مقابرُ للشر وللياس جهمة الآفاق
عكست بعض جدبها وأساها صرخات الفراغ ملء المآقى

أين تمضى هذى الملايين فى العتـ ـمةِ؟ ماذا يجرّها للمسير؟
ما معانى الألفاظ فى صمتها الـ ـمسكون بالحزن والرجاء الكسير؟

إنهم يقطعونَ أرض الأسى والـ ـجَدْبِ حيث الجمالُ لا يستقرُّ
حيث فكُّ الملال يبتلعُ الألـ ـوانَ حيث الذكرى ظلام وشرُّ

حيثُ يبنى الفراغُ عشّا رَمَاد ... يأ وينمى فيه الأذى والشقاء
وطيورا شوهاء حاقدة الأنـ ... ـغامِ مملوءةَ الصَدَى بغضاء

اشحبى يا غيومُ وانطفئى يا ... مقلة الشمس فى الفضاء الفسيح
ودعينا هنا مع النقم السو ... داء نهب السهاد والتبريح

فى دوى الرياح موكبنا يز ... حفُ نحو الضياء تحت الظلامِ
عاثراً بالأشلاء أشلاء من ما ... توا وأبقوا هياكلا من عظامِ

من بعيد خلف الغيوم التى تفـ ... ـغر فاها فى دربنا المجهولِ
ربّما لاح بارق كشراعٍ ... أبيضِ الوعد فى الظلام الثقيل

بعض دفء ناد يسيلُ على الأفـ ... ـق وراءَ الوهادِ والآكامِ
بعضُ كأسٍ تنال حافَتها البيـ ... ـضاءَ إغماءةُ الشفاهِ الظوامى

ذلك النبعُ بعد هذا السُّرَى العطـ ... ـشانِ بعد الصراع بعد الجراحِ
لو لمسناهُ لو غسلنا به كلّ ... أسانا ويأسنا الملتاحِ

ذلك النبعُ حيث نغمس شكوا ... نا ونَسْقى تعطُّشَ الأحلامِ
من جديدٍ نعيشُ تَعْرِفُنا الريـ ... ـحُ وتتلو نشيدَنا للغمامِ

من جـــديد يعــودُ يَبْنى لنا الـتــا ريخ فـى ظلّه الـفـــســيحِ مكـانا
وتقـــول الحـيـــاةُ إن لنـا ظلاً لنـا بعضَ قـــصّـــةٍ وكـيـــانا

إنـنا لـم نمرّ بـالعـــــالـم الميّـ ـت صَـــرْعَى ولم نـعش أمـــواتا
إنّ فـى ذكـــــرياتنـا وتـراً يخـ ـفقُ بالـضـوءِ إنّ فـيـهـا حـيـاةَ

ســتــقـولُ الحـيـاةُ إنّـا مــررنا ومــلأنـا الحـيـــاة شـعــراً وفنّاً
إن شـيـئاً منّا عـمـيـقاً سـيبـقى فى سكونِ الوجـــودِ لحناً يُغَنَّى

فى حفيف الأوراق تسحبـها الريـ ـحُ على الأرض فى وجوم الخريف
فى بروق الشــتــاء تقـتـحم الـليـ ـلَ وفى عــاصف الرياحِ المخـيـفِ

فى ارتشــاف الظلام للقــمـر الأبـ ـيض فى الصيفِ فى سكون المساءِ
فى أغــانى فـلاّحــتـين تجـوبا نِ مع الـفــجـــر دولـة الأنداءِ

ســتــقــول الحـيـــاة إنّا بحــثنا فى الديـاجيــرِ أشـهـراً وسنينا
عن رحـــيـقٍ مــغلّفٍ بالأســــاطيـ ـرِ جَــــهِلْنا وعـــاءَهُ المكنـونا

نحن نـدعــوه بالـســعـــادة لكن لـيـس منّا مـن ذاقَـــــهُ أو رآهُ
ذلك الـلُغْـــزُ، ذلـك الحُلْـمُ المحـ ـجوبُ خلفَ الضبـابِ أين تراهُ؟

فى أناشـيـدنـا يعـيش ضـبـاباً   تائهـاً فى مـدىً فـسيـحٍ عـريضِ
فى حـكايـاتنـا يَظَـلُّ أسـاطيــ   ـرَ ولُغْـزاً مـحـجّـباً بالغـمـوضِ

نتـغنّى به ونجـهـل مـا كُنْـ   ـهُ شـذاهُ وأين يحـيـا ضـيـاهُ؟
أهو جنيّـةٌ مـجـنَّحَـةُ الأقـ   ـدامِ تحـيـا فى عـالـم لا نراه؟

من حـريـر السـحـاب أثوابُهـا النا   عـمـةُ النَسْج من خـدود الزهور
من جَنَاح الـفـراش ملمسُ خـدّيـ   ـهـا ومن رقّـة الـشّـذى المسـحـورِ

مـقلـتـاها العـمـيقـتـانِ وجـودٌ   أزرقُ اللـون نـاعمٌ وُضّـاءُ
منهـمـا تنبُعُ السـمـاءُ ولون الـ   ـبحـر من نَعْسَتيـهمـا الأضواءُ

من غـبـار النجـوم جـدْرانُ مـأوا   ها الغـريبِ المَشـيـد فـوق الزمـانِ
فى مَكانٍ مـن الوجـود على با   بِ رؤاهُ يضـيـعُ حـدُّ المكانِ

وعلى رأسـهـا جـدائلُ بيض الـ   ـعطر مـن زنبق غـريـبِ الرُواء
أنبـتـتـه حـدائقُ الـقـمـر النا   ئى لـتلك الجنّيـة البـيـضـاء

ويداهـا المسـحـورتان تقـودا   نِ النجـومَ الشـقراء عبـر الفضـاءِ
وتسـوقـان ركب أحـلامنا الحـو   راءِ نحـو الضـيـاع والانطفـاء

تلكَ جنيّة السعادة فى قصـ — ـر بعيد يقومُ خلف الغيومِ
عنده تنتهى رغائبُنا الولـ — ـهى وأشتاتُ حُلْمنا المحطوم

وعلى سوره تصبُّ أمانيـ — ـنا وأشواقُنا ونارُ صبانا
فى انفعالٍ نَدُقُّ أبوابَهُ الصمّـ — ـاء والصمتُ ساخرٌ من أسانا

وهى تلك الجنّيةُ الفَظّةُ الوحـ — ـشيةُ القلب من بنات السّعَالى
ربّما اقتاتَ روحُها بصدى آ — هاتنا فى الفراغ ملءِ الليالى

ربّما شيّدتْ أريكتَها الفضّـ — ـيةَ النَسْج من حُطَام مُنَانا
ربّما لوّنت ملابسها الفجـ — ـريّة اللونِ من لهيب دمانا

وصداها ترويه من عَطَش السا — رينَ فى كل قفرة ربداءَ
وتغذّى نيرانَ موقدها من — كل حُلْمٍ نصوغُهُ ورجاءِ

هذه الربةُ النحاسيّةُ الإحـ — ـساسِ لو لانَ قلبُها الصخريُّ
لو أراقَتْ ضياءَها فوقَ هذى الأ — رض وافترَّ وجهُها الزنبقيُّ

لو حنَا سمعُها وأصغى إلى رَجْـ — ـع الأغانى المُسَوَّدات الرنينِ
يتلوّى الحنينُ فيها وينسا — بُ كأمواج جدولٍ مفتونِ

أرسلتـــهـــا حناجـــرٌ نـــسـيت أنَّ ... الأغـــانـى قـــد لاتـكون بـكاء
لم تعـــد تعـــرف العـذوبة فـاليـأ ... سُ حَـشَـاها خـشـونة وازدراءَ

آه اصـــــغى يا ربّـةَ الأفُـق المقـ ... ـفـود من ســتـرك الذى لا يُزاحُ
ربّمـــا لـم تزل حـناجـــرنـا تمـ ... ـلكُ لحناً لم تبـــتلعْـــهُ الجـراحُ

وانظرى من ضباب قـصرك من لُغْـ ... ـزك من صـمـت جوِّك المجـهولِ
أرسلى نظـرةً كـمــا يعـبـرُ البـر ... قُ إلينا من جَـفْنك المعــسولِ

نحـن جـــئنا بيـــأسنا بأمـــانـيـ ... ـنا بـأشـــلاء أمــسنا المـدفـــونِ
الملايينُ مُـــرْسِـلين مع الأحـ ... ـزانِ حُلْـمَ المسـتـقـبـل الموهونِ

نداء إلى السعادة

يا ضباباً من الشذى الشفّافِ
يا جمالاً بلا حدودْ
يا رفيفاً معطّراً فى ضفافِ
ليس يدرى بها الوجودْ

أين تحيينَ فى شغافِ الغيومِ
حيثُ لايبلغُ الخيالْ؟
أم تجوبينَ فى بحار النجومِ
زورقاً يعبُدُ الجمال؟

أسدلى شَعْرَكِ الطويل الطرّيا
خُصُلاتٍ من الحريرْ
وأريقى اشقرارَها الغيميّا
يفرش الكونَ بالعبير

وأزيحى أهدابَك العَبِقات
عن أساطيرِ مقلتينْ
ملء لونيهما اندفاعُ حياة
وائتلاقاتُ كوكبينْ

يا جبيناً ملوّناً بالمعانى
حجبتْ سحرَهُ الغيومْ
يا عبيراً نشوانَ بالألحانِ
يا خدوداً من النجومْ

من ضبابِ الرؤى إلينا إلينا
قبل أن نُزْمعَ الرحيلْ
وابسطى ظلَّك الحنونَ علينا
ظلَّك الدافئَ الجميلْ

نحن فى ميْعة الصباحِ سنمضى
قبل أن تفرَغَ الكؤوسْ
وركابُ الديدان فى كلّ أرضِ
لم تزل تحفرُ الرمُوسْ

ووراء السياج ينعَقُ بومُ
ملءِ عينيه أحجياتْ
رنَّ في صوته الصَدَى المشؤومُ
دون أن تعلمَ الحياةْ

والسكونُ العميقُ ملءالوجودِ
جامدٌ يرصُدُ الحياه
يتغذى بكل لحنٍ سعيدِ
لَمَسَتْ عطرَهُ الشفاهْ

وزهور الحقول تحمل سرّاً
بذرةَ الموتِ والذبولْ
لحظةً في الصباح تقطُرُ عِطرا
ثم يمضى بها الأفول

وكؤوسُ الهوى المعطرِ تَسْقى
عسلَ الحبّ لحظتينْ
يختفى بعدها الرحيقُ ويبْقى
فى فمِ الكأسِ غُصَّتَيْنْ

وارتعاشُ الظلالِ فوق السواقى
سوف يمضى به الشَفَقْ
والجمْالُ الذى يُظِلُّ المآقى
ربّما غاله الأرق

والأغاريدُ قد يرنُّ صداها
لحظات مع الصَبَاحْ
وزهورُ المروجِ عُمْرُ شذاها
ليس أبقى من الرياحْ

نحن نحيا فى عالمٍ من ظلالِ
عابرٍ نَسْجِ عنكبوتْ
كالعصافيرِ فى ربيعِ الدوالى
نتغنّى لكى نموتْ

فامنحينا رؤياكِ قبلَ الرحيلِ
يا ابنة الحبّ والخيالْ
لحظة عند نبعك المعسولِ
نغسِلُ اليأسَ بالجمالْ

علّنا من رحيق عينيك نَسْقى
عَطَشَ الروحِ والشفاهْ
وعلى مُلتَقَى سواقيك نُلْقى
عبءِ ما شَجَّتِ الحياةْ

علَّنا بازْرقاقِ عينيكِ نبنى
من جديد لنا سماءْ
علَّنا باشقرارِ شَعْرِكِ نُفْنى
سطوةَ الليلِ والفَنَاءْ

آه مُدِّى يديك مدّى يديكِ
كلُّ شيء هنا يضيعْ
وانبجاسُ النعيم من شفتيكِ
كيف نُبْقيهِ للربيعْ؟

وهنا تغربُ النجومُ وتَذْوِى
فى الدُجَى رقصةُ القَمَرْ
وكؤوس الأزهار فى الحق تَهْوِى
هكذا يحكمُ القَدَرْ

فى شعابِ الظلام نبقَى نسيرُ
أين أوآهُ تهربينْ؟
قصرُكَ الزئبقىُّ أينَ يغورُ؟
كلَّما كاد أن يَبينْ

فيمَ، كالماء فى رمال الصحارى،
لَحَظات وتَنْضَبينْ؟
كشُرُوقِ الهلال، كالأزهارِ
كخيالاتِ حالمينْ؟

ولماذا، إن جئت بعد العذابِ،
يقتفى خطوَكَ القلقْ؟
فيحسَّ الفؤادُ ظلَّ اكتئاب
كغيوم على الأُفُقْ؟

وذراعاكَ فيم بالسُّمّ تَهْمى
حينما تملأُ الكؤوسْ؟
كلُّ كأس وفيه قطرةُ همٍّ
ما زجتْ نشوةَ النفوسْ

كلُّ لونٍ تعيش خلفَ صفائه
ظلمةٌ تأكلُ الجمالْ
كلُّ حبٍّ يضمُّ خلف انتشائه
بذرةَ الموتِ والزوالْ

اهبطى يا أنشودةَ الحالمينا
من فَضَاكَ المورَّد
وامسحى مرةً صدَى الظامئينا
فى دُجَىً ضائعِ الغدِ

وسنبنى هنا معابدَ بيضا
فوق أرضٍ من الرجاءْ
غسلتْ صدْرَها الفسيحَ العريضا
أدمعُ اليأسِ والشقاءْ

علَّنا مرةً نذوقُ شذاكَ
بعد هذا الصَدَى الطويلْ
والشفاهُ الظمأى لشَهْد نداكَ
تلمُسُ الكوثَر الجميلْ

•••

فى غبـار الحيــاة، فى مَزْلق الأيـ ـام فى كـل مـعــبــرٍ مـــسكونِ
رنَّ هذا النشـيــدُ مُخْـتلج التـر ديد نـشــــوانَ بالأسـى والحنـينِ

وشَـدَتـهُ القـرونُ منذ رأى الفـجـ ـرُ بعــينىْ حـــواءَ أولَ حُـــزْنِ
منذُ رنَّتْ فـؤوس آدم فى الصــخـ ـر ولم تَـبقَ فـســحــةٌ للتــمنى

منذُ مــرّت قــوافلُ البـشــر الأو لى وعــمــرُ الـوجـود بضـعُ سنينِ
عـبـروا يـحـثـون عـنهـا عن الجنّـ ـيّــةِ الزئبــقـيـــة التكـوين

باسـمـهـا يحـرثون من أجل عـينيـ ـهـا أحبّوا حتّى أكتئابَ الرحـيل
ثـم مـــــاتوا وأوْرثـونـا هَواهـا وخـفــايا كـيــانِهـا المسـتحـيلِ

حــدّثونا عنـهـا فــقــالوا فـتــاةٌ غَـمَسَتْ فى الحرير شـوق صبـاها
ليس تَقْــوى على الحـيـاة إذا جـا عتْ إلى رقّــةِ القــصـــور رؤاها

فــهى لـلأغنيــاء تبــسـط من أهـ ـدابهـا الـناعـمـات ألفَ خـمـيلِ
وعلى شـعـرها العـبـيرى يقـضـو ن ليـاليـهــمـو كـحلم جـمـيلِ

ثم قــالـوا جنيـــة تتــبع الـرهـ ـبـان والزاهـدين حـيـث أفـاءوا
مـثلَهـم تعشقُ السكونَ ويـرضيـ ـهـا مكانَ النعـيم خـبزٌ ومـاءُ

من تـراتيلهم تشـيّـد مـأوىً ظـلـلـتـــــهُ سكينـةٌ ديـريـه
من بَخـور الكُهَّـانِ جـدرانه الـبيـ ـضُ ومن خـشعـة الشمـوع النقيّـه

وســـواهـم يظـنّهـــا ربّةَ الـريـ ـف وبـنت الـذرى وأخت الـوهادِ
ليس يروى إحسـاسَـهـا غيـرُ جـوٍّ أثقلـتْ عطرَهُ أغـانـى الحـصـادِ

من كـؤوسِ الأزهار حـمرةُ خـدَّيـ ـهـا وتأوى إلى بيـوتِ الفـراشِ
وتغنـى لهـا النواعـيـرُ والشـمـ ـسُ إذا قــبَّلَتْ ذُرى الأحــراشِ

وســواهم يروى الحكـايات عنهـا كـيف تحـيـا فى عـالم النغـمـاتِ
من بـكاء الأوتـار تنسجُ أُرْجـــو حَتَـهـا الكوكـبيّـة الرَعَـشـاتِ

ويقـــولون إنَّ مـسكنهـــا الأعـ ـلى خيـالاتُ شـاعـر مسحـورِ
ظَلَّلـتْ روحَـهُ جـدائلُهـا الشُـقْـ ـرُ وأسـرارُ طرفـهـا البَلُّورى

وقلوب تَظنُّهـــا ربَّة الحبّ تصبُّ الرحـيقَ للعـشـاقِ
ويقـــولون إنَّهـم شــهــدوها تسكبُ الظلَّ فى هَجيـر الفـراقِ

ورأوها تهشُّ في مقلتي (قيـ ـسٍ) مع الدمع والضبابِ الثقيل
وأحسّوا اكتئابها المَرِحَ الرا قصَ في حزن (توبةٍ) و(جميل)

ومئاتٌ تُحسُّها في شفاه الـ ـكأسِ في غمرةٍ من الهَذَيانِ
في ضَبابِ الجنونِ، في دولة الأجـ ـسادِ في عالمٍ من الأدرانِ

ومئات ترجو العثور عليها في زوايا النفوس خلف دجاها
في دروبٍ دكناءَ يَجْهَدُ ضوءُ الـ ـقمرِ الطفلِ أن يَمسَّ ثراها

في خفايا مغمورةٍ عنكبوت الـ ـشر ألفَى فيها سريراً مريحا
وركاب (السيرين) آوت إليها والثعابين أثقلتْها فحيحا

صلاة إلى بلاوتس

(إله الذهب)

من ضفاف الدُجَى الأُخَرْ نحن جئناكَ لاهينْ
واقتفينا خُطَى القَمَرْ فوق أرضٍ من الإبرْ
في دياجيرَ من أنين

الصحارى رمتْ بنا في متاهاتها الغلاظْ
رملُها في جلودِنا في حنايا جفونِنا
لم يزل يسكبُ الشواظ

والأعاصيرُ والرياح تركتْ في جباهنا
من سكاكينها جراحْ وأراقت مع النواحْ
مِلْحَها في شفاهنا

كلّما رقرقَ الكلالْ بحّةَ الموتِ في نشيد
وحَنَتْ أذرعُ الرمال فوقَ أجسامنا الثقالْ
عبئَها الساحقَ المبيدْ

رنَّ فى أُفْــــقنـــا صَـــدَى ‏ مـن رنيـنِ اســـــمك الأحـبْ
فـــمــــضــيـنا إلى المَـــدَى ‏ فـــى صـــراعٍ مـع الــــرَدَى
باسم مـــعـــبـــودنا الـذهب

هكذا يـمّـمـوا إلى الـشـرق آلا ‏ فـا جـيـاعـاً للمنبع المزعـومِ
يقطعـون الآكـامَ ترسيـهمُ الصحـ ‏ ـراءُ مـن حـيـرةٍ ليـأسٍ ألـيم

ضَلـلتـــهـم أسطـورةٌ عن مـكانٍ ‏ خلفَ بعضِ الجبـالِ فى حضن وادِ
حيث يجـرى نهرٌ من التبر مـسحو ‏ رٌ طوتْ سـرَّهُ صـخـورُ الوهادِ

قـطرةٌ مـنه تمـنحُ الـكفَّ لمســـاً ‏ ذهبيَّ التـأثـيـر فـى الأشـيـاءِ .
والـزهور الـتى تحـفّ بشـطّيــه ‏ شظـايا كـــواكـبٍ بيـــضـــاءِ

أين هذا الوادى؟ وضجَّ فضاءُ الصـ ‏ ـمتِ والليل والمدى بـالســؤالِ
أين هذا الوادى؟ وسـاروا يجـرّو ‏ ن قـيـوداً مـن الرِّغـابِ الـثـقـالِ

فـى سكـون يـلوذ كـلٌّ بســـرٍّ ‏ ذهـبىّ الـوشـــاحِ والـتـلويـن
حـــالماً فى الظـلام بالجــدول المو ‏ عـودِ فى عـاصفٍ عـمـيـق الحنين

من خيالاته يصوغ على الأفـْ ـق قلاعاً فضِّية الأبوابِ
وبلادا وديانُها تُنبتُ التبـ ـرَ مكانَ الأشجار والأعشاب

ومكان الفراش تسرحُ أطيا رُ رقاق تبرِيَّة الأبدان
ومكان القطيع تحيا وعول مترفات فضية السيقان

فى خفايا هذا المكان الخرافى أساطيرُ قلعة مسحوره
من تراث الإغريق شيدها (فلـ كان) سرا فى أعصر مطموره

وبناها على رَوَابٍ من المعـ ـدن منحوتة الذُرَى سوداءَ
ناعمات على مزالقها تصـ ـقلُ (فيكا) خدودها الملساءَ

هى برجٌ عَلَتْ حواليه أشجا رٌ ضخامٌ تَمَسُّ أفقَ النجومِ
ونَمَتْ فى أنحائه الكوكبيّا تِ أساطيرُ عن زمانٍ قديمِ

ويقولون إن جدرانها الغا مضة اللونِ من لآلى البحارِ
جمعتها عرائسُ الماءِ من أعـ ـماقِ بحرٍ مُطَلّسم الأسرارِ

ويقولون إنّ أبوابَها المُقْـ ـفلةَ الصمتِ فوق أروعِ سرٍّ
نُزِعتْ من جُدْرانِ قصرِ سميرا ميسَ فى ليلِ بابلٍ ذاتَ عصرِ

والقبابُ الضخامُ من خَشَبِ الجو ... ز الشـذيِّ المعطَّرِ الألواحِ
من شِعابِ الهندِ الملفّعةِ الغا ... باتِ بالذكرياتِ والأشباحِ

هذه القلعةُ الضبابيةُ الشكـ ... ـلِ إليها يضيعُ خطوُ الساري
ليس يدري مكان سلّمها العا ... لي رواةُ الألغازِ والأخبارِ

ليس يدرونَ كيف يبلغُها سا ... كنُها الصامتُ الغريبُ الطباعِ
ذلك الأعرجُ البطيء الخطى يَسْـ ... ـبقُهُ النملُ - إن مَشَى - والأفاعي

٥

ذلكَ العاجزُ الكفيفُ الذي يَمْـ ... ـنحُ من لا يَرَى كنوزاً ضخَاما
ليس يَعْنيه أن يُسَلّمها شيـ ... ـخاً بخيلاً أو قاتلاً أو غلاما

ذلك الشيخ، كيف يصعَدُ أين الـ ... ضبابُ؟ أينَ السلالمُ السحريّه؟
أتراهُ -كما يقولونَ- يؤوي ... بين جُدْرانِ قصرِهِ جنّيه؟

شعرُها -هكذا رَوَوْا- باركَتْهُ ... من قنانِ (الأولمب) أيدٍ خفيّه
فنما كالحياةِ ثَرّاً غزيراً ... أبديَّ المسيلِ كالأبديّه

ونما كالضياء كالبحرِ يمتدّ ... سحيق السواد دون انتهاءِ
إن أرادتْ شَدَّتْ به القَمَرَ النا ... ئي إلى الأرضِ أو إلى الجوزاءِ

ذلك الشَــعْــرُ ربّـمــا أرسلـتْــهُ   سلّـمــاً للـضـريـر كلّ مــســاء
يتـــخطّى علـيــهِ مــرتــعشَ الخَطْ   ـوِ مـــراقى تـلك الرُّبى الملســاءِ

أرسلى يا طـويلةَ الشعـر يـا سمـ   ـراءُ إحـدى الجدائـلِ المسحـوره
وارفـعى الهـائمـيـن بالذَهَب البرّ   اقِ من هــذه الوهادِ الـكسـيــره

أو أطلى يومــاً بوجـهك، بالفـتـ   ـنة والصـمتَ فى مَـدَى أحـداقكْ
وأعـيـدى على الجمـوعِ أقـاصيـ   ـصَ عن الهــالكينَ من عُــشَّـاقك

حــدِّثيـــهم عن ذلك الملـكِ الغـا   برِ (ميداس) كيفَ كـان مصيرُهُ؟
أين سـاقَتهُ شـهـوةُ الذهبِ العـمـ   ـيـاءُ مــاذا جَنَى عليــه غــرورُهُ

جُنَّ بالتـبـر لم يـعُـدْ يعـشق الأنـ   ـجـمَ إلاَّ إن أذكـــــرتْهُ سَـنَـاهُ
وازرقـاق الغـيـومِ والبحرِ مـا عـا   د مـــشــيـــراً لحــبِّـــه ورؤاهُ

واخـضـرارُ الجبـال أصبحَ يؤذى   روحَـــــهُ، والـزهورُ لا تَـرْويـه
فـهـو عطشـانُ يدفـعُ الذهبُ الوهـ   ـاجُ أحـــلامَــهُ إلى ألف تيـــه

ودَّ لو حـــولَ الخـــدودَ وأهدا   بَ العيــونِ الكحـلاء تبراً نـقيّـا
واشـقـرارَ الآفاقِ، والشـفَقَ الخـجـ   ـلانَ والشـوقَ نائمـاً فى مُـحـيَّـا

والشفاهُ الحوّاءُ ينضَحُ منها الدِّ فءُ كم ودَّ لو تحوّلن سرّا
ذهباً تجمدُ الشفاهُ عليهِ قُبَلاً كالرخامِ يقطرن تبرا

حدّثيهم وكيفَ ذاتَ مساء كان (مَيْداسُ) لاهثَ المقلتينِ
يلمسُ الكنزَ فى انفعالٍ جنونيٍّ وفى كفِّه لَظَى شفتَيْنِ

وأزاح المساءُ سِتْرَ دجاهُ عن صبيٍّ من عالَمِ الأطيافِ
فى استداراتِ وجهِهِ المخْمليّ الـ لونِ إبراقُ مَنْبَعٍ شَفَّافِ

وعلى رأسه جدائلُ شعرٍ ذهبيٍّ يغار منه الفتونُ
وسماء فى مقلتَيْهِ من الزُرْ قةِ والعُمْقِ لم تنَلْها عيونُ

«عِمْ مساءً» وأجفل الملكُ الشيـ ـخُ وماتَ البريقُ فى عينيهِ
غير أصداءِ بحّةٍ حشرجتْ وانـ ـطلَقَتْ صرخةٌ على شفتَيْهِ

أيُّ باب قادتْ خُطى الوافد المجـ ـهول؟ هل جاءَ من شُقُوق الجدارِ؟
أم تَرَاهُ خيالةً جسّدتْها فتنةُ الكنزِ وائتلاقُ النُضَارِ؟

«عِمْ مساءً ميداسُ» مَنْ أنت ماذا تبتغيه فى قبوىَ المجهول؟؟»
وأجاب الطيفُ الكريمُ: «أنا أمـ ـلك تحقيقَ كلِّ حُلمٍ جميلِ

أنا ربّ التـــمنّيــات شـفـــاهي ... تملكُ المســتـــحـيلَ والأبـعـــادا
في ذراعيَّ قـــدرةُ الخَلقِ لو شـئـ ... ـتُ لحـــوّلتُ كلَّ حيٍّ جَـــمَـــادا

ملء كــفّي الورودُ والذَهــبُ الوهـ ... ـاجُ والـلونُ والشَــبَــابُ الـطريُّ
كلَّ مـا شئتَ فاقـتـرحْ تهبط الأفـ ... ـلاكُ والأُفْـقُ والسَّنا الـكوكـــبيُّ»

أرأيتَ الأغـصانَ في قَبْضـة الإعـ ... ـصـــار تهـتـــزُّ وردةً بعــد ورده؟
أرأيتَ الـنعـــيم في قـلب رحّـــا ... ل سنـينٍ واتـاهُ حُلْـم العـــــوده؟

هكذا لـوّن الحـــمــاسُ خــدود الـ ... ـملك الغـــرِّ وهو يـســمـعُ هذا
وجـثـا ضـارعـاً وصـــاحَ: «حنانيـ ... ـكَ مـلاكي مـــاذا سؤالُكَ مـــاذا

أعط هذي الـيـدَ المشـــوقـــةَ لمســاً ... ذهبـيّـــاً وقـــوّةً من ســـحْـــر
دع ذراعـيَّ لا تَمَـــــسَّـــــان إلاّ ... لتُــعــيــدا الأشـيــاءَ عـالَم تبــرِ

إيهِ مـيــداسُ، أيّهــا المـلكُ الأحـ ... ـمقُ مـــاذا جنيــتَ؟ أيُّ غــرورِ؟
ارقبِ الآنَ مطـلعَ الفــجـــرِ وانظر ... كـيف عُــقْـبَى خـيـالـكِ المغـرورِ

في غـد تستـحـيلُ أشجارُكَ الحيـّـ ... ـةُ تـبـــراً تعـــافُـــه الأنداءُ
وســواقي الميــاه تجـمــدُ صَفْـرا ... ءَ كـصـــحـراءَ جفَّ فـيـهـا الماءُ

ودمـوعِ النَدَى تعــود حَـصَىً صُلْـ   ـبــاً ولـينُ الورودِ يُصْــبحُ صلدا
ورحـيقُ الكرومِ يجـمدُ كـالصَـخْـ   ـر ودفـءُ الأعـشـاشِ يُصْبح بَردْا

وحــريرُ الســتــائر اللُدْن يغــدو   جــامـــداً لا ليــونةٌ لا انثـــيـــالا
و(نهــاونـدُ) بتلُك العـــذبةُ الجــذ   لى ســــتــــغــدو فى لحظـةٍ تمثــالا

هكذا تـنتــهى خــيــالاتُكَ التــبـ   ـريَةُ الصُــفْـــر للأسـى الأبدىِّ
فـاشــربِ الآن خـمـرةَ النـدمِ البـا   ردِ واسـكَـرْ بـحُـلْـمـك الـذهـبـىِّ

أنشودة الرهبان

نحنُ بالأمسِ تركنا صِبَانا ... ووهبنا للسماءِ هوانا
ودفناً كلّ حبٍّ عميقٍ ... فى مكان لا تعيه رؤانا
ولففْنا فى ذهولٍ أبيدٍ ... كلّ درب قطعتْهُ خطانا
وأصرنا للسكونِ نشيداً ... بشريّاً كان ملءَ منانا

لا تَسَلْنا عن طَرَاوة أمسِ ... عن معانى ألف كأسٍ وكأسِ
عن عيونٍ مرحات الأمانى ... نثرت فى عمرنا دفءَ شمسِ
عن شفاهٍ فى برودةِ فجرٍ ... مَطَرىٍّ الصمتِ لمياءَ لُعْسِ
عن خدودٍ دافئاتٍ عذابٍ ... كخدودِ الوَرْدِ رقّةَ لمسِ

نحن ضيّعنا روابىَ حُلْوه ... ودفَّنا الحبَّ فى كلِّ ربوه
ثم تهنا فى مسالكِ حُلْمٍ ... وأفقنا عند حافةِ هوّه
وشربنا اللونَ والعطرَ حتى ... عادت الكاساتُ تَنْضَحُ شقوه
فأتينا الدير صَرْعَى حَيَارَى ... علَّ فى ديجورِهِ بعضَ سلوه

هذه يا حياةُ مملكةُ الرهـ ... ـبانِ فى عزلة وفى اكفهرارِ
دفنوها وكاد ينسَى رعايا ... ها الحَيَارَى حتى ضياءُ النهارِ

شـيّدوها مـن كلّ لفـتـةِ شـوقٍ		في العـيـون الحـبـيـسـة المحـرومـه
وسـقـوا أرضـهـا الجـديبـة من بر		كـانِ تلكَ العـواطفِ المكـتـومـه

وحَـمَـوْها من أن تغـازلَهـا الشـمـ		ـسُ بـألوانـهـا وليـنِ شـذاها
وأبوا أن يـلامسَ القـمـرُ المُـنْـ		ـفـعـلُ الضـوءِ في المسـاءِ دجـاها

وتمنّوا ألاّ تمرَّ بـهـا ريـ		ـحٌ عـبـيـريّةُ الصَدَى والنشيـدِ
فـشـفـاهُ الرياحِ تـكمن فـيـهـا		قُـبَلٌ عـذْبـةٌ وذكـرى خـدودِ

وتمنّوا أن يُقْـفلَ الليلُ عـينيـه		وتخـبـو نجـومُـهُ الـسـحـريّه
فـعـيـونُ النجـوم تُغْـوى بأهدا		بِ حـريريّةِ الرؤى قـمـريّة

وهم يمـقـتـون أن تشـرب النحـ		ـلةُ شـهـدَ الأزهار كلَّ صبـاحِ
فـرحيـق الورود في شرعـهم خـمـ		ـرٌ تُـريقُ السُـمـومَ في الأرواحِ

والعطـورُ السكرى ألم تنبعِ الأحـ		ـزانُ بعـد ارتشـافـهـا والجـراحُ
إنّهـا كـالنبـيـذ تُسْكِرُ تُذْكى		من حنين الجـمـالِ مـا لا يُبـاحُ

وغـنـاءُ الـقـنـابـرِ الـذاهـلَ المبـ		ـهـورُ -في عـرفـهـم- نداءُ خطايا
في ثـنايـاه آهةٌ كـسّـرَ الحبُّ		صـداها وفـيـه نجـوى صَـبَـايا

وخــدودُ الفـــجــر الموردَّةُ الـنا ... عـمـةُ الدفـء والشَـذَى والرحـيقِ
حــرَّمـوهـا فـقــد تمرُّ علـى الزهـ ... ـدِ فتُـصْحيـهِ من سُبَاتٍ عـميقِ

وأقــامــوا ســوراً لـيـمنعَ عـنهم ... كلَّ ذكــرىً من كلِّ أمسٍ بـعـيـد
وأرادوه حـــارســـاً يـطرُدُ الـعطْـ ... ـر ويَحْـمى مـن النسـيمِ البَـرُودِ

وأبـاحــوا أيّامــهـم لـيــد الصــمـ ... ـت الرصـاصـيةِ العـروق الثـقـيله
وأقــامـوهُ حــاكـمــاً مـخـلبيَّ الـ ... ـحكمِ لاذت به المُنَى المقـتــوله

إنه الـديرُ فـــيــه يـتــصـــرُ المو ... تُ وفى قـــبـــوه يعـــيش الآهُ
فى خـــفــاياه، فــى ممرّاتِهِ الســـو ... د الحـــزينات لا يعـــيش الـلهُ

مـسكـنُ الصمتِ والكـآبة والجَـدْ ... ب ومــأوَى الـرغــائب المدفـــونه
وصـراعٌ مـع العـواصفِ تُصْـحى ... نارَهُ أذرع الـلـيـــالى الـلعـــيـنه

ذلك العنكبـوتُ ذو الأرجُلِ الفظّ ... ـةِ هـل منه مـــهـــربٌ أو مـــلاذُ
إنه مـن دمــــائهم يتـــغـــذَّى ... وهو من قـلب أمْـسِـهـم أفـلاذُ

إنه حـــبُّـــهم يـعــود إلـيـــهمْ ... يـنسِجُ الذكـــريات والأهـواءَ
لا تـطيـق الأســـوارُ ردَّ خُطاهُ ... فـهــو قـد خـالطَ الـرؤى والدمـاءَ

وهو حيناً عينانِ صافيتا اللو ... نِ كأعماقِ بركةٍ صيفيّه
أو شفاهٍ من قعرِ حُلمٍ بعيدٍ ... أو يدٍ للدنةِ البياضِ شهيه

ذلك العنكبوتُ كم عادَ وجهاً ... عكستْهُ للراهبينَ الكؤوسُ
إنَّه وجهُها، أينسَوْنَ؟ هذي ... ربّةُ الدير، هذه تاييسُ

أغنية تاييس

من خيوطِ الضوءِ أرديتي ... ومن الأزهارِ ألواني
الهوى المبهورُ في شَفَتي ... عصرتْهُ كفُّ شيطانِ
ولهاثُ الورد أغنيتي ... وخفايا عالمٍ ثانِ

وخدودي مُخملٌ لَدْنٌ ... بقَعتْهُ حمرةٌ خجلى
من شذاها ينبُعُ اللونُ ... ويرُشُّ الوردةَ الجَذْلَى
وأنا اللذَّةُ والأمنُ ... للرياح العَذْبَةِ الكَسْلَى

وشفاهي ها هنا اللينُ ... ورؤىً صيفيةٌ لَدْنَه
إنها إن شئت سكِّين ... وإذا شئتُ رُقَى فتنه
وذراعايَ أفانين ... فيهما النشوةُ واللعنه

من قديمٍ عَشِقَ الديرُ ... ضَحِكاتي واستطاب اسمي
ذكرياتٌ ما لها غَوْرٌ ... رَسَخَت في الدمِ والعَظْمِ
أأنا النقمةُ والشرُّ ... لم يُضنيكم إذنْ رسمي؟

راهـبُ الأمـس أنـنـســــاه؟ كـيـف أشـعلـتُ أحـاسـيـسَـهْ؟
مـــا حـــيـــاةُ الدير؟ مـــا الـلهُ؟ إن أنا أصـــبـــحتُ تايـيـــســـهْ
وهَـوَى فـي ركـبٍ مـن تـاهـوا وهـبطـتُ الخُلْدَ قِـــدّيـسـهْ

أغنية للإنسان

- ٢ -

"نظمت هذه القصيدة عام ١٩٦٥ عدا الأبيات المنسوخة

من مأساة الحياة فى القسم الأول من القصيدة"

عَبثاً تَحْلُمين شاعرتي ما
من صباحٍ لليلِ هذا الوجودِ

عبثاً تسألينَ لن يُكْشَفَ السرُّ
ولن تنعمي بفكِّ القُيودِ

في ظلالِ الصفْصافِ قَضيْتِ ساعا
تكِ حَيْرى تُمضُّكِ الأسرارُ

تسألينَ الظلالَ والظلُّ لا يعـ
ـلَمُ شيئاً وتعلمُ الأقدارُ

أبداً تنظرينَ للأُفُقِ المجـ
ـهولِ حيْرَى فهل تَجَلَّى الخفيُّ؟

أبَداً تسألينَ والقَدَرُ السا
خرُ صمْتٌ مستغلقٌ أبديٌّ

فيمَ لا تيأسينَ؟ ما أدركَ الأسـ
ـرارَ قلبٌ من قبلُ كي تُدْركيها

أسفاً يا فتاةُ! لن تفهمي الأيـ
ـامَ فلتقنعي بأن تجهليها

اتركي الزورقَ الكليلَ تُسيِّرْ
هُ أكُفُّ الأقدارِ كيف تشاءُ

ما الذي نلتِ من مصارعَةِ المو
جِ؟ وهل نامَ عن مناكِ الشقاءُ؟

آهِ يا من ضاعتْ حياتُكِ في الأحـ
ـلامِ ماذا جنيتِ غيرَ الملالِ؟

لم يزَلْ سرُّها دفيناً فيا ضَيْـ
ـعةَ عُمْرٍ بذلتِهِ في السؤالِ

هو سـرُّ الحـيـاة دقَّ عـلى الأفـ ـهـامِ حـتى ضـاقتْ به الحُـكَمـاءُ
فـا يأسى يا فـتـاةُ، مـا فُـهِـمَتْ من قـبـلُ أسـرارُها فـفـيمَ الـرجَـاءُ؟

جـاء من قـبلِ أن تجيئى إلى الدنـ ـيـا مـلايـينُ ثم زالـوا وبادوا
ليتَ شِـعـرى مـاذا جَنَوْا من ليـاليـ ـهِمْ؟ وأيـن الأفـراحُ والأعـيـادُ؟

ليـس منهم إلا قـبـورٌ حـزينا تٌ أُقـيـمت على ضِـفـافِ الحـيـاةِ
رَحَلوا عن حِـمى الوجـود ولاذوا فى سـكونٍ بـعـالَمِ الأمـواتِ

كم أطافَ الليلُ الكئيبُ على الجوِّ وكـم أذعـنـتْ له الأكـوانُ
شَـهِـدَ الليلُ أنّـه مـثلمـا كـا نَ فـأيـنَ الذين بالأمسِ كـانوا؟

كـيـف يا دهرُ تنطفى بين كـفَّـيْـ ـكَ الأمـانى وتخـمـدُ الأحـلامُ
كـيفَ تذوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويعـيـشُ الظـلامُ وهو ظـلامُ؟

كـيف تحـيـا الأشـواكُ والزَهَرُ الفـا تنُ يَذْوى فى قـبـضـةِ الإعـصـارِ
كـيف تمضى إلى الـفَناءِ الأناشـيـ ـدُ وتَبْـقَى سُـخـريّـةُ الأقـدارِ

حـدّثـى القلبَ أنـتِ أيتـهـا المأ سـاةُ يا من قـد سُـمِّيَتْ بالحـيـاةِ
ما الذى تصنعين بى فى الغدِ المجـ ـهـولِ؟ ماذا ترى مـصيرُ رفُـاتى؟

أيّ قبرٍ أعددتِ لى؟ أهو كَهفٌ ... ملءُ أنحائه الظلامُ الداجى؟
أم ترى زورقى سيغرَقُ بى يو ... ماً فأثوى فى ظلمة الأثباجِ

وغرامى بالسرِّ يصرُخُ من أيـ ... ـنَ؟ إلى أين؟ ما مصيرُ حياتى؟
وأمامى أفقٌ من الصمتِ والألـ ... ـغازِ ضلّتْ فى تِيْهه خُطُراتى

لهفتى يا حياةُ كم تلعبُ الأو ... هامُ بى كم يؤودُنى التفكيرُ
أبداً أسألُ الليالى عن المو ... تِ وماذا ترى يكونُ المصيرُ

طالما قد سألتُ ليلىَ لكن ... عزَّ فى هذه الحياة الجوابُ
ليس غير الأوهام تسخر منى ... ليس إلا تخبُّطٌ واضطرابُ

هل فهمتُ الحياةَ كى أفهمَ المو ... تَ وللموتِ صمتُ قلبٍ ضنينِ
لم يَزَلْ عالَمُ المنيّةِ لُغْزا ... عزّ حلاً على فؤادى الحزينِ

فليكن يا أيّامُ لن أسألَ الليـ ... ـلَ عن السر فاحكُمى كيف شئتِ
امنحينى عُمْرَ الزهور فلن أبـ ... ـكى ومُدّى الحياةَ لى إن رَغِبْتِ

ولماذا أبكى؟ وهل يردع الدَّمْـ ... ـعُ المنايا؟ وهل يُحسُّ القضاءُ؟
لن تزيدَ الدموعُ يوماً على عُمْـ ... ـرى غداً رقْدةٌ غداً انطفاءُ

ولو أنّى أحــبــبتُ مــوتــى ونـاديْـ   ـتُ دُجــاهُ بــأجــملِ الأســمــاء
هل يُجيبُ الـمـماتُ رغبتىَ الحـرَّ   ى ويأتـى ملبِّــيــا لنـدائى؟

هكذا جـئتُ للحــيـاة ومـا أد   رى إلى أينَ سوف تمضى الحيـاةُ
وسأحـيـا كـمـا يشـاءُ لىَ المجـ   ـهـولُ قلباً حـفّتْ به الظُّلُـمـاتُ

هكـذا، مـا يُريـدُهُ القَــدَرُ المَـحْـ   ـتــومُ لا مــا تُريدُهُ آمــالى
سَـيَّـرتنى الحـيـاةُ أين ترى مَـرْ   سَى سـفـينى وعند أيِّ رمـالِ؟

لم أزَلْ ملْكَ حَـيْـرتى وذهولى   بينَ مــاضٍ ذَوَى وعُـمْـرٍ يَمُـرُّ
لستُ أدرى مـا غايتى فى مـسيرى   آه لو يـنجلى لـعــينىَّ سِــرُّ

لم أزَلْ اقــتُلُ الليـالىَ بحـثـاً   عن ديار الـسَـعَـادة البَـشَـريّه
دون يأسٍ بـحـثـتُ دون كـلالٍ   فى قِــفــارٍ ممتــدّةٍ أبَدّيـه

يا ديارَ الأحـلام يا شـاطئَ الغبـ   ـطة يـا من يضُـمُّك المجـهـولُ؟
لم أعُـدْ أستطيعُ أن أُسكتَ الشَـوْ   قَ فكَيف الوصولُ؟ كَيف الوصولُ؟

كل شىء حـولى يحــدّثُنى عَـنْـ   ـك ولكن مـتى يَحـينُ اللقـاءُ؟
فـاحـملينى إليكِ من قـبلِ أن يَهْـ   ـوِى شِـراعى وتـصـخَبَ الأنواءُ

ودعـــينى أعـــرفْكِ مـــا أنت؟ حقٌّ   وعِــــيـــانٌ وواقعٌ مـــشـــهـــودُ؟
أم ترى أنــتِ مـــحضُ وهـــمٍ ورؤيا   وضَـــبـــــابٌ مُطَــلْسَـــمٌ ممدودُ؟

طالما حـــدّثوا فـــؤادىَ عن لُـقْــ   ـيـــاكِ لكنْ مـــا زلتِ حُلْمَ صـــبىٍّ
لم أزلْ أمـــــلاًّ الـليـــــالى حـنـيـناً   وأغنّـيكِ لـلـوجـــــودِ الشـــــقىِّ

ذكريات الطفولة

لم يَزَلْ مـجلسى على تلِّىَ الرمْـ ـلىِّ يُصْـغى إلى أناشيـد أمسى
لم أزلْ طفلةً سـوى أننى قـد زدْتُ جـهلاً بِـكُنْهِ عُـمْرى ونفسى

ليـتنى لم أزلْ كـمـا كنتُ قلبـاً ليس فـيـهِ إلا السَّنا والـنقـاءُ
كلّ يـومٍ أبنى حـيـاتى أحـلا مـاً وأنسى إذا أتانى المَسَـاءُ

فى ظلال الـنخـيلِ أبنى قـلاعـاً وقـصـوراً مَشـيـدةً فى الـرِّمالِ
أسـفـاً يا حـيـاةُ أين رمـالى وقُصورى؟ وكيف ضاعتْ ظلالى؟

إيه تـلّ الرمـال مـاذا تـرى أبـ ـقَيْتَ لى من مـدينةِ الأحـلام؟
أينَ أبراجُـهـا العَلِيَّـات هل تا هتْ وراء الـزمـان فى أوهـامى؟

ذَهَبَ الأمـسُ لم أعُـدْ طفلـةً تَرْ قُبُ عشَّ العـصـفـور كلَّ صبـاحِ
لم أعُـدْ أُبْصـرُ الحـيـاة كـمـا كـا نتْ رحـيـقـاً يذوبُ فى أقـداحى

لم أعُـدْ فى الشتـاء أرنو إلى الأمـ ـطارِ من مَـهْدى الجـميلِ الصـغيرِ
لم أعُـدْ أعـشَقُ الحـمـامـةَ ان غَنَّـ ـتْ وألهـو على ضِفَـاف الـغـديرِ

كم زهورٍ جَـمَّـعتُـهـا وعطورٍ ... سرقَـتْـهـا الحـيـاةُ لم تُبْق شـيّـا
كم تعـاليلَ صُـغْـتُـهـا بدَّنهـاً ... وتبـقّى تَـذْكـارُهَـا فى يَـديّا

كنتَ عَـرْشى بالأمسِ ياتـلَّى الرَّمْـ ... ـلىَّ والآنَ لم تَعُـدْ غـيـر تَلٍّ
كـان شـدوُ الطيـور رجْعَ أنـاشيـ ... ـدى وكـان الـنعـيمُ يتـبعُ ظِلّى

كـانَ هذا الوجـودُ مملكتى الـكُبْـ ... ـرَى فـيـا ليـتـهـا تعـودُ إليّـا
ليت تلَّ الـرمـالِ يسـتـرجع الأسـ ... ـرارَ والشِـعْـرَ والجـمـالَ الطَرِيّا

لم أعُـدْ أستطيعُ أن أحـكُمَ الزَهْـ ... ـرَ وأرْعَـى النجـومَ فى كلِّ لـيلِ
هل أنا الآن غـيـر شـاعـرةٍ تُدْ ... ـركُ سـرَّ الكون الجـديبِ المُملِّ؟

ذهبَ الأمسُ والطُفـولةُ واعْـتَـضْـ ... ـتُ بحسِّى الرهيف عن لهو أَمْسى
كل مـا فـى الوجـود يؤلمنى الآ ... نَ وهذى الحـيـاةُ تجـرحُ نفـسى

قـد تجلّتْ لى الحـقـيـقـةُ طيـفـاً ... غـيـهـبيّـاً فى مُـقْلَـتَـيْـه جنونُ
وتلاشـى حُلْمُ الـطفـولة فـى المـا ... ضـى ولـم يَـبقَ منه إلا الحـنـيـنُ

أينَ لونُ الأزهارِ؟ لم أعُـــد الآ ... نَ أَرَى فى الأزهار غـيـر البَـوَارِ
كلّما أبصرتْ عيونىَ أزها ... رأ تذكّرتُ قاطفَ الأزهارِ

أين لحنُ الطيور؟ لم يعُـد الآ ... نَ اشتياقاً وفرْقةً فى فؤادى
فالغناءُ اللذيذُ ضاعَ صَدَاهُ ... وانطوى فى تذكرٍ الصَيّادِ

أينَ همْسُ النسيمِ؟ أشواقُهُ السكْـ ... ـرَى انطفَتْ لم تَعُدْ تُثيرُ خيالى
فغداً يهمسُ النسيمُ بموْتى ... فى عميقِ الهُوَى وفوق التلالِ

أينَ منى مفاتنُ الليلِ، شعْرٌ ... وغموضٌ فى غيهبٍ مَسْحور
لم أعُدْ أعشَقُ الظلامَ غداً أهـ ... ـوى عظاماً تحت الظلام الكبيرِ

ها أنا الآنَ تحت ظلٍّ من الصفْـ ... ـصاف والتينِ مُسْتَطاب ظليلِ
أقطُفُ الزَهْر إن رَغِبتُ وأجنى الـ ... ـثَمَرَ الحُلْوَ فى صباحى الجميلِ

وغداً ترسمُ الظلالُ على قَبْـ ... ـرى خطوطاً من الجمال الكئيب
وغداً من دمى غذاؤك يا صَفْـ ... ـصافُ يا تينُ أىُّ ثأرٍ رهيب

ذاكَ دأبُ الحـيـاة تسلـبُ مـا تُعْـ	طيـه بُخْـلاً لا كـان مـا تُعْطيـه
تتـقـاضى الإحـيـاءَ قـيـمـةَ عـيشٍ	ضـمَّهمْ مـن شـقـائه ألفُ تيـهِ

هى هذى الحـيـاةُ سـاقـيـةُ السُمِّ	كـؤوسـاً يـطفـو عليـهـا الرحـيقُ
أومـأتْ للعِطَاشِ فـاغـتـرفـوا منـ	ـهـا ومـن ذاقـهـا فليس يُفـيقُ

هى هذى الحـيـاةُ زارعـة الأشـ	ـواكِ لا الزهرِ والدُجَى لا الضيـاءِ
هى نـبْعُ الآثام تسـتـلـهمُ الشـرَّ	وتحـيـا فى الأرضِ لا فى السَّمـاءِ

آدم وفردوسه

حسبُها أنّنا دفَعنا إليها ... ثمنَ العيشِ حَيْرةً ودموعا
أيّ ذنبٍ جَناهُ آدمُ حتى ... نتلقّى العقابَ نحنُ جميعا؟

وليكن آدمٌ جنَى حسبُهُ فُقـ ... ـدانُ فردوسه الجميل عقابا
أوَلم يَكْفِ أنَّهُ هبط الأر ... ضَ ليُسْقَى آلامَهَا أكوابا؟

أو لم يكف أنهُ هبط الدنْـ ... ـيا طريداً من خُلْده الفَيْنَانِ
أو لم يكفِ أنَّهُ عرفَ الشرَّ ... وقد كانَ طاهراً فى الجِنَانِ؟

ليت شعرى ماذا يرُوقُ لعَيْنَيْـ ... ـهِ هُنا فى انغلاق هذا الوجود؟
كيف ينسَى آفاقَ جنّتِهِ ما ... ذا يغذِّى حنينَهْ للخلود؟

كيف ينسَى الأمسَ الطليق ليَهْنا ... بحياةِ القيود والأرسْانِ؟
أين ذاكَ الحسُّ الرهيفُ؟ هنا سجـ ... ـنٌ بليدٌ مغَلَّفُ الجُدْرانِ

ولماذا يَنْسَى وهل فى الثرَى شىءٌ ... يعزِّى عن حُلْمه المَغْسُول؟
كلما لاذَ بالخيالِ تجلّى ... لأساهُ ما كان من قابيلِ

أوَ لَمْ تسمَعِ الحقولُ صَدَى صر ... خةِ هابيلَ حين خرَّ قتيلا؟
أوَ لَمْ يشهَدِ القطيعُ على الجا ... نى ألم يُبصِرِ الدمَ المطلولا؟

أينَ هابيلُ؟ أين وقْعُ خُطَى أغـ ... ـنامه فى الحقول والوديان؟
ليسَ منه إلا ضريحٌ كئيبٌ ... شادَهُ فى العَراءِ أولُ حانِ

وأتت ظلمةُ المساءِ على الحَقْـ ... ـلِ وعاد القطيعُ من دون راعِ
ليسَ إلا قابيلُ يمشى رهيبَ الـ ... ـخطوِ نهبَ الأفكارِ والأوجاعِ

يا لأحزانِ آدم عندما أبـ ... ـصَرَ بابنَيْه قاتلاً وقتيلا
أيّها المُستطارُ لَن تردَعَ الأقـ ... ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلا

ما الذى تنفَعُ المدامعُ يا آ ... دمُ؟ هل تدفعُ القضاءَ المريرا؟
إن يكنْ من فقدْتَ أولَ مقتو ... لٍ على الأرضِ فهو ليس الأخيرا

إنّها لعنةٌ تَظَلُّ على العا ... لَمِ مَسْدولةَ الدُجى مُكْفَهِرّه
كلّما ذاقَ قَطرةً من نعيمٍ ... أعقبتْها من الأسى ألفُ قَطره

كلّما أسدَلَ الستارَ على حَرْ ... بٍ أطلّتْ حربٌ وجاءت رزَايا
رحمةً يا حياةُ حسبُكِ ما سا ... لَ على الأرضِ من دماءِ الضحايا

الحرب العالمية الثانية

انظرى، هـل تَرَيْنَ غــيـر بقــايا ذلكَ العـالَمِ الجـمـيلِ الخـصـيبِ
هل تبـقَّـى منهُ سـوى دِمَنٍ جَـدْ باءَ فى قَـبْضـةِ الدمَّـارِ الرَّهيبِ

يا قـصوراً بالأمسِ كـانت هنا يضـ ـحَكُ من حـولهـا نَدَىً واخضـرارُ
أصـبحَتْ مـسكنَ الخرابِ وجـفَّتْ فى حـــمـــاها العطـورُ والأزهارُ

أينَ أهلـوكِ يا قـصـورُ؟ وفى أيِّ قـــبـــورٍ ثَوَوْا أتحـتَ الثُـلوجِ؟
أم ترى مـزَّقـتْـهـمـو قـاذفـات الـ ـنارِ فى عـاصفٍ رهيب الأجيجِ؟

أسَـفـاً يا قــصـورُ أهلُكِ نامـوا فـوقَ صـدْرِ الثرَى عُـراةَ الصُـدورِ
رقـدوا حـاسرى العـظامِ فـلا قَبْـ ـر لهُمْ فى التُّـرابِ أو فى الشُـعـورِ

فى سفوحِ الجبالِ، تحت ذرى الأشـ ـجارِ خـلف الضـيـاءِ والظـلمـاءِ
ليس غـيـرُ الموتى عظامـاً وأشـلاءً وغــيــرُ اكـــتـــئـــابةٍ وبكاءِ

يـ نشــيـدَ السَّـلامِ يا سـاكـناً فى قـــعـــر أحـيـلامـنا وراءَ مُنَـانا
رفَّ فـوق الـدُّنيـا الحـزينةِ وابعثْ لحنَ حُـبٍّ فى تيــهنا ودُجَـــانا

طُفْ بأنغـامكَ النَشَـاوَى على هـ ـذى القُرَى المُسْتباحـة المهدومه
بنداكَ الـرحـيمِ رطِّبْ شِـفـاهاً ظامئاتٍ أو جبهـةً محمومه

طُفْ بأنقـاضِ عـالمٍ ليس يَدْرى أترى للدّمـاء بَعْـدُ بقـيّـه؟
راسفٌ فى الدُجى، ويَسمعُ بالفجـ ـرِ حـديثاً وَقِصَّـةً مروِيَّهْ

كـانتِ الحَرْبُ يوم أشعلَها صـو رةَ حُلْمٍ مُضَـوَّأ الأسـتـارِ
غلّفـوها له بـومضٍ بريقٍ من سَنا المَجْدِ والرؤى والفَخَارِ

فـإذا نبـعُـهـا دمٌ وشَـذَاها لَهَبٌ آكلُ الـلَظَى وهَجـيـرُ
وإذا مـجـدُها شَـقـاءٌ طويلٌ ليس ينجـابُ ليلُهُ المحـرورُ

جفّ زهرُ التلالِ والوَرَقُ النَضْـ ـرُ وآوَتْ إلى الجَفافِ الحقولُ
أسفاً لم تَدَعْ لنا الحربُ شيئاً وتلاشى الحُلْمُ الطَروبُ الجميلُ

من ترى يحرُثُ الحقولَ الجديبا تِ؟ وأين اختفتْ أغانى الحَصَادِ
أين لَهوُ الأطفالِ عند البحيرا تِ النَشَاوَى فى بهجةِ الأعيادِ؟

يا قلوبَ أطفالٍ لا تخفقى الآ نَ حنيناً لن يَرْجِعَ الآباءُ
ذلك الحُلْمُ فى مآقيكمُ الولـ ـهى طوتْهُ المنيَّـةُ السوداءُ

وبقــايا الآبـاء نهبَ غُـــبـــار الـ　　أرضِ صـمّاءُ شـاخصـاتُ العيـونِ
أيُّ مــعنىً فى هذه الأعْـــيُنِ الغَــرْ　　قَى، من الصمتِ والذُهولِ الحزينِ؟

كلُّ عـينينِ فـيـهـمـا صـورةٌ تبـ　　ـكـى وترثى لـلعـــالَم المغـــرورِ
كل عــينينِ تســخــرانِ من العَـيْـ　　ـشِ وتـســتــهــزآنِ بالمقـــدورِ

كلُّ عـــينيـنِ تنظرانِ إلـى الأفْـ　　ـقِ بعيـداً عـن كلِّ مـا فى الحيـاةِ
آه يـا ربِّ، آه لو فَـــــــهِمَ الأحـ　　ـيـاءُ مـاذا فى أعـيُنِ الأمــواتِ

يا فتـاةَ الأحـلامِ حـسبُك شـدواً　　برثاء الـقَـتْلَى وحـســبُك حُـزْنا
سوف يَفْنَى هذا النشيدُ ويَبْقَى الـ　　شـرُّ فى الأرض خـالداً لـيس يَفْنَى

هكـذا شـاءت المقـاديرُ للعــا　　لَمِ إثـمٌ ونقـــمـــة وحـــروبُ
وهى النفسُ تحملُ الشرَّ والبـغضاءَ　　مـــاذا يُفـيـــدُها الـتـهـــذيبُ؟

وأغــانى الســلام كم قــد وهبنا　　ها قـلوبـاً وألسُـناً وشـــفَـــاها
فطَـوَاها الفـــضــاءُ وابتلعَ النِسْـ　　ـيـانُ ألحـانَهـا وضَـاعَ صـداها

كيف ينجو الوجودُ إن كان فى الإنـ　　ـسانِ عــرقٌ من الشرور عــريقُ
كـيف يَشْفى مـن الأسَى يا مقـاديـ　　ـرُ؟ مـتـى فـجـرُهُ السنىُّ الوريقُ؟

مــا الذى رامَــهُ المـسيحُ لـكى يُجْـ	ـزَى بما كــانَ؟ مـا الذى كــانَ منه؟
أيّهــا العــالمُ الــذى اقـتــرفَ الذنْـ	ـبَ أمــــا آنَ ان تُكَـفِّـــــر عـنه؟

أو لم يَشْـــبعِ الوجــودُ من الحُـــزْ	ن أمــــا زال ظامــئـــاً للدِّمـــاء؟
أومـا فـى كـاسـاتِهِ غيـر مِلْحِ الـ	ـدمعِ للـجـائعــينَ والأشـقـيـاء؟

أيهـــا الكونُ يا جَـنَاحــاً مُــدَمَّىً	حطّـمــتْـــــهُ مـــقـــادرٌ ومَنَـايا
ليكن مــن فـقــدتَ فى هذه الحَــرْ	بِ ختــامَ الذينَ مــاتوا ضحــايا

نَهَمُ الـقــتلِ فـى عُــروقك قـــد آ	نَ لـه أن يـنـامَ أن تَـنْـسَــــــــاهُ
فـالتجـئْ للسمـاءِ حـيثُ المُنَى والـ	ـرى حــيثُ الضـيــاءُ حــيثُ اللهُ

ذلكَ المنبـعُ الأثيــــرىُّ مــــا أعـ	ـذبَ كــاســاته لمن يُسْـقَـــاها
لم يـزل فى انـتـظارِ دنيـــاً تـرامتْ	فى دروبِ الدُجَى فـضـلّتْ خُطَاها

أيُّهــا التــائهــونَ تحــجبُ أبصــا	رَهُمُ ظُـلْمـــةٌ وألفُ ســـتـــارِ
احــملوا نادمــينَ أشــلاءَ قَـتْـلا	كُمْ وغنُّوا لـهـا نشـيــدَ اعـتــذارِ

ضـمـّـخـوها بالـعطرِ لفّوا بقــايا	ها بزهْرِ الـليـمـونِ واليـاسـمـينِ
احـملوا الميّـتـينَ فى نعشِ مـوسيـ	ـقىً وحـبٍّ وعِطرِ دمعٍ ســخـينِ

واجمعوا الصبية الصغار ليُلقوا أغنيات فجريةَ الأنغامِ
وليكن آخرُ اللحون التى تُلـ ـقَى على سمعهم نشيدُ السَّلامِ

فيم هذا الصراعُ؟ فيم الدماءُ الـ ـحُمْرُ تجرى على الثرَى العَطْشانِ
والشبابُ البرىءُ فى زهرة العُمـ ـرِ لماذا يُلقَى إلى النيرانِ

فى سبيل الثرَاءِ هذا؟ أليس الضـ ـوءُ والحبُّ والورودُ ثَراءَ
وليالى السلامِ والأمْنِ هل فى الـ ـعُمْرِ أغلى منها وأحلى ضياءَ؟

وغداً رحلةٌ إلى الأُفُق المجـ ـهول، نحو السكون والنسيانِ
وغداً رحلةٌ فهل يدفع الأمـ ـواتُ بالمالِ وحْشَةَ الأكفانِ؟

إنَّه الموتُ ذلك الواهبُ العا دلُ مُلقى الهمود فى كل قبرِ
ومُريقُ الفناء فى كلِّ خدٍّ وذراعٍ وكلِّ نحرٍ وصدْرِ

فلماذا إذن مَشى العالَمُ المجـ ـنونُ للموت والأذَى والدَّمارِ
فيم تحدو الشعوبَ أطماعُ غرٍّ يتصبَّى عينَيْه وهْجُ النّارِ

أعن النصر يبحثونَ؟ وهل نصـ ـرٌ لمن تستذلُّهُ الأهواءُ
هل فَخارٌ وحولنا عالَمٌ يمـ ـلؤهُ الجائعونَ والأشقياءُ؟

نحنُ أســرى يقــودُنا القَــدَرُ الأعــ   ـمى إلى ليلِ عــالمٍ مــجهــولِ
وسنيــنُ الحــيــاةِ نومٌ ونصــحــو   ذاتَ يومٍ عــلى نــداءِ الرَّحــــيــلِ

وطبــولُ النَصْــر العظيم غــداً تَفْــ   ـنَى وتغــفــو فى قــبرهــا المقــدورِ
وتُضــــيعُ الرِّيــاحُ فى أُفُقِ الــعــا   لَمِ ذكــرى المنصــور والمــدحــورِ

وصحــا العالَمُ العــميقُ الأسى وانــ   ـتــهت الحــربُ بانتــصــار المنايا
شَــهِدت هذه الــقــبــورُ لهــا بالــ   ـنصــرِ يا رحــمتــا لتلكَ الضــحــايا

ثم مــاذا يــا ســاكنى العــالم المو   جــوعِ مــاذا من القــتــالِ جنينا؟
هل وصلنــا إلى النجــوم الحــوالى   ولَمَــســْنا أســــرارَها بيَــــديْنا؟

هل غلبنــا الشــقــاءَ والفــقْــرَ فى أر   جــاء هذا الكون الطــعــين الذليلِ؟
والصِــغــارُ العُــراةُ هل وجــدوا مــأ   وىً ودفــئــاً عبــر الشــتــاءِ الطويلِ؟

والأذى والشــرورُ هل دَحَــرَتْهــا الــ   ـحَــرْبُ يا من حــمَلتــمــونا لظاها؟
أسَــفاً لــم يزَلْ على الأرض من يتْــ   تخــــذُ الــكأسَ والمجــــونَ إلهــــا

لم تَــزَل فى الوجــــود أغنيــــةٌ تَــقْــ   ـطُرُ حــزناً على شــفــاه جيــاعِ
فى هتّــافــاتِ لاجئــين رمتْــهم   مــحنــةُ الحَــرْب للضَنَى والضَــيــاعِ

كل شيء باق كما كان قبل الـ حرب غير الأيتام والأموات
غير ظلٍّ من الكآبة والحَيـ رة يمشي على ضفاف الحياة

هؤلاء الأيتام بالأمس كانوا صورةَ البِشْر والمراحِ الجميلِ
تحت ظلِّ الآباء يقضُون عَيْشاً ما دروْا غير صفوِه المَغْسولِ

وأفاقوا من حُلْمهم فإذا الآ مالُ حربٌ والذكريات دُخانُ
يا عيونَ الأطفالِ لا تسألي الدنـ يا فقد مات في القلوبِ الحَنانُ

في سبيل المجدِ المزيَّف هذا الـ هولُ لا كان مجدُهمْ لا كانا
في سبيل النصرِ المموَّه عاد الـ عالَمُ الحُلْوُ في اللهيب دخانا

هؤلاء الصرْعَى على الشوك والصخـ ـرِ شباباً وصبيةً وكهولا
كيف كانوا بالأمس؟ أيّةُ رؤيا رسموها فلم تهشّ طويلا؟

أيها الأشقياءُ في الأرضِ يا من لم تُمِتْهم قذائفُ النيرانِ
عَبثاً تأملونَ أن يرجعَ الآ نَ أعزّاؤكم إلى الأوطانِ

انظروا ها هم الجنود يعودو نَ فرادَى مُهشّمي الأعضاءِ
آهِ لولا بقيّةٌ من حياةٍ لم يُعَدُّوا في جملةِ الأحياءِ

عـبـثـاً يـبـحـثـون فى هذه الأنـ ـقـاضِ عن أهلهم وعن مـأواهُمْ
عـبـثـاً يسـألون مـا يعلم العـا بر شـيـئـاً فـيـا لنار أسـاهُمْ

كـيـف ذاقـوا مـرارةَ الخـيـبـة المُرَّ ة بعـد العـذابِ والأوصـابِ؟
أتراهـم نجـوا من الموتِ كى يحـ ـيـوا بلا رفـقـةٍ ولا أحـبـابِ؟

أينَ تلكَ البيوتُ يلمعُ فيها الضـ ـوءُ والحبُّ أيـن مـن سكنوهـا؟
أين أطـفـالُـهم ورجْـعُ أغـانـيـ ـهِمْ وتلـكَ المُنى التى صَـوَّروها؟

أيهـا الأشـقـيـاءُ يا زُمَـر الأحـ ـيـاء فى كـل قـرية وصـعـيـدِ
آن أن نسـتـعـيـدَ مـاضىَ حبٍّ هو مـفـتـاحُ حُلْمِنا المفـقـودِ

مـا الذى بيننا من الحـقْـد والـبغـ ـضاء؟ مـا كان سر هذا الدَمَار؟
أيهـا الأشـقـيـاءُ نحن جـمـيـعـاً لعـبـةٌ فى مـخـالبِ الأقـدارِ

نحنُ نحـيـا فى عـالـمٍ ليس يُدْرَى سرهُ فـهـو غـيـهبٌ مجـهـولُ
تطلَعُ الـشـمسُ كل يومٍ فـمـا كُنـ ـهُ سناها؟ وفيـمَ كـان الأفـولُ؟

مـا الذى يُطْلع النـجـومَ على الكو ن مـسـاءً مـا كُنْهُ هذا الوجـودِ؟
أيُّ شىءٍ هذا الفـضـاءُ؟ ومـا سـرُّ دجـاهُ؟ هل خلفَـهُ من حُـدودِ؟

يا ضــبابًـا من الجَـهَــالة والحَـيْـ ـرة قــد لـقّــبـوهُ بالإنســـان
كل مــا فى الوجـودِ يـحكمُـهُ مــا ذا إذنُ ســرُّ ذلكَ الـطُّغْــيـانِ؟

فيمَ نَطْغَى وكـيف ننسَى قوى الكوْ نِ ومــا فى الوجــود أضـعـفُ منّا
ينخــرُ الدودُ مــا نَشـيــدُ ولا تُبْـ ـقـى البــراكــينُ والـرياحُ علينا

فـيم نقــضى حـيـاتنـا فى العـداوا تِ ونُمُـضى السنينَ يأساً وحُـزْنا
كـيف ننـسَى أنّا نعـيشُ حـيـاةَ الـ ـوَرْدِ سُرْعــانَ مـا يمـوتُ ونَفْنَى

لن تـدومَ الأيامُ لن تَخْــفط الـدنـ ـيــا كــيـــانـاً لكائـنٍ بشــرىٍّ
فلـنَدَعْ هذه الضـــغـــائـنَ والأحـ ـقــادَ ولنَـحْــيَــا للوداد النـقىِّ

البحث عن السعادة

كم بَحثْنا عن السعادةِ لكن ... ما عَثَرْنا بكوخها المَسْحورِ
أبداً نسألُ الليالىَ عنها ... وهى سرُّ الدُّنيا ولُغزُ الدُهورِ

طالما حدّثوا فؤادىَ عَنْها ... فى ليالى طفولتى وصِبَايا
طالما صوّروا لعينىَّ لُقْيا ... ها وألقَوْا أنباءَها فى رؤايا

فهى آنا ربيبةُ اليُسْرِ والثَرْ ... وة بنتُ الألوان والأضواءِ
ليس تحيا إلا على باب قَصْرٍ ... شَيّدتْهُ أيدى الغنَى والرَّخاءِ

وهى آناً فى الزُهْدِ عن مُتَعِ الدنـ ... ـيا وعنْد النُسَّاكِ والرُّهبانِ
ليس تحيا إلاّ على صَخَرِ المَعْـ ... ـبدِ بين الدُعَاءِ والإيمانِ

وهى فى شَرْعِ بعضِهم مِلْكُ من يُطْـ ... ـلِقُ أهواءَ قلبِه دون قيدِ
ليس تصفو إلا لمن عاشَ للكأ ... سِ وللّهو بين ثَغْرِ وخَدٍّ

وهى فى شرعِ آخرينَ لراعٍ ... يصرفُ العُمْرَ فى سُفُوحِ الجبالِ
يتغنّى مع القطيعِ إذا شاءَ ... ويغفو تحت الشَذَى والظلالِ

وهى فى شَرْع غيرهم فى حِمَى العزْ لة والفنِّ والجــمــال الرفـيع
ليس تحـيـا إلا عـلى فم غـريـ ـدٍ يُغنّى أو شـاعـرٍ مَطْبـوعِ

وسـواهم يرَى السعـادَةَ فى الحبِّ وفى أغـنيــاتِ كـلِّ مُـحبِّ
ليس تحـيـا إلاّ على شَـفَـة العـا شـقِ لحنـاً من الـوداد العـذْبِ

حـدثونى عنهـا كـثـيـراً ولكن لم أجـدْها وقـد بحـثتُ طويلا
لم أزل أصـرفُ الليـالى بَحـثـاً وأغنّى بهـا الوجـودَ الجـمـيـلا

مرّ عـمرى سدًى وما زلتُ أمشى فـوق هذى الشـواطئ المحـزونه
لم أجـدْ فى الرمـالِ إلا بـقـايا الشـ ـشـوكِ يا للأُمـنيّـةِ المغـبـونَهْ

أينَ أصـداقُكَ اللوامعُ يـا شطُّ إذنْ؟ أيـن كنـزُكَ المـوعـودُ؟
هاتـه رحـمـةً بنـا هاتِ كـنزاً هو مـا يرتجيـه هذا الوجـودُ

هاته حـسبُ رملكَ البـارد القـا سى خـداعـاً لنا وحـسبُكَ هُزْءا
يا لَحُلْمٍ نـزيدُ مـنه اقـتـرابـاً وهو مـازال أيهـا الشطُّ يَـنْأَى

طال بـحـــثـى يا ربِّ أيـنَ ترى ذا   كَ السـعـيـدُ الجـذلانُ أين تراهُ؟
ليسَ حـولى إلا ديـاجـيـرُ كـونٍ   مـغـرقٍ فى نُواحِـهِ وأسَـاهُ

لم أجـدْ فى الرمـالِ إلا بقـايا الـ   ـموت مـن أعـصُرٍ طوال دفـينه
كلُّ جـيـلٍ يعـيشُ يحلـمُ حـتى   يُطْفِئَ الموتُ قلبَـهُ وعُـيـونَهْ

عـالم يَنْشُـدُ السَـعَـادةَ والأيّـ   ـامُ تَسْقـيـه غُـصَّـة بعـد غُـصَّـه
كلَّمـا ضجَّ شـاكـيـاً أمّلتْـهُ   مُـقَلٌ عـذبةٌ وأيدٍ رخْـصـه

إيه أسطورة الـسـعــادة غنّيـ   ـنى نشـيـداً عن أفْـقك المفـقـودِ
أين ألقـاكِ؟ أين مـسكنُك المَسْـ   ـحُورُ؟ فى المستحيلِ أم فى الوجود؟

سرتُ وحدى تحتَ النجوم عصوراً   أسـألُ الليلَ والدياجـيـرَ عنك
أسَفاً لم أجـدْكِ فى الشاطئ الصَخْـ   ـرىِّ حـيـثُ الميـاهُ تَفْـتـأُ تـبكى

حيثُ تبْقَى الأشواكُ والوردُ يَذْوى   تحت عـيـنِ الأيّامِ والأقـدارِ
حـيثُ يَفْنَى الضـيـاءُ والليلُ يأتى   بـوعـيـدِ الريـاحِ والأمطارِ

حيثُ تحيا الأغنامُ جائعةً لا عُشْبَ لا ريَّ في المراعي البخيله
وغداً في الصباح تنتظرُ السكِّـ ـينُ أعناقَها العجَافَ النحيله

حيثُ يحيا الغُرابُ والبلبلُ المو هوبُ يَهْوى من عُشِّه المضفورِ
ويغنّى البومُ البليدُ على الدّوْ ح ويَشْوى القُمْرىُّ بين الصُخور

حيثُ تبقى الغيومُ مُمْطرةَ الأهـ ـدابِ رمزاً لدمعنا وبُكَانا
وتَظَلُّ الريِّاحُ تصفرُ سُخْريَـ ـتَهَا من أهوائنا ومُنَانا

أنشودة الرياح

-١-

أيها السادرونْ ... ما الذى تَنْشُدونْ؟
ملءَ هذا المَدَى ... فى الدُّجَى حالمونْ
كم رَسَمْتم منّى ... أطفأتْها القرونْ
وأغانيكمو ... كم طواها السكونْ

تذرعون الذُّرى ... تقطعونَ القفارْ
تحت سمع الدُّجَى ... وعيونِ النَهَارْ
تُطْعمونَ الرؤى ... بالدموع الغزارْ
إنّ دونَ المُنَى ... ألفَ ألفِ ستارْ

وأمانيكمو ... طيفُ حبٍّ نَفُورْ
أتظّنونها ... فى زوايا القصورْ؟
دونَكمْ فابحثوا ... فى حرير السُّتورْ
وأنا للمَدَى ... كلُّ عُمْرى مرورْ

بين القصور

سرتُ وحدى بين القصور طويلاً   أسألُ العابرينَ أين السعيدُ؟
فإذا بهجةُ القُصور ستارٌ   يختفى خلفَهُ الظلامُ المديدُ

إنّ فيها أغانياً ذابلات   وصلاةً حزينة النَبَرات
وعُيوناً مملوءةً حَيْرةً تَسْـ   ـتفهمُ اللُّغْزَ فى ضباب الحياة

شبعوا وارتووا وما شَبِعت أر   واحُهم وارتوتْ وباتوا حَيارَى
إن جوع النفس المُنَعّمة النَشْـ   ـوى إلى حُلْمها أشدُّ استعارا

ليس يُنْجيهمو الغِنى من يد الحُزْ   ن وإن طاولوا الذُّرَى بالغرور
ولهم موتُهُم ومأساتُه المُغْـ   ـلَقَةُ السرِّ مثلَ ما للفقير

كم وراءَ القصور من أغنيات   أخرستها عواصفُ المقدور
كم قلوبٍ تَوَدُّ أن تُبْدلَ القصـ   ـرَ بكوخٍ على ضفافِ الغدير

ليس يُنْجى الحريرُ من عُمْق هذا الـ   ـلغْزِ لغزِ المصيرِ لُغْزِ البدايه
هل يبيعُ الفضاءُ أسرارَهُ بالـ   ـمالِ هل تُشْتَرَى به اللانهاية؟

وعــبـرنا الـقُـصــورَ لم نجِــد المنـ ـشـودَ في ضـوئهـا ولا في دُجـاهـا
فــهي خلوٌ من المـعـاني ومـا فـيـ ـهـا سـوى المال والحـرير إلهـا

أقـفرتْ من سـعـادة الروح من مُنْـ ـطَلَـقِ الفكْر فـي مَـدَى الأزمـانِ
وسَــرَى المَحْلُ في أزهارها الـظَمْـ ـأى إلى اللون والـشـذَى والمَعـاني

غَـرقـوا في الضـيـاء والـعطر لكنْ ليس فـيـهم قلبٌ يحـسُّ الضـوءا
وتمرُّ أنـهـارُ في أرضـــهم تـسـ ـقي شـفـاهاً وتتـركُ الروحَ ظمـأى

تلك إغـفـاءةُ القـصـور يمـوتُ الـ ـحسُّ والشـعْرُ في حَمـاها الضَنينِ
آه فلـنمضِ بـاحــثـــينَ لعـلَّ الـ ـكـونَ يُفْــضي بسـرِّه المَكْـنونِ

أنشودة الرياح

-٢-

كلُّ عُمْري سُرَى | في الوجودِ الجميلْ
في الصباحِ النَّدِي | والظلامِ الثقيلْ
فوق سَرْوِ الذُّرَى | فوق حقلِ النخيلْ
أنا أمضي أنا | كلُّ عمري رحيلْ

وشهِدْتُ هنا | ألفَ جيلٍ وجيلْ
وُلِدوا وانطووا | في التُّرابِ المَهيلْ
ضَحِكوا أو بكَوْا | في الضُّحَى والأصيلْ
ما لهمْ مَهربٌ | من رُقَادٍ طويلْ

وسمعتُ هُنا | كلَّ جيلٍ يقولْ:
«في يدي منبعٌ | خالدٌ لا يزولْ»
وأناشيدُهمْ | قد طَوَاها الذبولْ
ومبانيهمو | جَرَفَتْها السُّيولْ

أقبلى أقبلى   فتاةَ النشيدْ
وابحثى بينهم   عن فؤاد سعيدْ
كلَّ يومٍ لنا   منك حُلْمٌ جديدْ
وأنا ما أنا   غير سيرٍ أبيدْ

ومَضى بحثها   عن ديارِ النعيمْ
لم يَزَلْ قلبُها   فى المَرَاقى يهيمْ
القصورُ طوت   حُلمَها المستديمْ
فانتهى سيرُها   عند ديرٍ قديمْ

فى دنيا الرهبان

سرْ بنا يا طريقُ نحو حِمَى الديـ ـرِ فـقـد نلتـقى الرِّضَـى والأمْنَا
فلعلَّ الـرُهبـانَ قـد أدركـوا السرَّ المعـمّى الخـافى الذى نتـمنَّى

هؤلاء الـزُهّادُ فى القُنَّة الخـضـ ـراءِ حيثُ الحيـاةُ صَمْتٌ مـديدُ
ربما كـاشَــفَـتْـهمُ الأنجُمُ العُلْـ ـيـا بـأسـرارها وباحَ الخلودُ

مـرحباً يا رهبانُ هل فى حِمـاكم من حـديثٍ عن كنزنـا المفـقـودِ؟
هل لمسـتمْ بريـقَـهُ وشـذاه؟ هل نـعـمـتم بظـلِّه الممـدودِ؟

إنّ فى أفْـقكمْ جـلالاً وشِـعْـراً وسكـوناً مُـطَلْسَـم الأسـتـار
وصـلاةً لـلّه تـقطرُ حـبّـاً طهّـرتْهـا يدُ الدمُـوعِ الغـزارِ

فلمَ الحـزْنُ والشـحـوبُ يُطلاّ نِ لديكـمْ من أعـينٍ وشـفـاه؟
يُلقـيـانِ الظلالَ فـوقَ وجـوهٍ صـامـتـاتِ المَرْأى خَـواء الجبـاهِ؟

ووراءَ الأهداب أسـتـارُ حـزن وذهـول ووحـشـة لا تَنَـامُ
إن يكـنْ ديرُكُم عَـذاباً وهـمّـاً أيُّهـا الراهبـونَ فـيمَ المُقَـامُ؟

لم أجدْ في الصوامعِ الرّثةِ الحَيْـ ـرَى عُلواً ولم أجدْ آفاقا
إنّ هذا الجَنَاحَ يا ديرُ مقصو صٌ فلن يستطيعَ قطُّ انطلاقا

أثقلتْهُ رغائبٌ ثرّةٌ حَرّ ى تبقّتْ من أمسه المدفونِ
واشتياقٌ إلى الطُفولة والحبِّ إلى ضَمّةٍ وصَدْرٍ حنونِ

أيُّها الراهب الذي يقطعُ العُمْـ ـر وحيداً في غُرفةٍ منسيّه
ليس يدري دفْءَ المودّة في عيـ ـنينِ في قَمرٍ لَيلةٍ شِتْويّه

حدّثوني عنكم فقالوا: قلوبٌ نُسجتْ من وداعةٍ ونَقَاءِ
ونفوسٌ صيغت من الضوء والعطْـ ـرِ وحامتْ على شِفَاهِ السَمَاءِ

وحكَوْا لي عنكم فقالوا: ضياءٌ وكؤوسٌ من الشَذَى روحيّه
وسُمُوٌّ إلى الذُرَى الطاهرات الـ ـبيضِ فوق الرغائبِ البَشَريّه

عَجباً أين ما سمعتُ؟ هنا شَوْ قٌ ونارٌ وأعينٌ مَفتونهْ
وهوىً قيّدوه عطشانَ محرو راً فأين السلامُ؟ أين السكينه؟

واسْمُ (تاييس) لم يَزَلْ في شفاه الـ ـريحِ يُتْلى على الوجود اللاهي
رمزَ قلبٍ ممزّقٍ بين صَوْتَيـ ـنِ: نداءِ الهوى وصوتِ الله

مـا نَسـينا غَـوايَةَ الراهـبِ المَفْـ ـتونِ فـى حبِّهـا وكـيفَ هَدَاها
يا لـه بائسـاً سـمـا بابنـةِ الإثـ ـمِ إلى قـمَّـةِ السمـاءِ وتاها

أيّهـا الديرُ يـا جـديـاً من الحبِّ خـواءً مـن النَـدَى والَـحنـانِ
يا غريقاً فى الصمتِ والوحشة الصَمّـ ـاءِ يا مُـقْـفِـرَ الرؤى والأمـانى

حـانَ عن صمـتكَ الكئيب رحـيلى فـدروبُ الحيـاة خـضـراءُ حيّـه
وذراعُ الوجـودِ يـفـرشُ لى دَرْ بـاً من الخِـصْبِ والظلالِ الـثـريّه

وسـألقـى ربِّى هنـاكَ بعـيـداً عن ديـاجـيكَ إنَّ ربّـى ضـيـاءُ
وطريقـى يمـتـدُّ حـيثُ يـدُ اللـ ـهِ جـمـالٌ ورحـمـةٌ وارتواءُ

أنشودة الرياح

-٣-

طال تَجْـــوالُهـــا		في الفجاحِ الفِســاحْ
في مُــرورِ الدُجَى		وانطواءِ الصَــبــاح
فــي تَــلاشــي النَدَى		وضــيــاع الرياحْ
إن احــلامَــهــا		ملّكتْــهــا جَنَاحْ

كلّما ضــيَّــعتْ		في الدياجي رجــاءْ
فــتّــحتْ قلبَــهَــا		للشَــذَى والضــيــاءْ
إنّ في روحــهــا		ودمــــاهـا نـداءْ
لارتــقــاء الذُرَى		وبُلُوغِ الســمــاءْ

يا فــتــاةَ الرؤى		مــا أحبَّ الوصــولْ
حــيث يمــضي الأسَى		والضَــبــابُ يزولْ
غــيــر أنّ السُّــرَى		في جــديبِ طُلولْ
والمَدَى شــاسعٌ		والديارُ مُــحــولْ

ما وجدتِ المُنَى   في حمى الرُهْبانْ
عالمٌ مُغْلَقٌ   قاتم الجُدْرانْ
وأطلَّ على   طرفك الحيرانْ
شاطئٌ أخضرٌ   مُبَرِقُ الغُدْرانْ

إنّه شاطئٌ   غامضٌ لا يَبِينْ
واعدٌ بالسَّنا   كلَّ قلبٍ حزينْ
وهبطتِ إلى   أرضه تَبحثينْ
أسفاً إنّه   شاطئُ العابثينْ

في دنيا الأشرار

عند شطِّ الحـيـاة ألـقـيتُ مَـرْسَى زورقي في الـضـبـاب والأوهامِ
أرقبُ السائرينَ في الشاطئِ الصَخْـ ـرىِّ بيـن الـوهـاد والآكـامِ

أينَ ألقـاكِ يـا سـعـادةُ؟ هل من نبـأ عن حمَاكِ يَهْدى الحَيَارَى؟
كلَّمـا قلتُ هـذهِ دارُهَا امـتـدَّ تْ قـفـارٌ لاتنتـهى وصَحَـارَى

فـي ديار الأشـرارِ نـحنُ نـزلنـا بين أشـواكـهـا وحزِّ حَـصَـاها
ربَّمـا كـان في جـداولهـا الفظّـ ـةِ كـأسٌ يَرْوى المُنَى والشِـفَـاها

ونزلْنا في أرضـهـا ورَحَلْنا عن دُجَـاها وحـرِّها مُـسْـرِعـينا
لم يَزَلْ طـعْمُ مـائـهـا المرِّ يـحـيـا في رؤانـا يَفـيضُ مِلْحـاً وطينا

الطُّغـاةُ المُلوّثـو الروحِ فـيـهـا لم نَجِـدْ في عـيـونهـم من نورِ
فَـقَـدوا الحبَّ والسَّـلامَ ونامـوا فـوقَ شـوكِ من الـعـذابِ المريرِ

فـإذا أسـكتـوا تَـظلُّـمَ مظلو مٍ فهـل يُسْكتون صوتَ الضميرِ؟
ذلـكَ الـراقبُ الإلـهـيُّ فـي النَفْـ ـسِ لسانُ الهُدَى وصوتُ الشعُورِ

لم يَزَلْ ساهراً يُراقبُ فى صَمْـ ـت خُطاهم فليسَ منه هروبُ
أبداً يرقُبُ الحياةَ وفى عيـ ـنيهِ سرٌّ عاتٍ ومعنىً رهيبُ

فإذا حادت القلوبُ عن الخيـ ـرِ عَلاَ صوتُ ذلكَ الجبَّارِ
إنَّهُ الناقمُ النبيلُ على الشرِّ وقاضى الطُغاةِ والأشرارِ

كيف ينجو الأشرارُ من شقوة الرُّو حِ وسوطُ الضميرِ بالمِرْصادِ
لا ملاذٌ من حاكم يملكُ الرو حَ بما فى كفَّيْهِ من أصفادِ

ولصوصٌ فى هذه الدار عاشُوا يسرقونَ الحياةَ والأشياءَ
يسرقون الجَمالَ والحبَّ والُخبْـ ـزَ جميعاً ويسرقون الضياءَ

وأكفٌّ تمتدُّ تسرِقُ قرطاً وسواراً وخاتماً لَمّاعا
وأكفٌّ لاترتوى دون أن تَسْـ ـرقَ خداً ومعصماً وذِرَاعا

ونفوسٌ وضيعةٌ تسلبُ العا برَ حُلماً أو رغبةً أو قلبا
ونفوسٌ أحطُّ تؤمنُ بالعفْـ ـةِ والعدلِ ثم تسرِقُ شَعْبا

هل يعيشُ الضياءُ فى هذه الجُدْ   رانِ حيثُ الأقبِاءُ حيثُ الزوَايا
فى عيونٍ مزيّفاتٍ تُغَذّيـ   ـهـا رغابٌ دنيئةٌ ونوايا

عالمٌ مُقفرٌ من الحُبِّ والدِّفْءِ   تعيشُ النفوسُ فيه خواءَ
نُزِعَتْ من فضائه لَمَسةُ اللـ   ـه فأبقتْ أذلّةً أشقياءَ

يا نشيدَ الرياح خذنا مع اللَحْـ   ـنِ إلى عالمٍ أرقَّ وأغلى
كلَّما لامستْهُ أقدامُنا افترَّ   وفاضتْ أنداؤه واخضلاَّ

أنشودة الرياح

-٤-

انبسطْ يا مَدَى — واختفى يا حدودْ
إن أقدامها — شردت فى الوجود
كلَّما صعَّدَتْ — فى الذُرَى والنجودْ
قابلتها ذرى — ومَضَتْ فى صعود

إنها رحلةُ — فى طريق الحياة
بحثَتْ عن دُنىً — تتحدّى المماتْ
كلَّما أبصرت — رّمةً فى فلاة
جدّدتْ عزْمَها — بنَدَى الأغنياتْ

يا فتاةَ الرؤى — والفؤادِ الرهيفْ
خاطبتْك الدُنَى — فى الظلامِ الكثيفْ:
«أنصتى تَسْمعى — فى السكونِ حفيفْ
وانظرى تُبْصرى — أنَّ جدْبى وريفْ»

لكِ قلبٌ غفا	عن معاني الذُرَى
لك روحٌ ثوى	في ضَبَابِ الكرى
لا يُحسُّ النَدىَ	في جَفَافِ الثَرَى
فاهبطى وابحثى	عند أهلِ القُرَى

ربّما حرّروا	مُقْلةً راسفه
أغمضتْ لا تَرىَ	روعة العاصفَه
ربّما خفّفوا	خُرْقةً لاهَفه
انّ دنياهمُ	جنّةُ وارفه

في الريف

مـا تقـول الريـاحُ؟ هذى هى الجنـ ـةُ؟ هـذى ظلالُهـا الممـدودة؟
أترى حـانَ أن تـراكِ عيـونى يا ضفـافَ السعـادةِ المفقـودة؟

بعـد طول السُرَى وتيـهى فى الآ فـاق، والـدربُ ظلـمـةٌ وزوالُ
بعـد بحـثى عن التى غَلَّفتْ أسـ رارَهـا لـم تَبُحْ بـهـا الآزالُ

أنا من قـد حـملتُ قلبى على كـفّـ ـى وسـرتُ الوجـودَ أبحث عنهـا
أسـألُ العـابرينَ عـمّـن رآها ورَوَى قلبَـهُ المُشـوّقَ منهـا

أتـراهـا هنـا؟ أتـلـكَ إذن أسـ ـوارُهـا تملأُ المشـاعـر أمـنَا؟
أتـرانا إذن وصلنـا أخـيـرا ذلك الشـاطئَ الذى نتـمنَّى؟

إنّهُ الـريفُ فـالحـيـاةُ ربيعُ خـضـلُ العطْر باردُ الأنداء
والمراعى النشـوى تُرَاقـصُهـا الريـ ـحُ وتغـفـو عـلى خـدود الضيـاءِ

والصبـاحُ الوضىءُ قـد ذوّب الألـ ـوانَ والعطْرَ فى كـؤوس الورودِ
والفـراشـات يرتشـفن ويثْـملْـ ـنَ من الـوْهج والرحـيقِ البَـرُودِ

وفروعُ النخيل مدّتْ على مجـ ـرى السواقي ظلالها السَمْراءَ
سكبتْ عطرها وخدّرتِ المرْ جَ وفاضتْ خصوبة ونَمَاءَ

وذراعُ الضياءِ تحتضنُ الأشـ ـجارَ والواديَ النضيرَ الثريّا
وورودٌ بيضٌ تنامُ على ينـ ـبوعِ ماءٍ يسيلُ شهداً نقيّا

كلُّ شيء في هذه الجنّة العَذْ بةِ يوحي بأنَّنا قد وصلنا
إنَّ ما في قُلوبنا من هويً عط شانَ قد نال حُلْمَهُ المُتَمنَّىَ

أنَّ هذي ديارُهَا، هي جنّتْـ ـةَ حُلْمي الخافي وسرَّ رحيلي
هي ذاكَ اللغزُ المحيِّرُ شوقُ الـ أمسِ واليومِ والغد المجهولِ

فلنُقمْ ها هنا عريشَ أمانيـ ـنا من الورد والشَذَى الروحيِّ
ولنَذُقْ حكمةَ النخيلِ ونقبسْ بعضَ أسرارِ صبرِهِ الأبديِّ

لنعشْ ها هنا تعلّمُنَا الأشـ ـجارُ سرَّ الدنيا وموسيقاها
والمروجُ الغنّاءُ تكشفُ للرو حِ معاني اخضرارِها وشذاها

وغناءُ الرُعاة تنقلُهُ الرِّيـ ـحُ بعيداً إلى قنانِ الجبالِ
ونشيدٌ تُديرهُ شَفَتا طفـ ـلٍ يغنّي على تلالِ الرِّمالِ

إنّ فى هـذه المجـالـى كـؤوسـاً هى رىُّ المُنى ورىُّ الـشـفـاه
إنّ فـيـهـا نبـعـاً يفىء إليـه الـ ـمُتْـعَبُونَ العطاشُ بعـد المَتاه

وهنا تمنحُ الطبـيـعـةُ دفـئـاً وسكوناً عـذْباً وينبـوعَ ضَـوْء
ويداهـا تَمَسُّ فى روحنا جُـرْ حَ الـرَّدَى والـذبـولِ والـلاشـىء

إنّ هذا الجـمـالَ أقـوى من المو ت فـفـيـه عُـمْقٌ وفـيـه خُلودُ
هل خَلَتْ هذه المجـالـى من الأغـ ـنام يوماً؟ وهل تلاشَى النشيـدُ؟

وزهـورٌ تـذوى وتـولـدُ آلا فٌ سـواها سـحـريّةَ الألوانِ
تمنحُ العطرِ والجـمـالَ غـذاءَ للـنسـيـمِ المعطّرِ النعـسـانِ

وطيـورٌ تَسقـى الوجـودَ كـؤوساً من أناشـيـدها العـذَابِ النقـيّة
لا صـداها يمـوتُ، لا نـبْـعُـهـا يَنْـ ـضَبُ فى مَسْمَعِ الرَّوابى الشـذيّه

ومـجىءُ المساءِ- عند نضوبِ الـ ـضوءِ فى حافةِ الفضاءِ البـعيـدِ
أولا ينثُـرُ النجـومَ الكـحـيـلا تِ على جـبـهـةِ المسـاءِ الـوليـدِ؟

ها هـنا يولَـدُ الخلودُ كـمـا يو لَـدُ قَـطـرُ الـنَدى وعـطـرُ الـرِّياحِ
مـثلمـا يَنْبُتُ الضـيـاءُ أثيـريـّ ـاً ظَهُـورَ الأهدابِ كلَّ صَـبَـاحِ

ويموتُ الفناء، يضحكُ من فكـ ـرته الظلُّ والنّدَى والوَرْدُ
ونجومُ المساءِ تُبصرُ فى الآ فاقِ ما لا يُرَى وما لا يُحَدُّ

إنَّهُ الريِّفُ من ثَرَاهُ العبيرىٌّ المنَدَّى تُستنبتُ الأشعارُ
موطنُ الحبِّ والأغانى وأرضٌ غلَّفتْ رملَها الندِى أسرارُ

سرتُ فيه فجراً وسرتُ مساءً وعَرَفتُ الظهيرةَ العنبريّةْ
وارتوتْ من شذَى النخيل وعطِر الـ ـقمحِ روحى الطليقةُ الفَجْريه

سرْتُ فيه وحدى، سعادةُ قلبى غمرتنى وحدى، وغنّيتُ وحدى
إن هذا الفردوسَ يَنْقُضُهُ الإنـ ـسانُ: يُضْحى ضياءهُ ويُندِّى

تلك أكواخهم حصيرٌ وأحجا رٌ وبؤسٌ مخيم لا يزاحُ
تخجَلُ الشمسُ أن تمرّ عليها ويَحيدُ الضُحىَ ويكبو الصَبَاحُ

غُرَفٌ رثَّةُ المداخلِ والُجدْ رانِ سودُ تجولُ فيها الرِّياحُ
فى دجاها يعيشُ قومٌ جياعُ نَضَبتْ فى أيديهمُ الأقداحُ

ويغنى القُمْرىُّ تجرى السواقى ويلاقى الضياءُ تلةَ زنبقْ
ويُراق الجمالُ فى الفجر أكوا بأ ولا قلب فى القُرَى يتذوّقْ

شَغَلتهم أحزانُهم عن معاني الـ ـظلِّ والضوء والنّدَى الألَاقِ
عن مذاق الجمالِ في وردة خجـ ـلَى على شطِّ جدولٍ رَقْراقِ

كيف يَرْقى الجياعُ في عالم الرّو حِ وهم في حبالة الجسْمِ أسْرَى
يعصرون الصخورَ بحثاً ولا قط ـرةَ ماءٍ تَبلُّ والروح حَرَّى

يحرثون المياهَ، يستنبتون الـ ـنارَ والموتَ يعزلون الرِّياحا
يا ضياعَ الإنسانِ يخدعه التيـ ـهُ ويسرى ولا يُلاقى صباحا

هؤلاءِ الجياعُ في عُزلةِ الحِرْ مانِ تمتدُّ حولهم أسوارُ
لفَّ أرواحهم حجاب كثيف وانطوت في عيونهم أسرارُ

خلف باب الكوخ الكئيبة قمر يٌّ يغنى ألحانَهُ ومُنَاهُ
لا هُم يسمعونَهُ لا ولا القُمْـ ـريُّ يدرى ذهولَهُم عن غناهُ

ليس يدرى القمريُّ ما يفعل الجو عُ بأهل الأكواخ كل شتاء
حينما تغمر الثلوجُ ثرى المر ج وتطويه عن عيونِ الضياء

حينما يجمدُ القطيعُ من البر د على المرج في شتاء حزينِ
حينما تُذْبل العواصفُ زهر الـ ـلوز والبرتقال والياسمين

حينمـــا تدفنُ الثلوجُ حــقـولَ الــ   ــقـمح والرزّ تحت ســوط الرياحِ
وجـــيـاع فى ظـلمـة الـكوخ لم تَذْ   ر بأحــزانهم عــيــونُ الصـبـــاحِ

ليس يدرى القـمرىُّ لا ليس يدرى   مـــا وراء الأكـــواخ من حـــرمـــانِ
يا ديـاراً سكّـانُهـا الجـوع والحـمّـ   ـى خـــــواءً مـن الـنـدى والحنـانِ

أيّهـــا الصـــادحُ المغنِّى على قّــمـ   ــة هـذا الـدوح الـنـدىّ الـبـلـيـل
دعْ أســـاهُ يا طيـــرُ لى، لمســيـــرى   فى لـيـــاليــــه، إنّ قلبى دليـلى

ضـاع فى هذه القُرَى حلمىَ المضـ   ــفـــور بالضـوء والندَى والـبـرودة
عطش اللحنُ فى شفاهى إلى الرىّ   إلى جنّة الـرؤى المفـــقـــوده

حــمـلتنى الأوهـامُ أوهامىَ العطـ   ـشى بعـيـداً ولم أجـد لى ارتواء
ســقط الريشُ عن جنـاح خـيــالى   وفـقـدتُ الرؤى فـقـدتُ الضـيـاءَ

يا سفينى ارحلـى، دعى شاطئ القر   يةِ إنّ المرْسى ضنين بـعـــيـــدُ
وغصـونُ الصفـصاف عارية السيـ   ـقـانِ والليلُ فـى الحـقــول أبيــدُ

أقلعـى أقلعى بـنا قــد ســئــمـنا   صـرَخـات الجـيـاع فى كلّ شـعْبِ
قــد رأينا الدمــوعَ فى كل جــفنٍ   ولمسـنا الـعـــويلَ فـى كلٍّ قـلب

ووداعـــاً يـا زيفُ جـــئناك بمـلو ئـيـن رؤيـا فـلـم تَـطُـلْ رؤيـانـا
إنّ فـى الأُفْق لمحـــــــةً من ديـارٍ هى أحـنى عـلى جـــراحُ مـنانـا

أنشودة الرياح

-٥-

حُلُمٌ وانطوى   في الفضاء المديدْ
كلَّما أخفقتْ   في رجاء فريد
شيَّدت في الذُرَى   حُلْمَها من جديدْ
لا تبالي اللظى   لا تبالي الجليدُ

خيَّبتها القُرَى   ودجاها الحزينْ
إنّ في أرضها   بشَراً جائعين
لم تجد عندهم   غير دمعٍ سخينْ
ومضَتْ في السُّرى   لا تني لا تلين

ثم أرستْ هنا   عند أهل اللحونْ
شعراءُ مَشَوْا   في ظلال الغصون
علَّ في نايهم   بعضَ لحنٍ حنونْ
ليس فيه أسىً   ليس فيه مَنُونْ

حدّقى ها هنا يا فتاة القصيدْ
إنّ فى كونهم رَجْعَ لحنٍ سعيد
انظرى تلمسى فى الظلام المديد
نشوةً غلّفت قلبَ هذا النشيدْ

فى عالم الشعراء

إنّه شـاطئ الـقـصـائـد والألـ ـحـان يمـتـدّ غـامضَ الكثـبـانِ
فـى حـنـايـاه كـلُّ ذرّةِ رمـلٍ رعـشـةٌ وانبـثـاقـةٌ وأغـانِ

علّنا واجـدون فـيـه الرحـيقَ الـ ـمُـشْـتَـهَى عـلّ فى ثناياهُ نجـمـا
نحن سـرنا مـرنّـحـين من الجـهـ ـدِ وكـان المسِـيـرُ صَلْداً أصـمّـا

فى ضـبـاب الآفـاق نسـأل مـاذا؟ أسَـرَابٌ مـا حـولنـا أم تلالُ
عـبـثـاً نلمـس المدى فـالمدى مُـسـ ـتـغلقُ السـرِّ مـبـهـم لا يُنالُ

وتجلّـى الدجـى ولاح لنـا فـجـ ـرٌ طرىٌّ لَدْنُ النسـيم بـليـلُ
مُرْهَـفُ الضوء لامَسَـتْ شفتـاه الـ ـمرجَ فاستـيقـظتْ قُرىً وسـهولُ

إنهـا رعـشـةُ الحـيـاةِ ومـيـلا دُ الأغـانى المُغَـروْرقـات الشـجيّـه
إنهـا العـالـم الذى ظلّلَ الـشـا عـرَ حـتى الصـخـورُ فـيـه نديّه

عـالـم كله انفـعـالٌ وحسٌّ شـاسع الغـور لا يُمَسُّ مـداهُ
واحـتشـادُ الشـعـورِ بحرٌ سـحيقٌ غـاصَ فى لا نـهـايةِ شـاطئـاه

عـالم الشـاعر الثـرىِّ الرؤى العَـذْ ... بِ الأغـانـى المرقـرَق الألوانِ
كل نبضٍ فـى قلبـه لحنُ حبٍ ... للمـدى للوجـود للإنسانِ

عـالمُ صيغَ مـن شـعـور رهيف ... وأحـاسـيسَ طَـلْقـةِ لا تـنامُ
والأغـاريدُ مـنبعُ لأسـاهُ ... فـهى فى صـمتِ روحِـه آلامُ

تلك مـأسـاته يبيت الليـالى ... سـاهد اللحن راثيـاً للحيـارَى
كلّمـا أنَّ فى الدياجيـرِ مظلو ... مُ بكـى الشـاعـر الرهيـف وثارا

أبـداً يـرقـب المدَى ويُـنَاجى الـ ... ـليلَ روحـاً وجبـهـةً وشـفـاها
فى حـيـاةٍ يَرى الخلىُّ ضُحَـاها ... ويعـيشُ الفـنّان تحتَ دجـاها

يرقـب الأشـقـيـاء أنّاتُهـم تجـ ... ـرح إحـسـاسَـهُ تـعـزُّ عليـه
دمـعـةُ فى جـفـونِـه وصـلاةُ ... من حنـانٍ تذوبُ فى شـفـتـيـه

يَسـهـرُ الليلَ يـقـبعُ الحـارسَ المكـ ... ـدودَ فـى خطوه الـرتيبِ الكليلِ
وَقْعُ أقـدامـه على شـاطئ الصمـ ... ـتِ أسى الشـاعـرِ الحنونِ النبيلِ

أطفئ الضـوء أيّهـا الشـاعـر المتـ ... ـعبُ وارحـم فـؤادك الموجـوعـا
كـاد يخـبـو ضـوءُ السـراج وتأتى ... ظُلُمـاتُ الـدُجَى عليـهِ جمـيـعـا

أنا قد جئتُ كونَكَ العابق الضو ... ئىًّ بحثاً عن حلمىَ المفقودِ
علَّ فى كأسِكَ الرحيقيةِ الولـ ... ـهَى شُعَاعاً من الضياءِ البرودِ

قلتُ، دنياهُ فرحهُ وضياءُ ... وعطاءُ خَصْبُ وروحُ ولونُ
وصلاةُ سحريّةُ الرجع ينثا ... لُ عليها عطرُ وضوءُ لَدْنُ

إنه الشاعر الطليقُ الذى يَغْـ ... ـزلُ همسَ الرياحِ لحناً ثريّا
إنه دفقة القصائد والأنـ ... ـغامِ ما زال روحُهُ ضوئيا

فلماذا أراهُ كالطيف ذبلا ... نَ طوتهُ انطفاءةٌ وسكونُ
مقلتاهُ مَأوَى الكآبة فى أهـ ... ـدابها يكمنُ الضياءُ الحزينُ

إنّه كالضياءِ فى طهره يُطْـ ... ـفئه الشرُّ والمعانى الدنيئه
أولا تذبل الورودُ إذا ما ... لامستْها يدُ الجفاف البطيئه

قلبُهُ للجمال كرَّس نجوا ... هُ وللّون والشذى والنقاءِ
لا يطيق الأذى ويحلم بالكو ... نِ طهوراً مضوًّأ الأنداءِ

هو والخير يبقيانِ صديقيـ ... ـنِ محبّينِ ليسَ يفترقانِ
وهو الحبُّ لحنُهُ الأبديُّ الطـ ... ـلقُ يَنْدَى من رقّةٍ وحنانِ

فـإذا مـا رأى الشـرور وقـد كـبـ ـلت الأرض ذاب روحـاً وقـلبـاً
وذوى حُلمُـهُ الإلهـيُّ وانثـا لتْ على روحه الكآبةُ سُحبا

ويَرَى الـزهرَ ذابلاً بعـد أن كـا نَ يُذيع الشـذى ظلالاً نديّه
فـيرى قـصّةَ الـذبولِ وتذوى فـى منـاه أسطـورةُ الأبديّه

(١٩٦٥)

عاشقة الليل

الطبعة الأولى ١٩٤٧

"أعـــبّـــر عـــمّـــا تحس حـــيـــاتى
وأرسم إحـــســـاس روحى الغـــريب
فـــأبـكى إذا صـــدمـــتنى السنين
بـخـنـجـــــرهـا الأبدى الـرهـيـب
وأضـــحـك مما قــضــاه الـزمـــان
على الهـــيكل الآدمـى العـجـيب
وأغـضـب حـــين يداس الشـــعـور
ويُســـخـــر من فـــوران الـلـهـــيب

نازك

ذكريات ممحوّة

وجهُكَ أخفاهُ ضَبَابُ السنينْ
وضَمَّهُ الماضى إلى صدرِهِ
ألقَى عليه من شبابى الحزينْ
أحزانَ قلبٍ تاه فى ذُعْرِهِ

وصوتُكَ الخافىْ خَبَا لحنُهُ
وأوحشَتْ سَمْعِىَ أصداؤه
فلستُ أدرى الآنَ ما لونُهُ،
ما رجعُهُ الصافى، وإيحاؤه

ولونُ عينيكَ، وأسرارُها،
وَشَعْرُكَ الداجى، وأمواجُهُ
غابتْ جميعاً، أينَ تَذْكارُها
فى ليلِ قلبٍ طال إدلاجُهُ؟

كم، في سكونِ الليلِ، تحتَ الظلامْ
رَجَعتُ للماضي وأيَّامِه
أبحثُ عن حبّيَ بين الرُّكامْ
فلم تَصِدْني غيرُ آلامِه

لم يَبْقَ شيءٌ غيرُ حزْني المريرْ
بقيَّةٌ من حبّيَ الذاهبِ
وذكرياتٍ من صِبايَ الغريرْ
ساخرةٍ من وجهيَ الشاحبِ

وأصبحتْ ذكراكَ وهْماً يلوح
يشتاقُهُ قلبي الكئيبُ الغريرْ
يا جسَداً، كالقبر، ما فيه روحْ
سمَّيتُهُ قلباً، فيا لَلْغُرور!

°

وأيُّ قلبٍ جامدٍ بارد
أيُّ حياةٍ تحتَ ظلِّ الخُمودْ
لولا صُراخُ الزَّمَن الحاقد
لضِقْتُ بالعيش وعِفْتُ الوجودْ

لم يَعُـــدِ الحُبُّ أسىً مُــخــرقــا
يُشْـــعـلُ أيَّامى بأحـــزانـه
ولم يـعُـــدْ جَــفْنَى مُـــغْـــرورقَـــا
يـخْـــرِقُـــه الدمْعُ بنيـــرانِه

لـم يَبْقَ إلا ثورةٌ واحـــتـــقـــارْ
مـلء حـــيـــاتى المُرَّة الحـــالمه
الـنـارُ ذابتْ وتـبـــقَى الشْـــرارْ
تـشْـــربُهُ أحـــلامىَ الـواهـمـــه

وطيـــفُكَ الخـــابى هَوَى نجـــمُـــهُ
وغـــابَ فـى الماضـى الرّهـيب الأبـيـــدْ
ووجـــهُكَ القـــاسـى ذَوَى رســـمُـــهُ
فى مُـــقْلتـى فـهـــو خـيـــالُ بعـيـــدْ

مَـــضَـى زمـــانُ كنتُ فـــيـــه الّتى
تفْـــتنُهـــا أنغـــامُكَ الـصـــاقـــيـــه
وروحُ أشـــعـــاركَ فى وحْـــدتـى
وحـــيـى الإلهـىُّ وأشـــعـــاريَـه

مَـــــضَـى وأبـقى لـى فـــــؤاداً يـرَى
فـــيكَ جـــمـــاداً مـن تراب وطـينْ
أسكنتُـــــهُ يومـــــاً أعـــالى الـذُّرَى
وأرجـــعَـــتْـــهُ للحـــضـــيضِ السنينْ

لـم يَبْـقَ منكَ الآنَ شيءُ جـــمـــيـلْ
غـــيـــر اســـمِكَ الـعـــذْبِ وأصـــدائه
ذكـــرىً لقلـبٍ كـــان يـومـــاً نبـــيلْ
فـــبـــات فى حَـــمْـــأةِ أهوائـه

مـــلامحُ الهـــيكلِ عـندى آمـــحتْ
الوجـــهُ، والبَـــسْـــمـــةُ، والمُقْلـتـــانْ
لـم يَـبْـقَ إلا اسمٌ، وروحٌ خَـــــوَتْ
وذكـــريـاتُ قـــد مَـــحَـــاها الـزمـــانْ

مَـــــدذت كـــــفَّى إلـى جــــوِّهـا
باحـــثـــة عـن ســـحْـــرها الســـابقِ
فـلم أجـــــدْ ثَمَّ ســــوى شِلْوهـا
يَسْـــــخَـــرُ من مـــدمــــعىَ الـدافقِ

وعـــاد قلبي لـلأسى والعـــذابْ
مــسـتـوحـشـاً حـتّى مـن الذّكـريـاتْ
من يُرْجِعُ الماضي إذا مـا الضَـبـابْ
ألقى دُجـاهُ فـوقَ ليلِ الحـيـاةْ؟

ومـا مَـحَـاهُ الـزَّمنُ القـادرُ
أيٌّ يـد تكـتُـبُـهُ من جـديـدْ؟
فـيمَ إذنْ يـلتـفـتُ الشـاعـرُ
إلى دُجى المـاضي الـرهـيبِ الأبـيـدْ؟

١٩٤٦-٨-٢٠

ذكرى مولدى

مهداة إلى «كاملة» صديقة طفولتى التى
لم أعد أعرف عنها إلا اسمها.

جئتِ يا ذكرياتُ شاحبةَ الوجـ ـه حَيَارى فى موكب الأيّامِ
جئتنى والشبابُ باكٍ بعينىَّ وحولى جنازةُ الأحلامِ
رَغَباتى دفنتُها فى ثَرىَ الما ضى وقلبى ما عادَ غيرَ حُطَامِ
ودموعى رمزُ لما لقيته الر وحُ فى غيْهب الوجودِ الدامى

جئتِ يا ذكرياتُ ما أفظعَ الذكـ ـرى وما أروعَ الرجاءَ الفقيدا
ليتَ قلبى قد كان صخْراً أصمّا كلّ يوم يبنى رجاءً جديدا
ليتَهُ كان جامدَ الحسِّ كالطيـ ـنِ بعيشُ الحياةَ جذْلاً سعيدا
ليتَهُ لم يكنْ ويا ليتنى أعـ ـتاضُ عنه حجارةً أو حديدا

والتقينا مع الصباحِ فيا خَيْـ ـبةَ نفسى أىُّ التقاء مريرِ
وجهُكِ الشاحبُ المروَّعُ يُبْكيـ ـنى ويُحْيى ذكرى صِباىَ الغريرِ
وبعينيكِ قطرةٌ من دموعى وعلى فيكِ آهةٌ من زفيرى
أسفاً قد حفظتِ أحزان قلبى وتجاهلتِ نَشْوتى وحُبُورى

شَهِدَ الفجرُ كيف يا ذكرياتي ... كان هذا اللقاءُ أشجَى لقاءِ
عانقتْني أشباحُكِ الباكياتُ الـ ... ـخُرْسُ باليأسِ والشَّجا والبكاءِ
ووقفنا تحت الصباحِ تماثيـ ... ـلَ حيارَى كأنفسِ الشُعَراءِ
وانحنتْ فوقنا الشُجَيراتُ حزناً ... تتباكى بأدمعٍ خَرْساءِ

أسفاً ضاعت الطفولةُ في الما ... ضي وغابتْ أفراحُها عن جفوني
وهي لو تعلمينَ أجملُ ما يمـ ... ـلكُ قلبي وما رأتْهُ عيوني
حينما كنتُ طفلةً أجهلُ السرَّ ... وأحيا في غفلةٍ من شجوني
كالعصافيرِ أملأ الدارَ لهواً ... وغناءً وأستحبُّ جنوني

ماتَ أمسي الضحوكُ واعتَضْتُ عنه ... بشبابٍ مُرٍّ ودمعٍ ويأسِ
وَخَبَتْ ذكرياتُهُ البيضُ في بحـ ... ـر شعوري وليل قلبي ونفسي
أين تلك الوجوهُ؟ كيف نَسيتُ الآ ... نَ؟ من ذا يُعيدُ لي فجر أمسي؟
كلُّ وجهٍ عفّاهُ مَرُّ الليالي ... فهو طيفٌ وراءَ وعيي وحسِّي

أعبُرُ العُمْرَ كلَّهُ نحو أمسي ... ويعودُ الشعورُ بي للتلالِ
مجلسي فوق تلّيَ الحُلْوِ وحدي ... أو شُرودي بين الشَّذَى والظلالِ
ومعي الطفلةُ الصديقةُ نبني ... فوقَ وجهِ الرِّمالِ عرْشَ الخيالِ
عُمْرُنا قصّةٌ ولحنٌ نغنّيـ ... ـه وقلبانِ في نَقَاءِ الرِّمالِ

أين أصبحت يا رفيقةَ أمسي؟ ... ما الذي قد شَهِدت فوقَ الوجود؟
أترى تذكرينَ مثلي أيّا ... مَ صبانا وحُلْمَنا المفقودا؟
أم ترى قد نَسيتني ونَسيت الأ ... مسَ في فَرْحة الشّبابِ الرَّغيد؟
أبداً لسْتُ لستُ أنسى وإن كنـ ... ـتِ تهاويت في الزّمانِ البعيد

أترى أبصرتْ عيونُك في الأر ... ضِ كما أبصرتْ عُيوني شقاها؟
أرأيتِ الأحزان في كلّ قلب ... ورأيت النفوسَ في بلواها؟
أسمعت الصُراخَ يُرْسِلُهُ الأحـ ... ـياءُ والأرضُ أغرقتْها دماها؟
حدثيني صديقةَ الأمسِ هاتي ... عن لياليك بِشْرَها وأساها

ربّما كنت يا رفيقةُ مثلي ... زورقاً في البحار عادَ حُطَاما
الرّفيقاتُ غِبْنَ عنك وآثـ ... ـرنَ عليك الشرورَ والآثاما
فكتمت الشعورَ في قلبك الصّا ... في وصُنْتَ الأحزانَ والآلاما
وقضَيْتِ الحياةَ في الوحدةِ الخر ... ساءِ تَسْتلهمينها الأحلاما؟

أنصتي من مكانك الغامضِ المجـ ... ـهول أصغي الى نشيدي الصافي
أوَ تدرين ما الذي صَنَعَتْهُ ... سنواتُ العُمْر الرهيب الجافي؟
إنّه يومُ مولدي، يومُ أحزا ... ني وذكرى الرُسُوِّ عندَ الضفاف
حينما أوقفتْ سفينتيَ الأقـ ... ـدارُ بين الأمواجِ، تحت السَّوافي

إنّه يـومُ مـــولدي أيـن أفـــرا ح شـبـــابي أعـيـدُهـا للسِّنينا

كـيف مـرَّ العـامُ الحـزينُ بـقلبي الـ ـجَـهْمِ؟ أينَ الثـلاثُ والعشـرونا؟

كـيفَ مـرّتْ هذي الـسنينُ ولم أدْ رِ؟ ومـالـي ذوّبتُ عـمـري أنينا؟

لـم أنلْ مـن ظـلامـــــه المـرِّ إلاّ أمـــلاً ذاهبـــاً وروحـــاً حــزينـاً

إنّه يـومُ مـــولـدي ولقـــد مَـــرَّ بعُـمْـــري الداجي كظـلّ شـقيٍّ

عـشــتُهُ في قـصـائـدي ودمـوعي بين جُـدْرانِ مـعـبـدي الشـاعـريِّ

لا فـؤادٌ مــعي يُشــاركُني حُـزْ ني ويبـكي على شـبـابـي الدجيِّ

لا رفـيقٌ في غُـربتي ووجـومي غـيـرَ قلبي الشـجيْ ودَمـعي النقيِّ

١٩٤٦-٨-٢٣

الحياة المحترقة

«كتبت الشاعرة هذه القصيدة عندما
ألقت بمذكراتها إلى النار».

هذه يا نارُ أفراحي وشوقي وشجوني
جئتُ ألقيها إلى فكّيكِ في فجرِ الحزينِ
كلُّ ما مرَّ بقلبي من شَقَاء وحنين
إلْقَفيه الآنَ لا تُبقي ولا تَسْتَمهليني

هذه الأسطُرُ قد ضَمتْ بقايا سنواتي
منذُ أن ألقتْ بيَ الأقدارُ في تيهِ الحياةِ
طفلةً ترنو الى الشاطئِ عَبْرَ النظَراتِ
وتَرَى العالَم بحراً مُغْرَقاً في الظُلُماتِ

سَنَواتي كلُّها يا نارُ في هذي السُّطورِ
أغاريدي، وأشواقُ حياتي، وحُبوري
وبقايا من حنيني، وشظايا من شُعوري
وأباديدُ من الأحلامِ والحُزْنِ المرير

إنّهـــا أيتُـــهـــا النارُ، أزاهيـــرُ شـــبـــابي
صُـغْتُـهـا ذكـرىً لأحزاني، ورمـزاً لعـذابي
ومـحـا أسـطُرَها دمـعي وأبلاها اكـتـئـابي
خُـذيـهـا، وأعـيـديهـا رُكـامـاً من تُرابِ

أحْـرقيـهـا، لم أعُـدْ أعبـأ، لن أبكيْ شَـذاها
إنّهـــا، يـا نارُ، ذكـــرىً لليـــالٍ لـن أراها
دَفن الماضي خَـفـاياها الحَـوالي ومَـحَـاها
وطوتهـا لُـجّـةُ النسـيـانِ في عُـمْقِ دُجَـاها

ذهبتْ تلك الـليـالي وطوى الدّهرُ صـبـايا
أيُّ نَفْـعٍ بعْـدُ يا نارُ لـدَمْـعي وأسـايا؟
أيُّ مـعنىً لادّكـاراتي، وشـوقي ومُنايا؟
لن يعـودَ الأمسُ، لن تَلْقَى سَـناهُ مُـقْلتـايا

أيّهـا الحاضـرُ لا تُسـرعْ إلى الماضي البـعيـدِ
ولتَـقفْ مـركَـبَـةُ الشـمـس على الأفق المديدِ
ليكُـنْ بعـد صـبـانـا تحت أفـيـاء الخُلُودِ
آه وليَـمَّحِ لفظُ الأمـس، من سِـفْـرِ الوجـودِ

أو أبِدْ مــا تَرَكَ الماضــى من الأحــزانِ فــينا
وامــسحِ الذكـرى ولا تُبْقِ لنـا الشـوقَ الدفـينا
حـسـبُنا الحـاضـرُ آلامـاً ودمـعـاً وشُـجُـونا
رحــمــةً فلْتَــمْـسَــحِ الماضى وآثارَ السنِـينا

فـيمَ تبـقى ذكـرياتى حـيَّـةً بعـدى وأنْسَى؟
كلَّ يومٍ أســـرعُ الخَطْو عن العـــالـم يأســا
وهى مـازالتْ شبـاباً ناضراً، جِـسْمـاً ونَفْسـا
آه مـا أعنفَ أحـقـادى على الذكـرى، وأقـسَى!

أيُّهـا النـارُ الهَـبى فى المَوقِـد الذاوى الرهيبِ
وخـذى مـن فـتنةِ الذكـــرى غـذاء للَّهـــيبِ
إثأرى منـهـا، أعــيــديهــا رَمــاداً، وأذيبى
ودعــيــنى مــرّةً أضـحـكُ من قلبى الكئــيبِ

١٩٤٦-٦-٧

في وادي العبيد

ضاع عُمْري في دياجير الحياة
وَخبَتْ أحلامُ قلبي المُغْرَقِ
ها أنا وحدي على شطِّ المماتِ
والأعاصيرُ تُنادي زورقي
ليس في عينيّ غيرُ العَبَراتِ
الظلالُ السودُ تحمي مفرقي
ليس في سَمْعيَ غيرُ الصَرَخاتِ
أسفاً للعُمْرِ، ماذا قد بقي؟

سَنَواتُ العُمْر مرّت بي سراعا
وتوارتْ في دُجَى الماضي البعيدْ
وتبقَّيتُ على البحْر شراعا
مُغرَقاً في الدمْع والحزنِ المُبيدْ
وحدتي تقتلُني والعُمْرُ ضاعا
والأسى لم يبقِ لي حُلماً جديدْ
وظلامُ العيْش لم يبقِ شُعاعا
الشبابُ الغَضُّ يَذْوي ويَبيدْ

أيُّ مـأسـاة حـيـاتي وصـبـايا
أيّ نـار خلفَ صَـمْـتي وشَكاتي
كـتـمتْ روحي وباحتْ مُـقْلتـايا
ليـتـهـا ضنّتْ بأسـرار حـيـاتي
ولمن أشكو عـذابي وأسـايا؟
ولمن أرْسلُ هذي الأغنيـات؟
وحـواليَّ عـبـيـدٌ وضـحـايا
ووجـودٌ مُـغْـرَقٌ في الظُلُمـاتِ

أيُّ مـعنىَ لطُمـوحي ورجـائي
شَـهِـدَ الموتُ بضَـعْـفي البَـشـريِّ
ليس في الأرض لحُـزْني من عـزاء
فـاحـتـدامُ الشـرِّ طبْعُ الآدميِّ
مُـثُلي العُـلْيـا وحلْمي وسَـمـائي
كـلُّهـا أوهامُ قـلـبِ شـاعـريِّ
هكذا قـالوا... فـمـا مَعْنى بقـائي؟
رحـمـةَ الأقـدارِ بـالقلب الشـقيِّ

لا أريدُ العيشَ في وادي العبيدِ
بين أمواتٍ... وإن لم يُدْفَنوا...
جُثَثٌ ترسفُ في أسْرِ القُيودْ
وتماثيلُ اجتوتْها الأعيُنُ
آدميّونَ ولكنْ كالقُرودْ
وضباعٌ شَرِسَةٌ لا تُؤمَنُ
أبداً أسْمعُهم عذْبَ نشيدي
وهُمُ نومٌ عميقٌ مُخزنُ

قلبيَ الحُرُّ الذي لم يَفْهموهُ
سوف يلْقَى في أغانيه العَزاءَ
لا يَظُنّوا أنَّهم قد سحقوهُ
فهو ما زالَ جَمالاً ونَقاءَ
سوف تمضي في التسابيح سِنوهُ
وهُم في الشرِّ فجراً ومساءَ
في حَضيضٍ من أذاهُم ألفوهُ
مُظلمٍ لا حُسْنَ فيه، لا ضياءَ

إن أكنْ عـــاشـــقـــةَ الـلـيـلِ فكـأسى

مُـــشْـــرقٌ بالضـــوء والحُبِّ الـورَيقِ

وجـــمَـــالُ الليـلِ قــد طـهّـــرَ نفـــسى

بالدُجَى والهـمس والصـمْتِ العـمـيقِ

أبـداً يـمـلـؤ أوهــامـى وحـــــسّى

بمعــانى الـرّوحِ والشِـــعْـــرِ الرقـــيقِ

فــــدعـــوا لـى ليـلَ أحـــلامى ويـأسى

ولكـم أنتـم تبـــاشــيـــرُ الـشُـــروقِ

١٩٤٦/٨/٨

ثورة على الشمس

هدية إلى المتمردين

وَقَفَتْ أمام الشمس صارخةً بها
يا شمسُ، مثلُك قلبيَ المتمرِّدُ
قلبي الذي جرفَ الحياةَ شبابُهُ
وَسقَى النجومَ ضياؤه المتجدِّدُ
مهلاً، ولا يخدعْك حُزْنُ حائرُ
في مقلتيَّ، ودمعةٌ تتنهدُ
فالحزنُ صورةُ ثورتي وتمرُّدي
تحت الليالي؛ والألوهةُ تَشْهدُ

مَهْلاً ولا يخدعْك حزنُ ملامحي
وشُحوبُ لوني وارتعاشُ عواطفي
وإذا لمحت على جبيني حَيْرتي
وسُطُورَ حزني الشاعريِّ الجارفِ
فهو الشعورُ يُثيرُ في نفسي الأسى
والدمْعَ في هول الحياة العاصفِ
وهي النبوَّةُ لم تطِرْ فتمرَّدَتْ
الحُزْنِ، في وجهِ الحياة الكاسفِ

شَفَتايَ مُطْبَقتان فوق أساهما
عيناي ظامئتان للأنداء
تَرَكَ المساءُ على جبيني ظلَّهُ
وقضى الصباحُ على جديد رجائي
فأتيتُ أسكُبُ في الطبيعة حَيْرتي
بين الشَّذَى والوردِ والأفياء
فسَخِرتْ من حُزني العميقِ وأدمُعي
وَضَحِكَتْ فوق مرارتي وشقائي

يا شمسُ حتى أنت؟ يا لَكآبتي!
وأنت التي ترنو لها أحلامي
أنتِ التي غنَّى شَبَابي باسمها
وشَدَا بفيض ضيائها البسَّامِ
أنتِ التي قدّستُها وتَخذْتُها
صَنَماً ألوذُ به من الآلامِ
يا خيبةَ الأحلام، ما أبقَيْتِ لي
إلا ظلالَ كآبتي وظلامي

ســـأحطِّمُ الصنَم الذى شــيَّـــدتُهُ
لك مـن هوَاىَ لـكلِّ ضـــوءٍ ســـاطعِ
وأديرُ عـــينى عن سَنَاك مُـشـيـحـــةً
مـــا أنت إلاّ طـيفُ ضـــوءٍ خـــادعِ
وأصـــوغُ مـن أحـــلامِ قـلبى جنّةً
تُـغْنـى حـــيــــاتى عـن سَنَـاكِ اللامـعِ
نحـنُ، الخــيــــاليّــيـنَ، فى أرواحـنا
ســـــرُّ الألوهـةِ والخلودِ الـضــــائعِ

لا تَنْشُـــرى الأضــواءَ فــوق خـمــيلتى
إن تُشـــرقى، فلغـــيـرِ قلـبى الشـــاعـرِ
مـــا عـاد ضـــوؤك يســتـثيرُ خـــوالجى
حَـــسْـبى نجــومُ الـليلِ تُلْـهمُ خـــاطرى
هنّ الصـــديقــاتُ الــســواهرُ فـى الدُجى
يفــهــمـن روحى وانفــجـارَ مــشــاعـرى
ويُرفْـن فى جَــفْنى خُـــيــوطَ أشـعـَّــة
فــضــيَّــةٍ، تحتَ المســاءِ الســاحــرِ

اللـيلُ ألحـــانُ الحـــيـــاة وشِــعْـــرُهـا
وَمطَـافُ آلهـــةِ الجـــمـــالِ المُـلْهِـمِ
تهــفـو عـليـه الـنفسُ غـيـر حـبـيـسـة
وتحـلِّــق الأرواحُ فــــــوقَ الأنجُـمِ
كم سِـــرْتُ تحتَ ظَـلامـــه ونجـــومـــه
نســـيِتُ أحـــزانَ الوجـــودِ المُظْـلمِ
وعـلى فـــمـى نَغَـمٌ إلـهىٌّ الـصَـــدَى
تُلْـقـيـــهِ قـــافلةُ النـجـومِ عـلى فـمى

كـم رُحـتُ أرقـبُ كـلَّ نجـمٍ عـــــابرٍ
وأصــوغُ فى غَـسَق الظلامِ مــلاحنى
أو أرقبُ الـقَـــمَـــرَ المودِّعَ فى الـدُجى
وأهيـمُ فى وادى الخـــيـــال الفـــاتنِ
الصــمـتُ يبـعَثُ فى فــؤادى رعــشـةً
تحت المســـاء المُـدْلهـم الســـاكنِ
والضــوءُ يرقُصُ فـى جـفــونى راسـمــاً
فى عُـــمْـــقـــهـــا أحـــلامَ قلبٍ آمنِ

يا شـمسُ، أمـا أنـت.. مـاذا؟ مـا الذى
تلـقـاهُ فـيك عـواطـفى وخـواطرى؟
لا تَعْـجَـبى إن كـنتُ عـاشـقـةَ الدُجى
يـا ربَّـةَ اللّهَـب المـذيـب الصـاهر
يا مـن تُمَـزِّقُ كلَّ حُـلْمٍ مُـشْـرقٍ
للحـالمينَ وكلَّ طـيف سـاحـرِ
يا مـن تُهـدِّمُ مـا يشـيّـدُهُ الـدُجى
والصـمْتُ فـى أعـمـاق قـلب الشـاعـرِ

أضـواؤك المتراقـصـاتُ جـمـيـعُـهـا
يا شـمسُ أضـعفُ من لـهـيب تمردى
وجنونُ نارك لـن يمـزِّقَ نغـمـتى
مـادام قـيـثـارى المغـرِّدُ فـى يدى
فـإذا غَـمَـرْتِ الأرضَ فَلْتَـتَـذكَّـرى
أنى سـأخلـى من ضـيـائك مَـعْـبـدى
وسـأدفـنُ الماضـىْ الذى جَـلَّلـتـه
ليـخـيِّمَ الـليلُ الجـمـيلُ على غَـدى

١٩٤٦-٧-٨

بين فكّي الموت

«كانت الشاعرة مصابة بحمى شديدة فنظمت هذه القصيدة الحزينة تودع الحياة وتستقبل العالم المظلم».

يا مساءَ الصَّيفِ الحزينِ خَبَا حُبِّـ — ـي لما فيكَ من أسىً وخُشُوعِ
وتبرَّمتُ بالسكونِ وبالأشـ — ـباحِ واعتَضْتُ عنهما بدموعي
لم يَعُدْ في قلبي هوىً لديَاجيـ — ـكَ فيا رحمةً بقلبي الوجيعِ
رحمةً يا ظلامُ يا صَمْتُ يا أسـ — ـرارُ بالخافقِ الشقيِّ المرُوعِ

ها أنا تحتَ دُجيةِ الليلِ روحٌ — مُستطارٌ في هيكلٍ موهونِ
صَرَخاتُ الحمَّى تحطِّمُ أحلا — مي وأحلامَ قلبيَ المحزونِ
يا عيونَ النجومِ لا ترمُقيني — لم يَعُدْ في سَنَاكِ أيُّ فتونِ
وامدُدي يا رياحُ كفَّيْكِ لُطفاً — وحناناً على فمي وجبيني

ها أنا بين فكي الموت قلباً — لم يَزَلْ راعشاً بحُبِّ الحياةِ
وعيوناً ظمأى إلى مُتَعِ الكو — نِ تُنَاجي مفاتنَ الأُمسياتِ
لم أزَلْ برْعماً على غُصُنِ الدهـ — ـرِ جديدَ الأحلامِ والأمنياتِ
فحرامٌ أن تَدْفِنَ الآنَ يا مو — تُ شبابي في عالمِ الأمواتِ

هـا أنـا عـنـدَ هُـوَّة الـزَّمـن الُمـظْـ ـلـمِ بين الأمــواتِ والأحـيــاءِ
منْ ورائى صـبـاىَ بين الأناشـيـ ـدِ ولـهـو الطُفُـولة الحـسناءِ
وأمـامـى وادى المنايـا قـبـورُ فى ظـلال المنّيـة الخـرســاءِ
أُفـقُ راعبُ رهـيـبُ المعــانـى ضمَّ أرجـاءَهُ الدُجى اللانهـائى

أيهـا الموتُ وقـفـةً قـبلَ أن تُغْـ ـرى بجـسْـمى سكونَـكَ الأبديّا
آه دَعنى أمــلأ عـيـونـى من الأنـ ـوارِ وارحمْ فـؤادىَ الـشـاعـريّا
آه دَعنى أودّعِ العـــودَ يـا مـــو تُ فـقـد كانَ لى الصديقَ الوفـيَّـا
وأرنِّمْ لحنَ الـوَدَاعِ لـدنيـــا ىَ لأمـضىْ للمـوتِ قـلبـاً شـقـيّـا

رحـمـةً بى، يا أيّهـا الموتُ، وأرفق بفــؤاد نـالتْ هَوَاهُ الحـيــاةُ
أَعْــفنى الآنَ من مـفـارقـة الدنـ ـيــا ودَعنى إلى غــد يا مَـمَـاتُ
لا أحبُّ الـظلامَ فـليَـكُ مــوتى ى غــد حينَ تغـرُبُ الظُلُمــاتُ
حـينمـا تضحكُ الـطبيـعـةُ فى الوا دى الأغنِّ الحـالى وتـشـدو الرُّعـاةُ

يا سكـونَ الليلِ العـمـيقِ وداعًـا إنهــا يـا سكـونُ آخــرُ ليله
لم يَعُدْ فى الجسْمِ الوَهونِ سوى بُقْـ ـيـا حيـاة ونَسْـمـة مُضْـمـحلّه
لم يَعُـدْ فى السِّـراج إلاّ وميضٌ شـاحـبٌ مـدَّ حـولهُ الموتُ ظلَّهْ
وانتَـــهى يا ظلامُ تحـــتَكَ تَجْــوا لى وشــعْــرى وأغنيـاتى الُمـملّه

وسـتـمــحـو الأيّامُ ذكْــرَ فـتــاة شَـغَـفَـتْـهـا إلهـةُ الشـعـرِ حُبّـا
فـقَـضَتْ أمـسـيـاتـِهـا تتبعُ الأطـ ـيـافَ والعـاصفـات شَـرْقاً وغـربا
يا جَـنَاحَ الخـيــال لم يَبْقَ ريشُ يا ظَـلامَ الفَـنَـاء لـم تُبْـقِ قَلْبـــا
ليسَ إلاّ جسْم تُضَعْضِعُهُ الحمّـ ـى وطرف يَطْوى الدَيَاجيـرَ رُعْبـا

أيهـــا الليـلُ، أيّهــا العــالمُ الغــا مضُ قـد أسْدلَ الســتارُ المخـيفُ
فـارحمِ الآنَ تحتَ دُجيـتك السّـو داء قلبـاً غـامتْ علـيه الحـتُـوفُ
لَهْــفتـا يـا ظلامُ لن يَطْلعَ الفــجـ ـرُ ولن يـبـسـمَ الفـؤادُ اللـهـيـفُ
لهــفـــتـا يا ظلامُ لـهــفـةَ روحٍ لم يُمَــتَّعْ شـبـابهُ المشـغـوفُ

يا فـــؤاديْ الشَـريدَ ودِّعْ أمــانيـ ـكَ فلن نلمـحَ الصباحَ الجـمـيـلا
أنتَ يا من قـضَيْتَ عُمْـرَكَ مـفتـو ناً تُناجـي الرُّبى وتشـدو الحـقـولا
واسترحْ أيهـا الخـفـوقُ كَفَى حُـزْ ناً كــفـــانا تضــرُّعـــاً وذُهولا
لا يَرُعْكَ الرَّدى وحَــسْـبُكَ أنْ تَدْ ركَ يا قـلـبُ ســرَّهُ المجـــهــولا

فــيمَ تبكى علـى مُـفَــارقــة الدُّنْـ ـيا وقـد عشْتَ فى حـماها غـريباً؟
إنّهـــا أيهـــا المعـــذّبُ مـأســـا ةٌ تُثــيــرُ الأسى وتبـكى القلـوبا
تخـدعُ الجـاهليـنَ أوهامُـهـا السو دُ ولا تخــــدعُ الذكـىَّ الأريبـــا
فـاحـتـقـرها وسِرْ إلى عــالم الأمـ ـواتِ يـا قلـبىَ الرقـــيقَ طَـرُوبا

يا عـيونَ النجـومِ يا وَرَقَ الصَّفْـ ـصاف يـا فـتنةَ السكون وَدَاعـا!
لـن أغنّـيك بعـــد لـيـلىَ هـذا آنَ أن ينشُـرَ الـزَّمـانُ الشِّـراعـا
عـبـثاً يا حَـيـاةُ دفـعيَ للمـو جِ فلن أسـتطيعَ بعـدُ دفـاعـا
وغـداً سوف يطمُـرُ اللُّجُّ أشـلا ئى وتمضى بهـا الرِّياحُ سِـراعـا

يا بحـارَ الفنـاء فى العـالم المجـ ـهـول رِفْـقـاً بزورقـى المكدودِ
واحـشـدى حـولَهُ عـرائسَك الحـو رَ لعَلّى أسلو جـمـالَ الوجـودِ
فـأنـا يا بحـارُ شـاعـرةُ الأحـ ـلامِ ضـمـَّخْتُ بالفـتونِ نشـيدى
وتـغنّيتُ بـالحـيـاةِ ولكـنْ لم تَبَـرَّ الحـيـاةُ لىْ بالـوعـودِ

أيُّـهـا الـليـلُ آنَ أن يُطفئَ المو تُ شُـعَـاعَ الطُموح فـى مـقلتـيَّا
لن تـنالَ الآهاتُ من خـافـق المو ت ولن تُصْـغىَ الحـيـاةُ إليّـا
فـوَدَاعـاً من قلبِ عـاشـقـة الليـ ـلِ وَدَاعـاً وأنتَ يا مـوتُ هـيّـا
هكذا تـذبُلُ الحـيـاةُ ويخـبـو لحنُ أحـزانِهـا على شـفـتـيّـا

١٥-٦-١٩٤٥

السفر

أنا وحدي فوقَ صدْر البحر يا زورقُ فارجعْ
عبثاً أنتظرُ الآن فنجمي ليس يطلعْ
هبّتِ الرّيحُ على البحر الجُنونيّ المُروِّعْ
لتَعُدْ للشاطئ الساجي بقلبي المُتضرِّعْ

عُدْ إلى الشاطئ، عدْ ما عاد يحلو لي البقاء
ذهبَ البحرُ بأصحابي إلى حيثُ الضياء
أنا وحدي، أيها الملاّحُ، حُزْنٌ وبُكاءُ
يَرْجِعُ الزورقُ بي وحدي إذا جاءَ المَسَاءُ

ذهبوا للشاطئِ المسحورِ إذ عُدْتُ لوحدي
ذهبوا إلا أنا، عُدتُ بأحزاني وسُهْدي
لم أصِبْ في رحلتي إلاّ صَبَاباتي وجُهْدي
فليكنْ، يا بحرُ، هذا، بالمُنى، آخرَ عهدي

كـيف يا بحـرُ توارى الركْبُ خلفَ الجـزُرِ؟
كيف يَذْوى فى فؤادى الصّـبِّ حُلْمُ السَّفَرِ؟
عـزَّ يا بـحْـرُ على مـوجكَ بُـرْءِ الصَـدَرِ
فـلأعـدْ، لا رحــمـةَ الآنَ بـقلب القَـدَرِ

فـلأعـدْ للسـاحلِ المظْلـم قلبـاً مُسْـتَطارا
أدْفنُ الحلْمَ وأحـيـا زهرةً وسْطَ الصَّـحَارى
أبداً أروى أناشـيـدى بأحـزان الحيَـارى
أبداً أحْلُـمُ بالفَـجْـرِ فـلا ألقى الـنّهـارا

أيهـا الزَّوْرَقُ عـد بى، لم يَـعُـدْ ثَمَّـةَ حُلْمُ
قد مَـضى الرَّكْبُ ولن يُشرقَ فى أفـقى نَجْمُ
مـا الذى أرجـو ومن حـولى المَسَـاءُ المُدلهِمُّ
والأعاصـيرُ، وأشباحُ الدّيَاجى، والخِـضَمُّ؟

أيُّهـا الشّـاطئُ، يا مَنْبَعَ أحـلامى، وداعـا
سئمَ المجـدافُ فى كـفّىَّ دَفْـعاً وصـراعـا
كـيف ألقـاكَ وقـد مَـزَّقـتِ الريحُ الشِّـراعـا
ورجـائى فـيكَ بين المَوْج يا شـاطئُ ضـاعـا

فلأعدْ، لا سَفَرَ اليومَ إلى الأفق الجميلِ
لن أرى الشاطئَ، لن أحلُمَ في ظلٍّ النخيلِ
وغداً رحلتيَ الكبرى إلى وادي الأفولِ
آه فلأرحلْ إليه، فلقد حان رحيلي

فوَدَاعاً أيها الركبُ وَدَاعاً يا حياة
آنَ أنْ يُطْفِئَ أفراحي وأحزاني المماتُ
آنَ أن تهجُرَ قيثاري وعودي النَغَماتُ
فسلامٌ أيها الموتُ، سلامٌ يا رُفَاتُ

١٩٤٥-٧-٣٠

مرثية غريق

أيّهــا النَهْــرُ لقــد جــاء المســاءُ
وَمَـــشَى الصــمْتُ على الموجِ الوديعْ
وخـبــا في الأُفقِ الخــالى الضـيــاءُ
وتَلاشى وقْعُ أقـــــدامِ القطيعْ

سكن الكونُ ســوى الموجِ المُدَوِّى
أســاطيــرِ العُــصورِ الخــاليــاتْ
لم يَزَلْ يشكو المقـــاديرَ ويَرْوى
أبداً للكونِ أســرارَ الحــيـــاةْ

إيه يا ضِـفَّـــةُ مــا ذاكَ الخـيــالُ؟
فــوق صــدْرِ الموجِ، تحت الظُلُمـات
أ إلهٌ قــد تصــبَّــاه الجــمــالُ؟
أم غــريقٌ عــزّهُ حَبْلُ النجــاةِ؟

حــدّثيني، مــا أرَى خلفَ السِّيـاجِ؟
فــهــو يا ضـِـفّـةُ فـى الليـلِ مـريبُ
مــا الـذى ألمح فـى هـذى الـدياجـى؟
مــا تـراهْ ذلكَ الـشـىءُ الغـريـبُ؟

هـيكـلُ يغـطُسُ حـينـاً ثمَّ يـطـفـو
تـائهـاً تحتَ دُجـى الـليـلِ الحـزيـنْ
بَـشَـرٌ هـذا تـرى؟ أم هـو طـيـفُ؟
ليـتَ شِـعْـرى، يا دياجـى، مـا يـكونْ؟

آه يـا شـاعـرتـى، هـذا غـريـق
فـاحـزنى للجَـسَـدِ البـالى المُـمـزَّق
راقـداً، تحتَ الـدياجـى، لا يُـفـيقُ
والسَّنا مـن حَـوْلـهِ جَـفْنُ مـؤرَّقْ

يـا لَمَيْتٍ لـم يـودِّعْـهُ قـريـبُ
فـهـوَ فى النَهْـرِ وحـيـدٌ مُـتـعَبُ
مـا بَكَى مَـصْـرَعَـهُ إلاّ غـريبُ
هـو قـلـبـى، ذلـكَ المكـتـئـبُ

يا رياحَ الليل رِفْقاً بالرُّفات
واهدئي، لا تُقْلقي جِسْمَ الغريقِ
حَسْبُهُ ما مزّقتْ أيدي الحياة
فليكُنْ منكِ له قلبُ صديقِ

ولْتكنْ، يا نهرُ، أمواجُكَ حضنا
يتلقّاهُ وقلباً مُشْفِقا
ولْتكنْ، يا نجمُ، أضواءُك عَيْنا
تسكُبُ الدّمعَ على من غَرِقا

آه يا قيثارتي، أيُّ المآسي!
قد كرهْتُ الليلَ أضواءً وظلاّ
أيها الصيَّادُ، قفْ! ألقِ المراسي
إنّ تحتَ الليلِ جسْماً مُضْمَحِلاّ

هوذا، يا أيها الصيّادُ، جِسْما
خامدَ الأنفاسِ في حضْنِ المياهْ
وعُيوناً مُلئتْ رُعْباً وهَمّا
لم يزَلْ يملؤها حُبُّ الحياهْ

أيّها الصيّادُ، قفْ بالزورقِ
وانتَشلْ هذا الغريقَ البائسا
خُذْهُ للشاطئِ وادفنْ ما بَقِي
منه في القَرْيةِ وارجِعْ يائسا

ما الذي تصطادُ في بحْرِ الزَمَنْ
وغداً يصطادُكَ الدهرُ العتيُّ
نحن يا صيادُ أبناءُ الشَجَنْ
حفَّ مَحْيانا الشَقَاءُ الأبديُّ

كلَّ يومٍ بينَ أيدينا غريقُ
وغداً نحنُ جميعاً مُغْرَقونا
عالَمٌ حفَّ به الموتُ المُحيقُ
وتَباكَى في حِمَاهُ البائسونا

ضاقَ يا صيّادُ في عَيْني الوجودُ
يا لَكَوْن سِرُّهُ لا يَنْجلي
كلُّ ما فيه الى القَبْرِ يقودُ
ما الذي يَبْقَى لنا من أملِ؟

١٠-٧-١٩٤٥

على حافة الهوّة

جـــئـــتُـك، يـا هوّةُ، تحتَ الدُجَى
لـعلّـنى ألـقى لَـدْيك الخَـــلاصْ
لـم يبْقَ لـى فى الأرضِ مـــا يُـرتَجى
ولم يَـعُـــدْ لى مـن رحـــيلى مَنَاصْ

جـــئـــتُك حَـيْـــرَى فى ظلاّم الـدُجَى
يـدفـعُ أقـــــدامى جُـنـونُ الألَـمْ
جـــئتُ وروحـى فَـــزَعٌ صـــارخٌ
باسـمِ إله الـصـــمْتِ، بـاسم الـعَـــدَمْ

إليـك جـــسْـمى، كـــفّنى بالـشَـذَى
أشـــلاءَهُ الغـــضَّـــةَ واسـقـيـــه
ألـقـى عـلـيـــه بـاقـــــةً حُـلْـوةً
من زَهْـرِ أكـــتـــوبَـر، ضُـــمّـيـــه

وإن يكنْ تحتَ الدُجى بلبلٌ
فاستحلفيه أن يَصوغَ الرِّثاءْ
وإن تَسَاقَى الزَهرُ عِطرَ النَدَى
فقطرةٌ منه لجسمي ارتواء

البلبلُ يدري، ها أنا لم أزَلْ
بينَ جُنونينِ، ونفسي انفجارْ
أريد ان أحْيَا... ولكنّني
أحِسُّ بالثورة والإحتقارْ

هيّا إلى الموت، إلى صَمْتِه
فيمَ أخافُ الآن؟ فيمَ الألمْ!
عمّا قليلٍ تنتهي قَسْوتي
على حياتي، ويضجُّ النَدَمْ

عمّا قليلٍ يتصَبّى الدُجى
قلبي، بما في صَمْتِهِ من حياةْ
عمّا قليلٍ يَحْتويني الأسى
على وَدَاعِ الحبِّ والذكرياتْ

ها أنا في جُبْني، في موقفي
يخفقُ قلبي بالشَّذى باللَهبْ
تَرَدُّدي يصرُخُ بي ارجِعي
للشِّعْرِ، للأحلامِ، فيمَ الهرَبْ؟

وخَلْفَ نفسي هَمْسَةٌ كالصَدى
يكادُ يُفْنيها النِّداءُ الجديدْ
تهتُفُ بي: هيَّا فكفُّ الرَدَى
أحنَى على جُرْحِ الحياةِ المُبيدْ

وبين صَوْتيْ قلبيَ المُزْدَري
وروحيَ العاشقِ ضاعَ القَرارْ
ومرَّت الساعَاتُ ثم انطوتْ
ولم أزلْ في حَيْرةٍ وانتظارْ

وعُدْتُ للمَعْبد، لا جُثَّةً
محمولةً بل جَسَداً ماشيا
أسخَرُ من نفسيَ مما جَرَى
وأزدري إحساسيَ الباقيا

١٩٤٥-٧-٣٠

سياط وأصداء

«كان على أرض الشارع المبللة جسد حصان، وكانت السياط ترتفع ثم تهوى فلا تسقط إلا على جرح».

ما زلتُ أذكُرُ كلَّ شيء من صباحي الضائعِ
الراقدُ الدامي المجرَّحُ فوق أرضِ الشارعِ
وَصدَى السياطِ المرهقاتِ على الجبين الضارعِ

يا ثورةَ الإحساس في نفسي علامَ تَمَزُّقي
ألمي على الجسد الممزَّق بعضُ ضَعْفي الأحمقِ
وغداً سأدفنُ ما تبقَّى من حناني المرهقِ

يا ليتني عمياءُ لا أدري بما تَجْنيْ الشُرورْ
صمَّاءُ لا أصغي إلى وقعِ السياط على الظهورْ
يا ليتَ قلبي كانَ صخْراً لا يعذِّبهُ الشعورْ

يا ليتني، ماذا تُفيدُك، يا حياتي، ليتني؟
أحلامُك النَضراتُ باتَت في قُنوط مُحْزنِ
لن يسمعَ القَدَرُ المدمِّرُ فأصرُخي أو أذعني

يا نارَ عاطـفتي الرقيـقة، يا غـريبةُ في البَـشَرْ
وَقْعُ السياط على الظهورِ أشدُّ من وقْع القَدَرْ
والحسُّ في هذا الوجـودِ جـريمـةٌ لا تُغْتَـفَـرْ

لن تقتلي الشيطانَ في الإنسان أو تُحْيِي الملاكْ
وغداً ستطويك الليـالي في دياجيـرِ الهلاكْ
وغدا سيأسُرُكِ التـرابُ فلا شعورَ ولا حَرَاكْ

ما كان أثقلَ عبء أحلامي وآلامي وأقسَى!
فـامـشي بنا نحـو الفَنَاء لعلَّنا نَنْسَى ونُنْسَى
وليُسْـدَلِ السترُ المقدّسُ، حَسْبُنا غمـاً ويأسا

١٩٤٦-١٠-٢٤

نغمات مرتعشة

عُـــدْ، لـم يَزَلْ قلـبى نشــيــداً حــالما
يشــدو بحــبِّكَ لحنُهُ المفــتــونُ
عُـــدْ فـــالكـآبةُ أغــرقَتْ بـظلامــهــا
روحــى، فلـيلـى أدمُعُ وشُـــجــونُ
عُـــدْ، لا تَدَعْ نفـــسى يعــذبهـا الأسى
ويَعَضُ فــيــهــا خــافقٌ مـــحــزونُ
عُـــدْ فـالحــيـاةُ - إذا رجـعْتَ - أشـعـّـةٌ
ومـــشــاعــرٌ ســحْــريّـةٌ وفُــتُــونُ

خطـواتُكَ اللاّتى تـبـاعَــدَ رَجْـعُـهـا
فى مــســمــعى، تحتَ الظلامِ الـشـاحبِ
كلـمــاتُك اللاتـى تلاشى وَقْــعُــهـا
وخَــبَتْ بعــيــداً، فـى السُكون الـراعبِ
بَسَــمــاتُكَ الـلاتى خَـبَت ومَـضَــاتُهـا
فـى مُـــقْـلتىَّ، مع الـنهـــار الذاهـب
ذابت جــمــيــعــاً، والسـتــائرُ أسْـدلتْ
فى مَـسْـــرَحِ الأملِ الجـمـيـلِ الغـاربِ

ذهبَ النهارُ بشاعري، بنشيدِهِ
وبَقيتُ في غَسَقِ الظلامِ القاتمِ
أرنو ولا شيءُ يروقُ لناظري
وأصيخُ، أين مَلاحني ومَلاحمي؟
عُدْ، عدْ إلى روحي الغريبِ، فأدمعي
عصفت بأفراحي وقلبي الساهمِ
عُدْ يا نشيدي الشاعريَّ لمسمعي
ماذا يعوِّضُ عن صداكَ الحالمِ؟

حبّي الإلهيُّ النقيُّ ظلمتَه
ووفاءُ روحي الشاعريِّ العابدِ
قلبي الرقيقُ أسأتَ فهْمَ حنينِه
ونشيدُ أحلامي وروحُ قصائدي
لم أدْرِ ماذا كان، إلا رعْشَةٌ
في روحيَ الولْهي وقلبي الشاردِ
وخلا المكانُ وعُدْتُ أسألُ وحشتي
عن طَيْفكَ الناسي وحُبّي الخالدِ

مـا زلتُ مـنذُ ذَهبْتَ حَـيْـرَى فـى الدُجى
شـــهـــدَ الأسـى أنّى لزمـتُ مكـانيـــا
مـــا زال روحى راعـــشـــاً مـــتـــمـــزقـــاً
يســـتنطقُ الـســرَّ الغـــريبَ الخـــافـــيـــا
وهمـى يصــورُ لى خُطَاك ووقـعَـهــا
فـإذا أصـَـخْتُ صَـحَـوْتُ من أحـلامــيـا
لا شىءَ غـيـرُ الرّيـحِ تَعْـصِـفُ فى الدُجى
لا شىءَ غـــيـــر تَنَهُّـــدى وبـكائيـــا

١-١١-١٩٤٦

المقبرة الغريقة

«من ذكريات الفيضان المخيف الذى ألم بيغداد سنة١٩٤٦، هذه القصيدة تسجل فيها الشاعرة أثر سماعها بقصة مقبرة غمرتها مياه النهر المتوحش فى ماء عاصف».

فى ظُلْمـــة الليلِ المُخـــيفِ الرهيبْ
وتحتَ هولِ العـــاصفِ الأهوجِ
قَـبْـرٌ على التلِّ وحيـدٌ غـريبْ
رانتْ عليـه ظُلَّةُ العَـوْسجِ

قـبـرٌ وحيـدُ لم تَنَلْهُ المياهْ
مُـعْـتـصمٌ بالقـمَّة الساخرهْ
كـأنَّه يرمُقُ أُفْقَ الحياةْ
مُسْتـهـزئاً باللُّجَّةِ الدائرةْ

بالأمسِ قـد كـان هُنا عـالَمٌ
يغمرُهُ الموتُ بأستارِه
يهفو عليـه العَـدَمُ القاتمُ
فى وَجْمةِ الصَمْتِ وأسرارِه

مقبرةٌ أودعها البائسونْ
أشلاءَ أمواتِهُمُ الفانيه
يا جُثثاً ما كفّنتْها المَنُونْ
بغيرِ أطباقِ الثَرى العاريه

هذى الوجوهُ الشاحباتُ الجباهْ
وهذه الأشلاءُ والأعينُ
طَفَتْ حَيارَى فوق وْجهِ المياهْ
وعضّ فيها العَدَمُ المحْزِنُ

يا نهرُ لا تَقْسُ على الميّتينْ
حسبُكَ ما سبّبتَهُ من شقاءْ
حسبُكَ ما شرّدتَ من بائسينْ
وارفَقْ بسُكّانِ الثَرَى الأبرياءْ

روّعْتَ صمْتَ الأنفُسِ الراقدة
فى وَجْمةِ الموت وصَمتِ القبورْ
يا رحمةً بالجُثَثِ البارِدة
وليَكُ فى موجكَ بعضُ الشعورْ

فی کلِّ رُکْنٍ من دُجَی المقْبره
تَشْبَحُ أجْسادٌ وتطفو عظامْ
والرِّيحُ فی صَيْحاتِها المُنْكَره
واللیلُ ما زالَ رهیبَ الظلامْ

یا لَلْمساكین، أحتّی المماتْ
تَلْحَقُهم لَعْنَةُ أیّامِهم؟
ماذا جَنَوْا من مُبْهِجاتِ الحیاه
تری وما ألوانُ أحلامِهمْ؟

حتّی الرُقَادُ الهادئُ الآمنُ
یأباهُم إیّاهُ قَلْبُ السنینْ
یشهَدُ هذا المنظَرُ الساكنُ
أیُّ سُهادٍ، أیُّ لیلٍ حزینْ

یا ضَجَّةَ الإعصارِ لا تملئی
آفاقَ هذا العالمِ المُشْتكی
وأنت یا أمواجُ لا تهْزئی
بذلكَ الطافی علی وَجْهِكِ

لم يُبْقِ منه الدودُ شيئاً يُرَى
ولم يَذَرْ منه الردَى باقيا
هذا الرُفَاتُ الكالحُ المُزْدَرى
قد كان بالأمس فتًى لاهيا

يَنْسجُ تحتَ الليلِ ثوبَ الضياءْ
وينْثُرُ الحبَّ على العالَمِ
جذلانَ لا يعرفُ معنى الفناءْ
مُستغرقاً في نشوةِ الحالمِ

أهكذا تَفْنَى أغاريدُنا
ويهزأ الموتُ بأزهارها
وتملأُ الدنيا أناشيدُنا
يوماً، ونَثْوى تحت أحجارها

ما أفظَعَ المبدأ والمُنْتَهَى
ما أعمقَ الحُزنَ الذى نحملُ
ترفعُنا الأحلامُ فوقَ السُّهَا
وتهدمُ الأيّامُ ما نأملُ

وهذه المقبرةُ المُظلمة
نهايةُ المَسْعَى، فيا لَلْشقاءْ
أبعد هذى الجنّة المُلهمة
نسقطُ، فوقَ الشوكِ، صَرْعى الفناءْ

بكيتُ للأمواتِ طولَ المساءْ
وصُغتُ من دمعى النشيدَ الحزينْ
وفى غدٍ أرقُدُ تحتَ السَمَاءْ
قبراً سيبكى عندَهُ العابرونْ

قبرٌ، على التلِّ، وحيدُ غريبْ
رانتْ عليه ظُلَّةُ العَوْسجِ
فى ظُلمة الليلِ العميقِ الرهيبْ
وتحت هولِ العاصفِ الأهوجِ

١٣-٥-١٩٤٦

عودة الغريب

قلبيَ الذابلُ الحـزينُ الذي مـا ... تَ وذابتْ أفـراحُـهُ ومناهُ
قلبيَ الشـاردُ المعـذّبُ بـالأحـ ... ـلامِ مـا بين دمعـه وأسـاهُ
مـالَهُ الآن خـافـقـاً بـندى الحبِّ ... يـغنّي تحتَ الـنجـوم هَـوَاهُ
ويصـوغُ المُنَى ويَـرْجِعُ للـشا ... طئ جـذلانَ مُـرْسـلاً نجـواهُ

في غِـمار الماضي دفنتُ دموعي ... وتبـسّـمتُ لـلغَـد المـراحِ
ظَمَـأي لم يَـعُـدْ يعـذّبُ روحي ... وشـرودي تحت الدُجَى والـرِّياحِ
ذهبَ البـحر لم يَـعُـدْ مـاؤه الملـ ... ـحُ يُدَوِّي على مَسيلِ جـراحي
ها أنـا عندَ مـنبعٍ شـاعـريِّ الـ ... ـمـاءِ صـافٍ هامتْ به أقـداحي

ها أنـا الآنَ زورقٌ حـالمُ المجـ ... ـداف يَرْسـو على رمـالِ الضفـافِ
قلبـيَ الشـاعـريُّ مـلاّحُـهُ البـا ... سمُ يشـدو سـرَّ الوجـود الخـافي
شَـدَّ ما عـذّبتْ أغـانيَـهُ الغُـرْ ... بةُ واشـتـاقَ فـتنـةَ الصَـفْـصـاف
أبداً فـي عُـرْض الميـاه ينـادي الـ ... ـبحْـرَ يا بحرُ طالَ فـيكَ طوافي

أيُّهــا الطائفُ الغــريبُ لقــد عُــدْ　　تُ وهذى مــــفــــاتــنُ الآجـــامِ
هى ذى الضَّـفّـةُ الحــبيبـة يا مـلاّ　　حُ هـذى شــــواهـقُ الآكـــــامِ
إنّهـــا جـنّةُ الحـــيـــــاة تـلاقتْ　　عنـدَها الذكــــرياتُ بـالأحـــلامِ
فاهبـط الآن وانْسَ أشباحَـكَ السُّو　　دَ وذكـرى الماضى الحـزينِ الدامى

يا غـريبَ الأحلام إمْـسَح بقـايا الأ　　مسِ والـذكــــريات والأحــــزانِ
أصبح الأمسُ صَرْخَـةً فى حمَى الما　　ضى طَوتْـهـا سـتــائرُ النسـيــانِ
كلُّ أحـزانه العـمـيـقـات عـادتْ　　لفظـةً ضــمَّـهـا سـكونُ الزَّمــانِ
أطفـــأتْـهـــا الأيّامُ فـــهـى ظلامٌ　　ولهـــيـبُ خــابٍ وطـيفُ فــانِ

لا تُثــــرهُ دعْــــهُ يَنَمْ أبَدَ الـدهـ　　ـرِ وعـش أنتَ ضــاحـك الأهواء
أيّهـــا الميّتُ الذى تـبـضَت فــيـ　　ـه مــعــانى الحــيـاة بـعـد الـفناء
أيُّهـــا الظامئُ الـذى أبصَــرَ الـنبـ　　ـعَ قـريبـاً بعـدَ الصَدَى والشـقـاء
امـــلأ الـكـأسَ آن للـظمـــأ المُحْـ　　ـرقِ أن يرتـوىْ بشـــهـدِ الرجــاء

ذلك المـاردُ الحــقــيــرُ ثَـوَى فى　　ظُلُمـــاتِ الأمسِ البـعـيـدِ وغـارا
لن تَرَاهُ الأمـواجُ فى البحْـر بعدَ الآ　　نَ لن يمــلأَ النجـومَ احـتــقــارا
لن يُحيلَ الأحــلامَ فـيكَ دمـوعـاً　　ويعـــيـــدَ الأنغـــامَ هـولا ونارا
إنّه الآنَ مُـــغـرَقُ فى حـــمى المو　　ج فــلا تَخْشَ حِــقْــدَهُ الجـبّــارا

والحـيـاةُ التى تلقّـتْكَ بالـزهـ ـرِ تَـرنَّمْ بهـا تلالأ وعُـشْـبـا
هَبْ لهـا يا مـلاّحُ قلبـاً مـن النو رِ وروحـاً كـالشـعـر والحبِّ عَـذْبا
هَبْ لهـا ما ملكـتَ شوقـاً وأشعـا راً وعشْ للجـمـال روحـاً وقـلبـا
صُغْ لهـا البـحْـرَ كلَّهُ فى نشـيـد أرضـعـتْـهُ النـجـومُ ضـوءاً وحُـبّـا

عـادَ ذاكَ الغـريبُ يا مـعـبـدَ الحبِّ فـمُـدَّ الجناحَ فـوقَ أسـاهُ
إن يكنْ ضلَّ قلبُـهُ أمس فى البـحـ ـرِ فـقـد كـفّـرتْ دمـوعُ صِـبـاهْ
علَّمـتْـهُ عـواصفُ الليل حبَّ الـ ـفـجـر فلْتلـمحِ السَّنا عـيـناهُ
ولتضِعْ فى الماضـى البعيـدِ المجاذيـ ـفُ وتلـك الريـاحُ والأمـواهُ

أنْسـه حـبَّـهُ الذى مـاتَ وامنح قلبـهُ الشـاعـرىَّ حُلْمـاً جـديدا
حسبُهُ مـا أشـقـيتَـهُ أمسِ بالذكـ ـرى فـهَـبـهُ الحـيـاةَ ظلاً رغـيـدا
بمعـانيكَ قـرِّب النـجم والسُّحْـ ـبَ لعَـيْـنيـه والصِّـبـا والخلودا
يا شـبـابَ الحـيـاةِ يـا فـرحـةَ الدُنـ ـيـا ويا بابَ نُبْلهـا المفـقـودا

١٤-١١-١٩٤٦

الغروب

هبط الليلُ وما زالَ مكاني
عند شطِّ النهْرِ، في الصمْتِ العميقِ
شردتْ روحي، وغابتْ عن عِيَاني
صُوَرُ الحاضرِ والماضي السحيقِ
وامَّحَى في خاطري ذكْرُ الزَمانِ
وتلاَشتْ ذكَرُ الدَهْرِ المُحيقِ
ليسَ إلا الحُزْنُ يمشي في كياني
وأنا في ظُلْمةِ الليلِ الصديقِ

غَرِقَ الضوءُ وراء الأفقِ
وخلا العالَمُ من لون الضياءْ
ليس الاَّ رمَق في الشَفَقِ
حائلُ قد كاد يمحوهُ الفَنَاءْ
وأنا تمثالُ حُزْنٍ مُحْرق
وشَقَاءُ مُطْبقُ فوقَ شَقَاءْ
أرمقُ الأفقَ بطَرْفٍ مُغْرَقِ
تائه يَطْوى دياجيرَ الفَضاءْ

رفَّ حــولـى الليلُ والصــمْتُ الكئـــيبُ
وتمشَّــتْ فى كِـــيــانــى الرَعَـــشـــاتُ
أىُّ مـــعنىً هـاجَ فى نفـــسى الغُـــروبُ؟
أجـــفلتْ فـى جَـسَـــدى منه الحـيـــاةُ
وَسَـــرَى فى مـــســـمـعى هَـمْسٌ غـــريبُ
كـــلُّـــه هـــولٌ ورُعْـــبٌ وشَـــكَـــاة
واعـــتـــرانى خـــاطرٌ مُـــشْجٍ رهـيبُ
وتَـجَلَّى لخـــيـــالاتى المـمـــاتُ

ها أنـا وحـــدى تُنَاجـــينى هُـمـــومى
وكـــآبـاتـى وأشـــبـــاحُ الـفَنـاءِ
كلُّ مـــا حـــولى مُـــثـــيـرٌ للوُجـــومِ
مَـــصْـــرَعُ الـشــمسِ وأحـــزانُ المســاءِ
عـــبـــثــاً أطردُ عن نفـــسى همـــومى
عـــبـــثــاً أرجـــو شُـــعـــاعــاً من رَجَـاءِ
غَـــرِقَـتْ أحـــلامُ قلبى فى الغـــيـــومِ
وتلاشـت مـــثل أحـــلامِ الضـــيـــاءِ

أَقْــفَــرَ العــالَمُ حــولى لا نشــيــدُ
من صــبــىٍّ أو هُتَــافُ أو حـــفــيفْ
وخـــلا شـــاطئـىَ الســـاجى المديدُ
ومَـــشَــتْ فـى الجــوِّ أحـــزانُ الخـــريفْ
أنا والأمـــواجُ والـيـــأسُ الـشـــديدُ
وانـحـــــدارُ الـشـطِّ والـظلُّ الـوريـفْ
وحـــــوالـىَّ ظـلامٌ وركـــــودُ
ألقَــيــا الحـــزْنَ على حِـــسِّى الرهـيفْ

من بـعــيــد أبْصـــرُ الراعى الحـــزينْ
يُرْجِـع الأغنامَ فى صــمْـت الغـــروبِ
مُطْـرقـــاً أتعَـــبــهُ ركْـبُ السنيـنْ
فــقــضـــاها فى نحــولٍ وشُــحـــوبِ
هـو والأغـنـامُ حُـــــزنٌ وسـكـونْ
وخُطـىً فى مَـــســمعِ الليـلِ الرهـيبِ
وأنا أرمُـــقُــهمْ غَـــرْقَى الجـــفُـونْ
تحْتَ أحـــلامِ شـــبـــابى وكـــروبى

وبعيداً في الفَضاء المدْلهمِّ
خَفْقَةُ من جُنْحِ طَيْرٍ عابرِ
فاجأته ظُلْمَةُ الليلِ المُلِمِّ
وجبالٌ من سحاب ماطر
فسرى بين دجاجير وغيم
كخيال في فؤادِ الشاعرِ
لحظةً، ثم توارَى في الخِضَمِّ
بين أمواجِ الظلامِ الغامرِ

آه ما أرهَبهُ الآنَ سكونا
لا أعي فيه سوى دقّات قلبي
صَمَتَ الكونُ ونام المتْعَبونا
وهْوَ ما زال صَدَى حُزنٍ وحُبٍّ
نَظَراتي لم تَزَلْ حُلْماً حزينا
وخيالاتُ مسائي لم تَعُدْ بي
طفقت تصعَدُ بي أفقَ السنينا
وترودُ الكونَ من شَرْقٍ لغَرْبِ

ونُبَاحُ الكلبِ فى الحقْلِ البعيدْ
رفَّ فى سَمْعى ضئيلاً مُجْهَدا
مُوحشاً فى ظُلْمة الليلِ الوليدْ
غامضَ الوَقْعِ، غريباً كالصَدَى
كلُّ صَوْتٍ فى الدُجَى رُعْبٌ جديدْ
عندَ مَنْ قدْ كان مثلى مُفْرَدا
ذا فؤادٍ مُرْهَفِ الحِسِّ شريدْ
دَفَنَ الأمسَ ولم يَرْجُ الغدا

ومياهُ النَهر تجرى فى شُحوبْ
تحتَ أكداسِ الغُيومِ الجاثماتْ
وصَدَى طاحونة القَمْحِ الغريبْ
يُكْئب النفسَ بأشجَى النَغَماتْ
هكذا مرَّ على روحى الغُروبْ
غامضَ الظلِّ حزينَ الخطُواتْ
فوَدَاعاً أيُّها الجرْفُ الكئيبُ
وَوَداعًا يا غِمارَ الظُلُماتْ

١-١٢-١٩٤٦

عاشقة الليل

يا ظلامَ الليلِ يا طاويَ أحـــزان القلوبِ
انظُرِ الآنَ فـهـذا شَـبَحٌ بادي الشُـحوبِ
جاء يَسْعَى، تحت أستارِكَ، كالطيف الغريبِ
حـامــلاً في كـفِّـه العــودَ يُغَنِّي للغُـيـوبِ
ليس يَعْنيهِ سُكونُ الـليلِ في الوادي الكئيبِ

هو، يا ليـلُ، فـتـاةٌ شَهِـدَ الوادي سُـرَاها
أقـبـلَ الليلُ عليــهـا فــأفـاقـتْ مُـقْلتـاها
وَمـضَـتْ تسـتـقـبل الواديْ بألحـان أسـاها
ليتَ آفـاقَكَ تـدري مـا تُغنّي شَـفَـتـاها
آهِ يا لـيلُ ويـا ليـــتَكَ تـدري مــا مُنَـاها

جَنَّهـا الليلُ فـأغـرتهـا الدَّيَـاجي والسكونُ
وَتصَبَّـاها جمالُ الصَـمْت، والصَمْتُ فُتُونُ
فَنَضَتْ بُرْدَ نهــار لفَّ مَــسْـراهُ الحنينُ
وسَـرَتْ طيــفـاً حزيناً فـإذا الـكونُ حـزينُ
فـــمن الـعـــودِ نشــيجُ ومن الـليل أنـينُ

إيهِ يـا عــاشــقــةَ الـليلِ وواديـه الأغنِّ
هوذا اللـيلُ صَــدًى وحيٍ ورؤيا مُــتَــمَنِّي
تَضْحكُ الدنْيـا ومـا أنت سـوى آهة حُـزْنِ
فـخُذِى العـودَ عن العُـشْبِ وضُـمّيـه وغنّي
وصِـفى ما فـى المساءِ الحلْوِ مـن سِحْـرٍ وفنِّ

مـا الذى، شاعـرةَ الحـيْرةِ، يُـغْرى بالمسـاء؟ ٠
أهى أحـلامُ الصَبـايا أم خَـيـالُ الشـعـراء؟
أم هو الإغـرامُ بالمجـهـولِ أم ليلُ الشـقـاء؟
أم ترى الآفاقُ تَسْـتهويكِ أم سِحْرُ الـضياء؟
عـجـبـاً شــاعـرةَ الصـمْتِ وقـيـثـارَ المسـاء

طيفُكِ السـارى شحوبٌ وجلالٌ وغـمـوضُ
لم يَزَلْ يَسْـرى خـيـالاً لَفَّـه الليلُ العـريضُ
فـهـو يا عــاشـقـةَ الظُلْمـة أسـرارٌ تَفـيضُ
آه يا شـــاعـــرتى لن يُرْحَـمَ الـقلبُ المهـيـضُ
فارجِعى لا تَسْألى البَرْقَ فما يدرى الوميضُ

عَـجَـباً، شـاعـرةَ الحـيْرة، مـا سـرُّ الذُهُول؟
مـا الذى ساقك طيـفـاً حالماً تحتَ النخـيلِ؟
مُـسْنَدَ الرأسِ إلى الكفّـينِ فى الـظلِّ الظليلِ
مُغْرَقاً فى الفكر والأحزانِ والصمت الطويلِ
ذاهلاً عن فـتنة الظُلْمـة فى الحـقلِ الجـمـيلِ

أنصتى هذا صُراخُ الرعـد، هذى العاصفاتُ
فـارجـعـى لن تُدْركى سـراً طوتْهُ الـكائناتُ
قــد جَـهِلْناهُ وضنّتْ بـخـفـــاياهُ الحـــيـــاةُ
ليس يَدْرى العـاصفُ المجنونُ شـيئـاً يا فتـاةُ
فـارحمى قـلبَك، لن تَنْطق هذى الظُلُمـاتُ

١٩٤٥-٤-٤

فى وادي الحياة

عُـدْ بى يا زورقى الـكليـلا ... فلن نَرَى الشاطئَ الجميلا
عُدْ بى إلى مَعْبدى فإنّى ... سئمتُ يا زورقى الرحيلا
وضقتُ بالموج أىَّ ضيقٍ ... وما شَفَى البحرُ لى غليلا
إلامَ يا زورقى الُمعَنّى ... نرجو إلى الشاطئ الوصولا؟
والموجُ من حَولِنا جبالٌ ... سدت على خطونا السبيلا
والأفق من حولنا غيوم ... لا نجمَ فيه لنا دليلا
كم زورقٍ قبلَنا تولّى ... ولم يَزَلْ سادراً جَهُولا
فعد إلى معبدى بقلبى ... وحسْبُ أيامنا ذُهولا

حسبُكَ يا زورقى مَسيراً ... لن يُخْدَعَ القلبُ بالسَّرابِ
وارجعْ، كما جئتَ، غيرَ دارٍ ... قد حَلُّك الجوُّ بالسَحابِ
وملَّ مجدافُكَ الُمعَنّى ... تقلُّبَ الموجِ والعُبَابِ
ولم يَزَلْ معبدى بعيداً ... خلفَ الدياجيرِ والضَبابِ
يَشُوقُنى الصمْتُ فى حِمَاهُ ... وفتنةُ الأيكِ والروابى
عُدْ بىَ يا زورقى إليه ... قد حانَ، يا زورقى، إيابى
ما كفكف البحرُ من دموعى ... ولا جَلاَ عنّىَ اكتئابى
ففيمَ فى موجِه اضطرابى ... وأينَ، يا زورقى، رِغَابى؟

تائهــــةٌ، والحـــيـــاةُ بحْـــرٌ ... شــاطئُــهُ مُـبْــعَــدُ ســحــيق
تــائــهــــــــــة والــظــلامُ داجٍ ... والصـمْتُ تحت الدُجَى عــمــيق
يــا زورقـى آه لـو رَجَــــعْـنـا ... من قــبلِ أن يخــبــوَ البــريقُ
انـظُـرْ حـــــواَلَـيْكَ، أيُّ نَـوْءِ ... تجــمَــــدُ من هوله العـــروقُ
البــحـــرُ، يـا زورقى جُنونٌ ... ومـــوُجــهُ ثائرٌ دَفُـــوقُ
وكـلَّ يـومٍ لــه صـــــريعٌ ... فى هَجْـعــةِ الموتِ لا يُـفـيقُ
وأنـــتَ فـى المــوج والــدياجـى ... يـا زورقى فـى غـــد غـــريقُ
فـــعُــدْ إلى الأمس، عُــدْ إليــه ... قـــد شـــاقنى أمـسَى الـوريقُ

مــاذا وراء الحــيـــاة؟ مـــاذا؟ ... أىُّ غُـــمـــوضٍ؟ وأىُّ ســـرٍّ؟
وفــيمَ جـــئنا؟ وكـيف نمضى؟ ... يـا زورقى، بـل، لأىِّ بحـــرٍ؟
يـدفـــــعُكَ المـوجُ كـلَّ يومٍ ... أيـنَ ترى آخـــرُ المقَــــرِّ؟
يــا زورقـى طـال بـى ذهـولـى ... وأغـرقَ الـوهمُ جـوَّ عُــمْــرى
أسْــرى كـــمـــا تـرسمُ المقـــاديرُ ... لـى إلى حــــيثُ لستُ أدرى
شـــريدةُ فـى دُجى حـيـــاتى ... ســادرةُ فى غُـــمـــوضِ دَهْرى
فــــخــافقٌ شــاعـــرٌ، وروحُ ... قـــال لهـــا الدَهْر لا تَقَـــرِّى
ونـاطَـهـــــا بالـذُرَى تُـغنّى ... وتنـظِمُ الكونَ بيتَ شِــعْـــرِ

١٢-٦-١٩٤٥

أشواق وأحزان

أين منّى حـرارةُ الأمسِ، والحـا ضِرُ يمشى بين الأسَى والخمودِ؟
أسـفاً للماضى الإلهىِّ هل ما تتْ أغانيهِ فى فؤادى الوحيد؟
آه يا شـاعـرى لماذا تهاويْـ ـتَ بعيداً وراءَ أمسى البعيدِ؟
وأنا لم أزلْ صلاةً لعينَيْـ ـكَ وإعصار لهفةٍ وشُرودِ

آه هل غابَ عن ظلام حياتى كلُّ ما كان لهفةً وفُتونا؟
كيف ضاع الحبُّ الإلهىُّ يا طا ئرىَ الحُـرَّ فانفجرتَ ظُنونا؟
وأنا لم أزَلْ فؤاداً على الشو قِ يدارى غرامَهُ المدفونا
ليتنى كنتُ بُحْتُ يا حُلُمَ الرو حِ وأعلنتُ حُبِّى المكنونا

كيف مرّت أيّامُنا كيف مرَّت بين فلكٍ الأشواقِ والأحزانِ؟
ملء قلبى وقلبكُ الحبُّ والشّوْ قُ ولكن نلوذ بالكتمانِ
كلّما حدّثتْكَ عيناى بالحبِّ أعاقبْ عينىَّ بالحرْمانِ
كيفَ يا شاعرى كتمنا ولم يَعْـ ـصِ كيوبيدَ قبلَنا عاشقانِ؟

كيف ضاعتْ عواطفي؟ كيف أنْسَوْ كَ غـرامي وحَـيْـرتي ووفـائي؟
ملئـوا قلبَكَ النبيـلَ أباطيـ ـلَ وصـاغـوا كـواذبَ الأنبـاء
وقـضَيْتُ الأيام أذرف إحسـا سي دمـوعـاً وأسـتلذُّ شَـقـائي
لا لقـاءُ غـيـر الظُّنونِ ولا فـر حـةَ غـيـر الخـيـالِ والأصـداء

أنتَ أنتَ الذي احتـفظتُ بذكـرا هُ فلـم يَنْسَـهـا فـؤادي الـوفيُّ
كـيف غـابتْ عن ذكـرياتكَ أحـلا مي وشـوقي وحُـبّيَ الـروحيُّ
شَـهِـدَ العـودُ كـيف علّمـتُـهُ حُبّـ ـكَ مـثلي فـهـو المحبُّ الشـقيُّ
شـهـد المعـبـدُ الكئـيبُ لحـبْي أنّ حُـبّي مـخـلّدٌ أبَـديُّ

يا نشيـدي متى سـتـأتيكَ ألحـا ني فـتُـصْغي إلى هُتَافـات حبّي؟
فـيمَ أقـضي الأيّامَ أكـتُمُ أشـوا قي وقـد ضـاقَ بالعـواطف قلبي؟
أبداً نلتـقي فـأعـرضُ حَيْـرى ولقلبي الكئـيب أشـواقُ صبٍّ
إنّهـا الكبـرياءُ تمتلكُ الرو حَ فـيـبـدو المُحبُّ غـيـرَ مـحبٍّ

ضاعَ عُمْري الحزينُ في معبد الحزْ نِ وأذوتْهُ لـهـفـتي وشكـاتي
لم يزلْ حبّيَ العـمـيقُ عـمـيقـاً لم تـزدْهُ السنيـنُ غـيـرَ ثَبَـاتِ
لم أزلْ تضحكُ النجـومُ وتـبكي وتـغنّي علـى صَدَى آهاتـي
لم أزلْ في الحيـاة ورقـاءَكَ الحيْـ ـرى ومـا زلتَ أنتَ حُـلْم حيـاتي

١٥-٣-١٩٤٥

مدينة الحب

فى عُمْق صحراء الحياة، هناك فوق لَظَى الرمالْ
حيثُ الرياحُ الداوياتُ، مدينةٌ بين التلالْ

فى قلبها نهرٌ تُحيط به المفاوزُ والصخورْ
وشواطئ لا ظلَّ فيها، لا خمائلَ، لا عطورْ

الماءُ يبدو وادعاً ووراءَ الألمُ العميقْ
أمواجُهُ السُّمُّ الزُعَافُ وإن بدا حُلْوَ البريقْ

كم زورق خدعته جنّياتُهُ ورسومُهُ
كم حالِمٍ أودتْ به أمواجُهُ وسُمومُهُ

والشاطئُ الثانى يلوِّحُ بالجمال وبالفتون
حتى إذا قاربتَهُ أبصرتَ إعصارَ المَنُون

لا شيءَ غيرُ الشوك والأشلاء فوق صُخوره
لا صوتَ يُسْمَعُ غيرُ ضجَّةِ دوده ونسوره

اللَيلُ فيه مخاوفٌ ووساسٌ لا تَخْمَدُ
أبداً يزلزلُهُ صُراخٌ غامضٌ وتنهُّدُ

يا طارقَ البابِ المروِّعِ عُدْ ولا تهبِطْ هُنا
هذا الجمالُ سيستحيلُ دماً وماءً آسنا

هذى الشواطئُ، كلُّ ما فيها أسىً وتحسُّر
فحذارِ منها فالسُمومُ مُعَدّةٌ والَخنْجَرُ

عيناكَ لا تسكُبْ بريقَهما على ظُلُماتِها
وصِباكَ لا تدفِنْ مُناهُ فى شقاءِ حياتها

وفؤادُكَ الخفّاقُ صُنْهُ من قَذَى آثامها
ماذا رأيتَ من الحياةِ لتحتمى بظلامها؟

عُدْ، عدْ إلى لَهَب الصحارى وانجُ من حَمم المدينة
لا تُلْقِ قلبَكَ فى اللظَى وأصِخْ لشاعرةٍ حزينه

١٩-٧-١٩٤٦

إلى عينى الحزينتين

عـــــينىَّ، أىُّ أسىً يـرينُ عـليكمـــــا
ويُثـيــرُ فى غَــسَقِ الدُّجَى دمــعــيكمــا؟

إنى أرى خـلفَ الجــفُــونِ ضـــراعــةً
تســتنطقُ الـكونَ العــريـضَ المبْــهــمــا

أفـــقـــانِ تحت الـليلِ ألمحُ فـيـــهــمـــا
قَطَراتِ ضَــوءٍ يرتـشـــفنَ الأنجـــمـــا

الكونُ مـــبــتـــسمُ فـــأيّةُ لوعـــة
يا مـــقـلتىَّ تـلوحُ فـى جَـــفْنيكمـــا؟

مــسكـينتـــانِ، رأيتُـــمـــا مـــا لا يَرَى
جـــيلٌ أقـــام على الـضــلال وحَـــوَّمــــا

جَـــهِلَ الحـــقـــائقَ فى الحـــيـــاة، فلـم يُطِقْ
عن زيفـــهـــا هَـرَباً وعـــاش مـــهــوَّمـــا

مسكينتان كتمتُما حُمَم الأسى
فأبى تأوّهُ خافقى أنْ تكتما

فإذا الدموعُ غشاوةٌ رَّفتّ على
جَفْنيكما، سيلاً سخيناً مُفْعَما

ورأيتما، خَلَلَ الدُموعِ، مفاتنَ الـ
ـماضى وطاف الشوقُ فى أفقيكما

عبثاً تصوغان التوّسلَ فى الدُجَى،
قلبُ القضاء قَضَى بألا تَنْعَما

عبثاً، فيا عينىَّ لا تتضرَّعا،
لا شىءَ يَرْجِعُ بالجمالِ إليكما

حسبى وحسبُكما الرُضوخُ لما قَضَى
قلبُ الليالى فارضخا واستسلِما

كم حالمٍ من قَبْلِنا فَقَدَ المنَى
فَقَضى الحياةَ لوحدهِ متجهّما

يرَعى الليالي مانحًا ظُلُماتها
روحاً مجنحةً وقلباً مُلَهَما

عينيَّ، يا سرَّ الطبيعة، حَدِّثا
ماذا وراءَ الكائناتِ رأيتُما؟

رفعتْ دياجيرُ الحياة ستُورَها
لكما وأبدتْ سرَّها المُسْتَبْهما

هاتا حديثَ الموت، هاتا سرَّهُ
قد آن، يا عينيّ، أن تتكلما

ما شاطئُ الأعراف؟ ما ألوانُهُ؟
ما سرُّهُ الخافي؟ صِفَاهُ وتَرْجما

في صدريَ الخفّاق قلبٌ راعشُ
ما زالَ صَبّاً بالمفاتن مُغْرَما

لولاهُ، يا عينيَّ، ما غنّيتُما
بهَوَى الحياةِ ولا أصابكما الظَما

عُـــذراً إذا حُـــمّـلتُـــمـــا حُـــزْنَ الـدُنا
لولاىَ، يـا عـــينىَّ، مـــا حُـــمّـلتُـــمـــا

وكـــفى فـــؤادى، فـى الحـــيـــاة، شَـــقـــاوةً
أنّى جـنيتُ، مـع الحـــيـــاةِ، علـيكمـــا

١٩٤٥-٦-٢٥

خواطر مسائية

إذا زَحَفَ الليلُ فوق السُهُوبْ
ومرَّتْ على الأفْق كفٌّ الغيومْ
ولم يَبْقَ غيرُ السكون الرهيبْ
ونام الدُجَى تحت جُنْح الوجومْ

ولم يبقَ إلا نُواحُ اليمامْ
وهمسُ السواقى وأنّاتُهَا
ووقْعُ خُطَى عابرٍ فى الظلامْ
تمرٌّ وتخفتُ أصواتُها

جلستُ أناجى سكونَ المَسَاءْ
وأرْمقُ لونَ الظلامِ الحزينْ
وأرسلُ أغنيتى فى الفضاءْ
وأبكى على كلِّ قلبٍ غبينْ

أصيخُ إلى هَمَسات اليمامْ
وأسمعُ في الليلِ وقْعَ المطَرْ
وأنّات قُمْريّة في الظلامْ
تُغنّي على البُعْدِ بينَ الشَجَرْ

وآهات طاحونة، من بعيدْ
تنوحُ المساءَ وتشكو الكَلالْ
تمرُّ على مسمعي بالنشيدْ
وتفتأ تصدَحُ خلفَ التلالْ

أصيخُ ولا صوتَ غيرُ الأنينْ
وأرنو ولا لونَ غيرُ الدُجَى
غيومٌ وصمْتٌ وليلٌ حزينْ
فلا عَجَبُ أن أحِسَّ الشَجَا

رأيتُ الحياةَ كهذا المساءْ
ظلامٌ ووحشةُ جوٍّ كئيبْ
ويحلُمُ أبناؤها بالضياءْ
وهمْ تحت ليل عميقٍ رهيبْ

طبيعتُها أبداً باكية
فصمتُ الدُجى وأنينُ الرياحْ
وتنهيدةُ النَسَم السارية
ودمعُ النَدَى فى عيُونِ الصباحْ

وأبصرتُ عند ضفاف الشقاءْ
جموعَ الحزَانى وركْبَ الجياعْ
تُشرّدُهم صَرَخَاتُ القضَاءْ
وما أرسلوا هَمَساتِ الودَاعْ

وأصغيتُ لكن سمعتُ النشيجُ
يُدوّى صَدَاهُ على مَسمعى
وراءَ القصورِ وفوقَ المروجْ
فمن يا ترى يتغًنى معى؟

سأحملُ قيثارتى فى غدِ
وأبكى على شَجَنِ العالِمِ
وأرثى لطالِعهِ الأنكدَ
على مسمع الزمَنِ الظالِمِ

٢٤-١١-١٩٤٥

التماثيل

«هدية إلى قائمة الأسماء الغامضة المنطفئة التى
جاءت فى سفر التكوين من كتاب العهد القديم».

قد سئمتُ التفكير يا ليلى السا ... جى وألقيتُ بالكتابِ الحبيبِ
لم تَعُدْ هذه الصحائفُ توحى ... لى بغيرِ الحزنِ العميقِ المذيبِ
فهى صوتُ الآبادِ يحملُهُ الما ... ضى الى قلبىَ الشَجِى المشبوبِ
فيُدَوِّى فى عمق نفسىَ صوتُ الـ ... ـعَدَمِ المرِّ والفَنَاءِ الكئيبِ

أسفاً يا حياةُ ما هذه الأسـ ... ـماءُ؟ ماذا قد كانَ من أهليها؟
كيف مرَّتْ أيّامهم ليتَ شعرى؟ ... أترى أدركوا السَعَادةَ فيها؟
أم ترى لم يكنْ لهم من جَنَاها ... غيرَ كأسٍ من سُمِّها رَشَفوها؟
وطوَوْا لُجَّةَ الحياة سراعاً ... ثمّ ألقَوْا أعباءها ونَسُوها

أسلموا للترابِ والموتِ والظُلْـ ... ـمة تلكَ القلوبَ دونَ رجاءِ
وطَوَتْهم يدُ الزمانِ ولم تَبْـ ... ـقِ منهم شيئاً سوى الأسماءِ
آهِ يا موتُ يا مقادرُ يا تا ... ريخُ رفقاً بأنفُسِ الأحياءِ
أكذا يُسْدَلُ السِّتارُ على الأعـ ... ـمارِ؟ يا للأحزانِ يا للشّقاءِ

ليتَ كفَّ النسيانِ قد مَحَت الأسـ ... ـماءَ من قبلُ ليتَـها لم تَصُنْها
ليتـها لم تَدَعْ علـى صفَحاتِ الـ ... ـكُتْبِ ظلاً منهـا يحـدِّثُ عنهـا
تركـتْها سُـخْريّةً فـى فم الدهـ ... ـرِ وهُزْءاً من الحـيـاة ومنهـا
يا حـيـاةً همْنا بهـا وهْىَ ليل ... يأمـرُ الموتُ فى دُجَـاهُ ويَنْهى

أيُّهـذى الأسـمـاءُ يا من تبقَّـ ... ـتِ تماثيلَ ليسَ فيـها حيـاةُ
أنت يا مَنْ بالأمسِ كنت شُعوراً ... وقلوباً تَشُوقُهـا النَغَمـاتُ
كلُّ لفظ وراءَ أحـرفـه مَـعْـ ... ـنى حيـاة أتى عليـها الممـاتُ
كلُّ لفظٍ قلبٌ مَشَى تحتَ ضوء الـ ... ـشمسِ يومـاً وملؤهُ الرغَبـاتُ

واستحالت تلك القلوبُ رَمَاداً ... واستحالتْ أعمارُها ألحانا
كلَّ حيٍّ مَشَى به الأهلُ والأصـ ... ـحابُ للقبرِ يائسينَ حَزَانَى
وتصدَّى للذكرياتِ الحزينات ... تِ فتىً شاعرٌ يذوبُ حنانا
فشَدَاها أغنيّةً ظنّها تُبْـ ... ـقى حياةَ الموْتى وتعدو الزمانا

آه يا للمخدوعِ قد بقى اللحـ ... ـنُ ولكنْ أينَ الذينَ شداهم؟
أينَ ألحانُهم؟ وأين أمانى ... عمْرهم؟ أو حقولُهم وقُرَاهم؟
أينَ ما حدَّثوا به الليلَ والفجـ ... ـرَ؟ وأينَ ابتهاجُهم وأساهم؟
أسفاً شاعرى! لقد بادَ مَوْتا ... كَ وأبقَيْتَ فى الورَى ذكراهم

مـا تُفيـدُ الذكـرى وقد خَبَت الألـ ـحانُ واستسلمتْ لأيدى السكون؟
واستحال الأحياءُ فى الكُتْب أسما ءً تُثـيـرُ الأسَى لـقلبى الحـزينِ
لستُ أدرى مـاذا حـوَى كلُّ لفظ من مـعـان غـابتْ وراءَ السنينِ
لست أدرى إلا أسـاىَ وحُـزنىَ لضحـايا الماضـى وَصرْعَى المنونِ

وأنا يا حـيـاةُ مـاذا سـألـقَى؟ هل سأغدو لفظاً جَـفَـتْهُ المعـانى؟
هل سـتطويـنىَ الليـالى وتُلـقى فـوق عُـمْرى دياجـرَ النسيـان؟
وغـداً يـطفئُ الزَّمـانُ سـراجى ويُضـيعُ الرَّدى صَـدَى ألحـانى؟
ثم أغـدو بينَ التـمـاثيلِ تمثـا لاً؟ وأُمْـحَى من الوجـودِ الفـانى؟

آه لا لا أُريـدُ فلـتـرحمِ الأيـا مُ دمعـى وشَـقْـوتـى واكـتـئـابى
وليكنْ من لحنى الحزينِ صـدىً با قٍ بسَـمْـعِ السنيـنِ والأحـقـابِ
رحـمـةً لا تكنْ دمـوعى الدفُـوقـا تُ رثاءً مـبـكِّراً لـشـبـابى
وليُـسَـجَّلْ على ضـريحىَ مـا يُبـ ـقى شـبـابـى وإن أكن فى التـرابِ

هكذا ينـتـهى شـعـورى بحـرمـا نى وأنسَى مـأساةَ عُمْرى الخـادعْ
وأعـزِّى بأنّ فى الـكون من قـلـ ـبى بقـايا مـن الأسَى والمـدامعْ
ويقـولونَ: ذلكَ اسمُ فـتـاة طالما غـنّت الـنجـومَ الـلوامعْ
فـسـلامُ على أسـاها وذكـرا ها سـلامُ على صِبَـاها الضـائعْ

١٩٤٦-٦-٣

ذات مساء

ثورة من ألمٍ، من ذكرياتِ
خلفَ نفسي، ملء إحساسي العنيفِ
وجُموحٌ في دمي، في خَلَجَاتي
في ابتساماتيَ، في قلبي اللهيفِ

إن أكنْ أبسِمُ كالطفلِ السعيدِ
فابتساماتيَ وَهْمٌ وخِداعْ
إن أكنْ هادئةً، بين الورودِ
ففؤادي في جُنونٍ وصِرَاعْ

أيُّ مأساةٍ تَراها مُقْلتايا!
أيُّ حُزْنٍ عاصرٍ في نَظَراتي!
جَمَدَتْ فوق شِفائي شَفَتايا
وانحنتْ كفَّايَ تحت الرَعَشَاتِ

لا تَسلْني عن خيالاتي ولحني
فالدجى الآنَ يغيضُ في عيوني
أينَ ألقى بَصَري الباكي وحُزْني
إن أنا حولتُ عن كفّي عُيوني؟

أينَ أرنو؟ كلَّما حولتُ عيني
طالعتْني صورةُ الوجه اللهيف
ذلكَ الوجْهُ الذي ألهبَ فنّي
بمعاني الشِعْر والحبِّ العنيفِ

أيّها الغادرُ، لا تنظرْ إليّا
قد سئمتُ الأمل المُرَّ الكَذُوبا
حسْبُ أقداريَ ما تَجْني عليّا
وكَفَى عُمْريَ حُزْناً ولهيبا

فيم أبقى الآن حَيْرَى في مكاني؟
آه لو أرجِعُ، لو أنسَى شقائي
أدفنُ الأحزانَ في صَدْرِ الأغاني
وأناجي بالأسى صمْتَ المَسَاءِ

ليتنا لا نلتقي، ليتَ شَقائي
ظلَّ ناراً، ظلَّ شوقاً وسُهادْ
يا دُموعي، أيُّ معنىً للّقاء
إن ذَوَى الحبُّ وأبلاهُ البعادْ

أيّها الأقدارُ، ما تبغينَ منّا؟
فيمَ قد جئتِ بنا هذا المكانا؟
آه لو لم نكُ يا أقدارُ جئنا
ها هُنا، لو لم تَقُدْنا قَدَمانا

ما الذي أبقيت في قلبي الجريحِ
ليس إلا الألمَ المرَّ الشديدا
لم يَعُدْ في جسميَ الذاوي وروحي
موضعٌ يحتملُ الجرحَ الجديدا

أكذا تنطفئ الذكرى؟ ويَفْنى
حبّنا؟ والأمَلُ الشعريُّ يخبو
أكذا تذبلُ آمالىَ حُزْنا
وهي أشعارٌ وأنغامٌ وحبٌّ؟

خَـــدَّرَ الحـــزنُ حــيــاتى وطـواها
لـم تَعُـــدْ تَـعـنينىَ الآنَ الحــيـــاةُ
أبـداً ينطـقُ بـاليـــأسِ دُجَــاهـا
وتُغنّى فى فَــضَــاها العــاصــفــاتُ

لم يَـعُـــدْ مـن حُلُمى غــيـــرُ ظلالِ
مـن أسىً مـــرَّ على وجـــهى المريـرِ
آه لا كــــان بُكائى وخَـــيـــالى
أيّهـــا الليلُ، ولا كـــانَ شـعـــورى

والتــــقــــينا، لا فـــؤادُ يـتـــغنّى
لا ابتـــسامُ رســمـتْـهُ الـشَــفَـتـانِ
لم يَـعُــدْ إحـــســاسُنا شــعـــراً وفـنّاَ
ليـــتنا ضــعْنا ومـــاتَ الخــافــقــانِ

لم يـعـــدْ فى نـفـــسىَ الولَـهى مـكانُ
لأسـىً أو فــــرحــــة أو ذكــــريـات
أىّ مــــعنىً للـمُـنى؟ فــــاتَ الأوانُ
وذَوَتْ عــــينـاىَ، تحتَ الـعَــبَـــرَاتِ

والتــــقــينا فى الدُجَى، كـــالغـــربَاء
تحتُ جُنح الصــمتِ يطوينا الوجـــومُ
كلُّ شىءٍ ضـــاحك تحتَ الســمـــاء
وأنا وحــدىَ تـذوينى الهـمـــومُ

هكذا يا ليلُ صـــوّرتُ شــقـــائى
فى نشــيــد من كـــآبـاتى وحـــزنى
قـصّـــةٌ قــد وقــعَتْ ذاتَ مـســاء
وَحَــوَتْ روحى وأحـــزانى ولحنى

٢-٥-١٩٤٦

جزيرة الوحي

خُذني إلى العالم البعيدِ
يا زورقَ السِحْر والخلودِ

وسِرْ بقلبي إلى ضِفافٍ
توحي إلى القلبِ بالقصيدِ

جزيرةُ الوَحْي، من بعيدٍ،
تلوحُ كالمأملِ البعيدِ

الرملُ في شطِّها نَدِيٌّ
يرشَفُ من دجلةَ البَرُودِ

والقَمَرُ الحُلوُ، في سَماها،
أمنيّةُ الشاعرِ الوحيدِ

فلْتَسْرِ يا زورقي بروحي
قد آنَ أن يستفيقَ عودي

وآنَ للشعرِ أن يُغنِّي
بالحُلمِ الضاحكِ الشَّرُودِ

حُلمي، وقد صغتُهُ نشيداً
يهشُّ، من سِحْرِه، وجودي

شاعرتي، حدِّقي، فهذي
جزيرةُ الشِعْرِ والنشيدِ

لاحتْ، على البعْد، ضَفَّتاها
أمنيّةَ العالَمِ الجديدِ

إن لَهَت المقلتانِ عنها
صاحت بها الأمنياتُ: عودي

فَلْتبسمي، يا ابنةَ الأغاني
للشاطئِ الساحرِ المديدِ

ولْتُوقفي الزورقَ المُغَنِّي
تحت شُعَاعِ السَّنَا البديدِ

العـــودُ والـشِــعْـــرُ والأمـــاني،
شـــاعـــرتي، فـــاضْـــحَـي وزيدي

قـــد ضَـــحِكَ الـعُــمُـــر واســتـنـامتْ
عــــواصِفُ اليـــــأسِ والنـكـودِ

وانـقـلبَ اليـــــأسُ بشْــــريات
وأمـنيـــات، فـــأيُّ عـــيـــدٍ!

١٩٤٤-٩-٥

على وقع المطر

أمطرى، لا ترحمى طيفىَ فى عُمْقِ الظَلامْ
أمطرى صُبّى على السيلَ، يا روحَ الغَمَامْ
لا تُبَالى أن تُعيدينى على الأرضِ حُطَامْ
وأحيلينى، إذا شئتِ، جليداً أو رُخَامْ

اتركى ريحَ المساءِ المُمطرِ الداجى تُجَنُّ
ودعى الأطيارَ، تحت المطر القاسى، تئنُّ
أغرقى الأشجارَ بالماءِ ولا يُحْزِنك غصْنُ
زَمْجرى، دَوّى، فلن أشكوَ، لن يأتيْكِ لحنُ

أمْطرى فوقى، كما شئتِ، على وجهى الحزين
لا تُبالى جَسَدى الراعشِ، فى كفِّ الدُجونِ
أمطرى، سيلى على وجهىَ، أو غَشّى عيونى
بِلّلى ما شئتِ كفّىَّ وشَعْرى وجبينى

أغـرقى، فى ظُلْمـة الليـلِ، القُبـورَ البـاليـه
والطمى، مـا شئت أبوابَ الـقُصـورِ العاليـه
أمْطرى، فى الجـبَلِ النائى، وفـوقَ الـهـاويه
أطْفـئى الـنيـرانَ، لا تُبْـقى لحـىٍّ باقـيــه

آه مـا أرهَـبَكِ الآنَ، وقـد سـاد الـسكونْ
غيرَ صوت الرِّيحِ، فى الأعماقِ، تدوى فى جُنون
لم تَزَلْ تَهْمى، من الأمطارِ، فى الأرض، عُيونْ
لم يَزَلْ قلبـى حـزيناً، تحت أمـواجِ الدُّجـون

أيُّهـا الأمطارُ، قـد ناداكِ قلبى الـبَـشَـرىُّ
ذلك المُغْـرَقُ فى الأشـواقِ، ذاك الشـاعـرىُّ
اغْـسـليـه، أم ترى الحـزْنُ حـمَـاهُ الأبدىُّ
إنّـه، مــــثلَـكِ يا أمـطـارُ، دفّــــاقٌ نقـىُّ

أبداً يـســمعُ، تحت الليـلِ، وقْعَ القَـطَراتِ
سـاهمـاً يـحلمُ بالماضى وألـغـازِ الممـاتِ
يسـألُ الأمطارَ: مـا أنت؟ ومـا سرُّ الحـيـاة؟
وأنا، فـيمَ وجـودى؟ فـيمَ دمـعى وشكَاتى؟

أيهـا الأمطارُ ما مـاضيك؟ من أين نبـعت؟
ابنةُ البـحـرِ أم الـسُـحْبِ أم الأجـواء أنت؟
أم تُرَى من أدْمعِ الموتَى الحزَانى قد عصرْت؟
أم دموعى أنتِ يا أمطارُ فى شَذْوى وصَمْتى؟

مـا أنا؟ ما أنت يا أمـطارُ؟ ما ذاك الخـضَمُّ؟
أهُوَ الواقعُ مـا أسـمَعُ؟ أمْ صـوتُكَ حُلْمُ؟
أىُّ شىء حـولنا؟ ليـلٌ وإعـصـارٌ وغـيمُ
ورعـــودٌ وبـروقٌ وفـــضـــاءٌ مُـــدْلـهِمُّ

أسفـاً لستُ سوى حُلْمٍ على الأرضِ قصـيرِ
تَدْفنُ الأحـزانُ أيَّامى ويـلهـو بى شُـعـورى
لسـتُ إلا ذرةً فى لُجَّـــة الدهـرِ المُغــيـــرِ
وغـداً يجرفُنى التـيَّـارُ، والصمْتُ مـصيـرى

وغـداً تدفـعُنى الأرضُ سَحَـاباً للـفـضـاء
ويُذيـبُ المَطَرُ الدفَّـــاقُ دمـــعى ودمـــائى
مـــا أنا إلا بقـــايا مطرٍ، مـلءَ الســمـــاء
تَرجِعُ الـريحُ إلى الأرضِ به، ذاتَ مـســاء

أمْطري، دوِّي، اغلبي ضجَّةَ أحزاني ويأسي
أغرقيني، فلقد أغرقتُ في الآلام نفسي
إملئي كأسيَ أمطاراً فقد أفرغتُ كأسي
واحْجُبي عني دُجَى أمسي فقد أبغضتُ أمسي

٩-١٢-١٩٤٦

شجرة الذكرى

مــــررتُ بهــــا فـى المســـاءِ الـدَّجِىّ
فـــألـقـــيتُ رَحْلىَ فـى ظلّـهـــــا
وحــدّقتُ فى خُــضْــرِ أوراقِـــهـــا،
وروحى الـكئــيـبـــــةُ فى ليلـهـــا
فـــهـــاجتْ لقلبى دُجى الذكـــريات
وأتـرعـتُ لحـنـىَ من ويـلـهــــــــا
وصــيَّــرتُ مُـــتّكأى ســاقَــهـــا
وطافتْ شـــجــونى من حـــولهـــا

تـذكـــــرتُ، والقـلبُ فى حُــــزْنِه
وقـــوفـىَ، فى ظلِّـهـــا الســـاحــرِ
كـــــأنْ لـم تمرَّ الـلـيـــــالى الطِوالْ
عـلى أمــــسى المبـــــعـــدِ الدابرِ
وقـفـتُ أكـفكفُ دمـعى الســخــين
وأصـــــرُخُ من ألمى الآســــــرِ
أقصُّ على ظلِّـهـــــا قـــصَّـــتى
وقــــصَّـــةَ شـــاعـــرِىَ الغـــادرِ

قصصتُ عليها الحديثَ الكئيب
وفي يدَي الشوكةُ القاطعه
أمُرُّ بها، والأسَى غالبي،
على ساقِها البرَّة الوادعه
فيا ليَدي جَرَحتْ ساقَها
وجذَّتْ أزاهيرَها اللامعه
كأني بذاك جرحتُ الحياه
وعاقبتُ أقدارَها الخادعه

ومرَّتْ عليَّ السنينُ الطوال
وطالَعَني يوميَ الخالدُ
فأبصرتُ فيه أساىَ البعيد
يُحِسُّ به قلبيَ الواجدُ
فقلتُ لقلبيَ: هيا نَطفْ
بها، ولْيَثُرْ حزُنكَ الهامدُ
سنسألُها اليومَ عن جرْحِها
ألم يَشفِه الزَمَنُ الآبدُ

وعُدْتُ إليها، كأنْ لم تمرَّ
علىَّ السنين وأقدارُها
فؤاديَ ما زال مستأسراً
وروحيَ ما أطفئت نارُها
يُفَيِّئُني ظلُّها من جديد
وتحنو على القلب أزهارُها
فيا نُبْلَها، صَفَحَتْ عن يدي
وما زال عند يدي ثارُها

ودُرْتُ أسائلُ عن جُرْحِها
أما دملتْهُ أكفُّ القَدَرْ؟
فلم أرَ إلاَّ اخضرارَ الحياة
فليس عليها لجُرحٍ أثَرْ
وأما جراحُ فؤادي الحزينْ
فما زلنَ يشكونَ طولَ الصَدَرْ
فيا عَجَباً للزمان المسيء
متى عن إساءته يعتذرْ؟

١٤-٦-١٩٤٤

الخيال والواقع

رحمةً، لا تُنزلينى من سَمَائى
واتركينى فى خيالِ الشُعَراءِ

اتركينى، لا تُعيدى لى الظُنونا
ودعينى أملأ الدنيا لُحونا
وأصُغْ عُمْرى جَمَالاً وفُتونا
أبداً أصْدَحُ حبّاً وَحنينا
لحبيبى وأنا تحتَ سَمَائى
وخيالى، من خَيالِ الشُعَراء

اتركينى، أنا قد نُحْتُ طويلا
ودعينى أبصرِ الكونَ جميلا
شَبِعَ القلبُ دموعاً وذُهولا
فدعيه يقطعِ العُمْرَ جَهُولا
ويَعشْ مثلىَ فى ظلٍّ السماء
ويُشاركْنى خيال الشعَراء

رحـمـةً بـي، رحـمـةً، لا تُحـزنينى
ودعـينى فـى خـيـالاتـى، دعـينى
قـصّـةُ الإثـمِ وأنبـاءُ المُجـونِ
لا تَقُـصّـيـهـا على قلـبى الحـزينِ
ودعـيـه، فى تـعـاليـل السَـمـاءِ
ممعناً فى نَشَـواتِ الشُـعَـراءِ

إنْ يـكن قـلبىَ ظمـآنَ وفـيّـا
لا يَرَى فـى شـاعـرى إلا نـبـيّـا
أو يكـنْ يكـتُمُ حُـبّـاً شـاعـرياً
فـهـو مـا زال بأوهـامى يـحـيـا
أبـداً يرسُـمُ أحـلامَ السَـمـاءِ
ويـغنّـى أغنيـاتِ الشُـعـراءِ

قـد سـئـمتُ الـواقعَ المرَّ المملا
ولقـد عُـدْتُ خَـيـالاً مـضـمـحـلا
فـاتـركـينى بخـيـالى أتسَلّى،
آه كـاد اليـأسُ يـعـرونىَ، لـولا
أنّـنى لُـذْتُ بأحـلام السـمـاءِ
وتخّـيـرتُ خـيـالَ الشُـعَـراءِ

صوّري ما شئت لي الأمسَ وسحرَهْ
يومَ كان الحبُّ في كفّي زهره
ارسُمي للقلب أحلامَ المَسَرّه
ودعيني أذق الأفراحَ مرّه
علَّني أهبطُ من بَرُجِ السماء
ويجافيني اكتئابُ الشُعَراءِ

لا تُثيري ألمي، حسبُك أنّي
لم أزلْ في معبَد الحبِّ أغَنّي
لم يزَلْ حُلْميَ رؤيا مُتَمَنّ
كلَّ يومٍ يَهْدمُ اليأسُ وأبني
ولقد شيّدتُ لي بُرْجَ السَماء
وخيالاتي ووهْمَ الشعراءِ

لم يكن حبّي سوى حُلْمٍ غريبَ
مدَّهُ الوهْمُ على قلبي الكَئيبَ
أسفاً، لم يَبْقَ لي غيرُ شُحوبي
وأغاريديَ آلتْ للغروبَ
لم يَعُدْ لي غيرُ أحلامِ السماءَ
وخيالاتي ووهْمِ الشُعراءِ

١٩٤٥-٨-٣١

السفينة التائهة

فى لُجَّةِ البحرِ الرهيبِ سفينةٌ تحت السماءْ
ألقتْ بها الأقدارُ فى لُجَجِ المنايا والشَقاءْ
الريحُ تصرُخُ حولَها وتضِجُّ فى ظُلَمِ الفضاءْ
والموجُ يضرِبُها ويُلْقيها على شَفَةِ الفَنَاءْ

سارتْ ولا ربّانَ يَهْديها إلى الشطِّ السحيقْ
حَيْرَى يُخَادعها الظلامُ فلا شُعَاعَ ولا بريقْ
من فوقها هولُ الرعود وتحتها اللُجُّ العميقْ
سارتْ وما تدرى إلى أينَ المصيرُ وما الطريقْ

الريحُ مزّقت الشراعَ فأينَ يضربُ زورقى؟
والموجُ أطفأ ضوءَ مصباحى فماذا قد بقى؟
وغداً سينسكبُ الدُجى فى جَفْنَى المغرورقِ
وتسيرُ أمواجُ البحور على شبابى المُغرَقِ

لا شيءَ يمسحُ أدمعي، لا حلْمَ تَلمحُهُ عيوني
لا شاطئٌ ترنو إليه سفينتي، تحتَ الدُجونِ
كتبتْ لي الأقدارُ أن أمشي على شوكِ السنينِ
جسْماً تعذِّبُهُ كآبةُ خافقٍ جَمٍّ الحنينِ

رحماكِ يا أيدي الكآبة ما الذي قد كان منّي؟
ماذا جَنَيْتُ لتَعْصُري قلبي وأحلامي ولَحْني؟
أبداً تَمُدّينَ الجَناحَ على خيالاتي وفنّي
وتلوّنينَ مَشَاعري بسَوادِ آهاتي وحُزني

ويروحُ يصرُخُ تحتَ عبئكِ قلبيَ المتمرِّدُ
قلبي الذي ضاقَ الوجودُ به وعذّبَهُ الغدُ
قلبي الكئيبُ المُستَطَارُ الشاعرُ المتنهِّدُ
يحيا على ظَمَأ الحياة فأينَ أينَ الموردُ؟

كم شاعرٍ عَبَدَ الحياةَ وعاشَ يشدو بالجَمالْ
أبداً يغرِّدُ للطبيعة والكآبة والخيالْ
حتى إذا طَلَعَ الصباحُ على الصحارى والتلالْ
عثرَ الضياءُ على فتىً مُسْجىً على كُثُبِ الرمالْ

نَمَتْ عليـه كـآبةٌ، لم يَمْحُـهـا الموتُ الرهيبْ
ووشت به عينانِ رانَ عـليهمـا اليأس المُذيبْ
وإلى يمـين رُفَاتـه قيـثارهُ السـاجي الكئيبْ
حَفِظَ الوفاء لمن خَبَتْ ألحانُهُ وذَوَى اللهيبْ

يا ليلُ، ما نَفْعُ الأسى؟ يا بحرُ، ما معنى الدموعْ؟
النَوْءُ يصـخَبُ داوياً، والموجُ يهـزأ بالقُلوعْ
أَنَّى تسيرُ سفـينتي الحيْرَى إذن؟ أَنَّى الرُجوعْ؟
فلنمضِ للمجـهولِ، ذلك وحدَهُ مـا نستطيعْ

١٩٤٦-٧-٧

قلب ميت

نعم، مـــاتَ قلبي، أينَ أحــزانُ حـــبِّـــه؟
وأين أمـــانيـــه؟ وأيـنَ أغـــانيـــه؟
حــرارتُهُ أضـحـتْ رَمـاداً مـهـشَّـمـاً
وأحــلامُــهُ ذابتْ على صـدر مـاضـيـه
هـو الآن ثـلـجيُّ الـعـــواطـف، بـاردٌ
يُقــضِّي مع الأشــبــاحِ غُــرَّ لـيـاليــه
ويَرْعَــبُـــهُ ذكـــرُ المـمـــات وليـله
فـيــدفِنُ نيــرانَ الأسى في قــوافـيــه

وكــانَ له من قــبلُ هيكلُ مَــعْــبَـد
يُغـنّيــه في أحـــلامـــه وصَـــلاته
مـن الحُبِّ والأحـــلامِ صـــاغَ رُوَاءَه
وألقـى عليـــه أمنيــاتِ حـــيــاته
على صَـدْره الـشـعْـريّ تمثالُ شـاعـر
تـذوبُ مــعـــاني الـروح في نـظراتـه
يرىَ فـيـه إحـسـاسـي حـيـاة نقـيـةً
أطلَّتْ خـــفـــاياها على ظُـلُمـــاته

وكان صباحٌ... واستفقتُ فلم أجدْ
من المعبد الشعريِّ إلا رسومَهُ
تَحَطَّم تمثالي الجميلُ على الثرى
وألقى على قلبي النقيِّ همومَهُ
ورُحْتُ إلى حبِّي أمزِّق زهرَهُ
وأنثُرُ أحلامَ الصِبا ونجومَهُ
ويَنْضَبُ في قلبي جمالُ شبابه
وينفُثُ ليلُ الحزنِ فيه سُمومَهُ

وها أنا ذي عُمْري احتقارٌ وأدمعُ
وفي نفسيَ الولهى لَظَىً وتمرّدُ
أحنُّ إلى حبّي الجميلِ وإن يكنْ
أشاحَ عن التمثال جَفْني المسهَّدُ
وماذا تبقَّى الآنَ؟ شِلْوُ حجارة
تضيقُ بها نفسي، وصَخْرُ ممَدَّدُ
تَعَلَّقَ قلبي بالنجومِ وقلبُهُ
تمرَّغَ في الأوحالِ، والطينُ يشهَدُ

هنالكَ، فى الأمس البعيد، وليله
سأدفنُ تمْثالى وحُبّى وأدمعى
أشيِّدُ قَبراً من تمرُّدِ خافقى
وأسقيه من بُغْضى له وترَقّعى
أغنّيه ألحانَ احتقارى وثورتى
وتهزأ أضواءُ النجومِ به معى
وأزرعُ فيه الشوكَ والسُمَّ واللَظَى
وأتركُهُ شِلْواً كقلبى المروَّعِ

١٩٤٦-٧-٢٨

بعد عام

مرَّ عــامٌ يا شــاعرى مُنْذُ أبْصَرْ   تُكَ فى ذلك الصبـاحِ الكئيبِ
مرَّ عامُ لم تكتحلْ عينىَ الظمـ   ـأى برؤياكَ لم يخفّ قُطُوبى
الليـالى تمرُّ تتبـعُها الأيّـ   ـامُ فى بُطْئها المُملِّ الرتيب
وأنا لهفةٌ وشوقى يزدا   دُ وروحى فى عاصفٍ من لهيبِ
ظَمَأٌ للحياة يملؤ إحْسَا   سى ونارٌ فى دمعىَ المسكوبِ
وشظايا كآبةٍ رسمتْ فو   ق جبينى غُلالةً من شحوبِ

مرَّ عامُ من قال؟ هل أنا فى حُلْـ   ـمٍ بَنَاهُ تخيُّلى المصدومُ؟
أهْوَ وهمُ ما خلتُهُ سنةً أطـ   ـفأ أضواءها الزمانُ اللئيمُ؟
مرَّ عامٌ ولم أقابلْكَ، ماذا؟   كيفَ أبقتْ على حياتى الهمومُ؟
كيف طابتْ لى الحياةُ على بُعْـ   ـدك عنّى؟ ولم يُمتْنى الوجومُ؟
الشهيقُ الحزينُ فى هدأة الليـ   ـل، ألم يُلْقِه إليكَ النسيمُ؟
والشرودُ الذى أماتَ أحاسيـ   ـسى، أما حدّثتْكَ عنه النجومُ؟

لم أزلْ أذكرُ الصَّبَاحَ الذى مرَّ   نَدَىً فوقَ قلبىَ المكسورِ
منذ عامٍ فى الشارع الصاخبِ الممـ   ـتدِّ والشمسُ فى صفاءِ الأثيرِ
جمعتْنا هنالك الصُّدْفةُ الحلْـ   ـوةُ فى غَفْلةٍ من المقدورِ

والتقينا لم نبتسمْ لم أحدِّثـ ـكَ بما في فؤادي المعصورِ
لحظةً ثم أجهزَ الزَمنُ القا سي على قلبِ حُلْميَ المسحورِ
سرتُ يمنى وسرتَ يُسْرى ولم يَبـ ـقَ سوى ثورتي ونارِ شُعوري

ومَضى العامُ كلُّه، كلَّ يومٍ أتلقَّى الصباحَ بالأحلامِ
كلَّ يوم أقولُ: يا قلبي الظمـ ـآن للصَّحْوِ لا تضقْ بالغَمامِ
ربّما أشفقتْ بنا الصُّدَفُ العمـ ـياءُ هذا الصباحَ بعد الظلامِ
لن يضرَّ الأقدارُ في ليلها أن تتلقّاكَ مرّةً بابتسامِ
فتدبَّ الحياةُ ثانيةً فيـ ـكَ وتصحو خوامدُ الأنغامِ
ويُجَنَّ الشعورُ في عُمْقِ أعما قكَ حيّاً حرّاً من الآلامِ

مرَّ عامٌ ودقّتْ الساعةُ الحمـ ـقاءُ عشراً واستيقظتْ أحزاني
الثلاثاءُ لم يُعدْكَ إلى أشـ ـواقِ روحي الممزَّقِ اللهفانِ
مرَّ عامٌ كأنه حُلُمٌ مرَّ على جَفْنِ شاعرٍ وسنانِ
مرَّ عامٌ لم يبقَ منهُ سوى لحـ ـنٍ حزينٍ مُغْرورقِ الألحانِ
ليس إلاّ ابتسامتي المرّةُ الظمْـ ـأى ودقّاتُ قلبيَ الحيرانِ
ليس إلاّ ظلٌّ من الصمتِ واللهـ ـفةِ يبدو في جفنيَ الظمآنِ

٢٦-٦-١٩٤٥

العودة إلى المعبد

معبدى، عادت بى الأحزانُ فارأفْ بعذابى
عدتُ يا ليتكَ تَدْرى بعضَ آلامى وما بى
عدتُ والقلبُ شريدٌ تائهٌ بين الضَبابِ
يتلوَّى فى إسارٍ من حنينى واكتئابى

ذهبَ الأمسُ بأوهامِ فؤادى ومحاها
فإذا قلبىَ عبدٌ ولقد كان إلها
آه فارأفْ بفتاةٍ حطَّمَ الدَهْرُ مُناها
وأفاقتْ ليَهُدَّ الحزْنُ واليأسُ قُواها

مَعْبدى، افتَحْ لقلبى البابَ، قد طالَ وقوفى
أنا من ماتَ ربيعى فى أعاصيرِ الخريفِ
جئتُ ألقى بين كفَّيْكَ أسى قلبى اللهيفِ
علَّنى أحْظَى بظلٍّ فى مجاليكَ وريفِ

عُدْتُ، يا معبدُ، للصَمْت، فلن أشدوْ بحبّي
لم يَعُدْ قلبيَ يهفو فلقد ودّعتُ قلبي
حسبيَ الآنَ وجومي وكآباتيَ حَسْبي
حسْبُ روحي نارُ إحساسي وآهاتي ورُعْبي

أسَفاً، كيف ذوَى حُبّي ولحني ورجائي؟
ليتني كنتُ تناسيتُ، فلم أرْعَ وَفَائي
ليتَ حبّي لم يُعلّمني أغاريدَ السماء
ليتَهُ خلَّفَني في الأرضِ بينَ الأشقياء

رحمةً، ماذا تراني أفعلُ الآنَ بفنّي؟
هي ذي آلهةُ الشعْر فهل تمسَحُ حُزْني؟
هو ذا العودُ فهل يُسْعدُ روحي أن أغنّي؟
رحمةً بي، ما الذي قد أبقتِ الأحزانُ منّي؟

أين أمسي، وهو أحلامُ وألحانُ ولَهْوُ؟
أينَ أيّاميَ إذ قلبي من الأشواق خلْوُ؟
ما الذي أبقى ليَ الحبُّ؟ أجسْمي، وهو نَضْوُ؟
وفؤادي، وهو أوصالٌ؟ وروحي، وهو شلوُ؟

ادفنِ الأحـلامَ، يا قلـبي الخـيـاليَّ المُـحَطَّمْ
واسـتـفقْ مـن قـبلِ أن ينطفئَ الحُلْـمُ فـتندمْ
ما الذي أغراكَ بالحب؟ ومن أوحى وألهَمْ؟
عَـجَـباً، كيـف ترى الشـرَّ بعينيك وتحلم؟

استفقْ من حُلْمكَ الشـعريِّ وايأسْ يا كئيبُ
ذبلـتْ أغنيـــةُ الحـبِّ وواراها المغـــيبُ
وستـبقَى، أيّهـا المحزونُ، في الشـوقِ تذوبُ
أبداً ترجـــو رجـــوعـــاً لهـوى لـيس يؤوبُ

ثم مـــاذا؟ أيُّ حُلْمٍ ترتجي يـا ابنَ السـمــاء
أنتَ في الأرضِ، فـلا تحلُمْ بلُقْـيـا الأوفيـاء
لا تَلُمْ شـــاعـرَكَ الغـــادرَ وابسم للشـــقـاء
والتـجئ للعـودِ تَسْـعَدْ يـا حزينَ الشُـعَـراء

مـعبـدي، إفتح لقلـبي البابَ، لا تَقْسُ عليـه
لـيــــجـــدْ عـندكَ سَلْـواهُ لينـسى أملَـيـــه
يا لَمـــحـــزون شـــقيّ مـــزّقَ الشـــوكُ يديْه
ملءُ دنيـــاهُ عُـبُـــوسُ، فـابـتـسمْ أنتَ إليـــه

١٩٤٤-٨-٩

عيد الإنسانية

«٨/ ٥/ ١٩٤٥ يوم الهدنة»

فـى دمى لحنٌ من الشـــوقِ جـــديـدُ
والمجـــاليّ حَـــوَاليَّ نشَـــيــدُ
ليلتـى هذى ابتـــســـامٌ وسُـــعـــودُ
طـافَ بالأفْـقِ فـــغنّاهُ الـوجـــودُ
هى يـا قـيـشـارتى لحنٌ سـعـيـدُ
هى شـــعْـــرٌ، هـى وَحْيٌ، هـى عـــودُ
هـذه الليلـةُ لـلعـــالَـم عـــيـــدُ
وهى، يا قـيـشـارتـى، الحُلْمُ الوحـيـدُ

أين أوتـارُكَ يا عـــودى الحـبـيـبـا
شُـــدَّها واصـدحْ ولا تَبْقَ كـئـيـبـا
لم تَـعُـدْ دُنيـاكَ جَـمْـراً ولهـيـبـا
أنتَ يـا مَنْ عـشْتَ فى الكون غـريبـا
نَـغَمُ الـسِلْـمِ سَـرَى فـاحْـىَ طَروبا
وامـلأ الـدنيـا لُحـوناً وطُيـوبا
وانسَ أمَـسـاً مـلأ الكونَ خُطوبا
آنَ لـلأفـراحِ أن تمحـو الـكُروبـا

فــرحــةُ الـهــدْنـة، يا بُشــرَى لفنّى

أأنــا أحــلُـمُ؟ أم تــكــذبُ أذْنــى؟

أم هىَ الـفـرحــةُ قـد لاحتْ لعـينى؟

حُلُمَ الـصــادى ورؤيـا المتَــمنَّــى

يا إلـهَ الشِـعْـرِ نَحِّ الـصَـمْتَ عنِّى

آنَ أن أنسى ضــراعــاتى وحُــزْنى

آن أن أحـــيىْ الأمـــانىْ وأغنّـى

ومـــعى قلبى وأشـــعـــارى ولحنى

أنا مَن غَنَّتْ دمـوعَ الأشـقـيــاء

وبكتْ أشــعـــارُها للأبـريـاء

كم صـريعٍ قـبـرهُ ثـلجُ الشـتـاءِ

ويتـيـمٍ مـهـدهُ شـوكُ العَـراءِ

وصـبـايـا كـرَعَتْ سُمَّ الـقَـضـاءِ

قـبـلَ أن تَرشُـفَ كـأسـاً من هـناءِ

صُـغْتُ أحـزانى وحُـبى ووفـائى

هـو أحـزانى وحـبُى ووفـائى

ولقد صوّرتُ أحلامي سنينا
وهي ما زالتْ سَراباً. وظنونا
وإذا الرحمةُ تُنْجي الحالمينا
بالسَلامِ الحلْوِ، حُلْمِ المنشدينا
وصَدَى الوحي ولحنِ الشاعرينا
لم يَعُدْ قلبُ المقاديرِ ضنينا
فابسمي، شاعرتي، في الباسمينا
واملئي المعبدَ زَهْواً وفتونا

آه يا شاعرتي، غنّي الأماني
واسمعي، هذا هُتافُ المهْرجانِ
فالنواقيسُ، على البُعْد، أغانِ
بَشَّرَتْ بالفجر أحزانَ الزمانِ
وصَدَى السلْمِ على كلٍّ لسانِ
فاتنَ النغمةِ عُلْويَّ المعاني
إنها الفرحةُ، يدري المشْرقانِ
أقبلتْ تأسو جراحَ الحدَثانِ

١٩٤٥-٥-٨

ليلة ممطرة

ألآن يا نجمي تغيبُ ولم يَحِنْ وقتُ الأفولْ؟
ألآنَ والليلُ الجميلُ يُرِيقُ ضوءكَ في الحقولْ؟
والزَهْرُ، تحت الليلِ، نشوانٌ بمَشْرِقكَ الجميلْ؟
والنهرُ، والشطآنُ تضحكُ تحت أشجارِ النخيلْ

ألآنَ تغـرُبُ؟ يـا لَمـأسـاة الجـمـال الذابلِ
يا نجـميَ المأسورَ في كفِّ الضَبابِ الشـاملِ
يا فـيلسـوفَ الليلِ، يا سـرَّ الوجـودِ الذاهلِ
عَـبَـثـاً أناشـيـدي إلى أضـواءِ نجمٍ آفلِ

عـبثـاً سَـهِرتُ اللـيلَ أرنو والتفـجّعُ غـالبي
أتزوّدُ النَظَرَ الأخـيـرَ إلى ضـيـاكَ الشـاحبِ
وأصـوغُ ألحـانَ الرثاءِ على صـبـاكَ الذاهبِ
وأحوكُ من دمـعي الضيـاءَ لكلّ نجمٍ غاربِ

رحمـاكَ يا نجمى الجـميلَ متى نهـايةُ ليلتى؟
ومـتى ستنقـشعُ الغـيومُ وتسـتريحُ كـآبتى؟
قد شاقَ قلبى أن أحسَّ الصمتَ تحتَ خميلتى
وتجـوبُ عيناىَ الفـضاءَ وفى يدى قـيثـارتى

مازلتُ أنتظرُ السكونَ وليس غيرُ صَدَى المطَرْ
والريحُ فى سَـمْعِ المساء تئنُّ مـا بين الشَجَـرْ
لا طيرَ يمرَحُ فـى الحقولِ ولا أريجَ ولا زَهَرْ
لا شىء غير صراخِ رعـدٍ هاتفٍ بأسى البَشَرْ

ومن الظلامِ تصاعدَتْ آهاتُ قُمْرىٍّ الغصونْ
ذهبتْ بمـكمنه الرِّيـاحُ وعـزَّهُ المـأوى الحَنُونْ
حيرانُ، مرتعشُ الجناحِ، مجرِّحٌ تحتَ الدُجونْ
رحماكَ يا ربَّ العواصفِ، حسبُنا المطَرُ الهَتُونْ

أينَ الفضاءُ الحلوُ؟ أين الصَـحْوُ؟ أينَ سَنَا النجومْ؟
من جمع المطر الكئيب، وبث فى الليل الغيوم؟
يا ريحُ رفْـقاً بى ورفـقاً بالعـرائش والكرومْ
رفـقاً بقُـمْرىٍّ المروج فـقد أمـضتّـهُ الهُمـومْ

قـد كـان فى قـلبى أمـان يا رياحُ فـخُـنتـهـا
قـد كان فـي هذا المساء مَـفـاتنٌ فـمحـوتهـا
قـد كان فى المرجِ الجـمـيل عرائـشُ أذْبلتهـا
قـد كان فى ثَبَجِ الـسَمَـاءِ كـواكبُ أطفأتهـا

وبقيت، فى الليلِ الكئيب، أصيخْ للمطر الكئيبْ
وعلى فمى اللحنُ الغريبُ، يصوغُهُ قلبى الغريبْ
وتلوحُ لى خَلَلَ النوافذ ظـلمةُ الليلِ الرهيبْ
عبـثاً أغـذى موقـدى فالآنَ ينطفئْ اللهـيبْ

قـد حطَّمَ الإعصـارُ نافذتىَّ وانطفـأ الضيـاءْ
والآنَ لا أضواءَ حـولى غيـر إبراق الســماءْ
يا ضجَّةَ الإعصـار فى الآفاق، يا مَطَرَ المساءْ
الآنَ ألتـمسُ الـرُقَـادَ إلى غَـدٍ فـإلـى اللقـاءْ

١٩٤٦-١١-٦

أنشودة الأبديّة

«إلى القيثارة الإلهيّة التى منحتْ الإنسانية أروع الألحان، إلى تشايكوفسكى الموسيقىّ الروسى، ذكرى لمرور أربع وخمسين سنة على وفاته».

سأحبُّ الحياةَ من أجلِ ألحا ... نكَ يا بلبلى الحزينَ وأحيا
سأرى فى النجومِ من نورِ أحلا ... مِكَ ظلاً مُخَلَّداً أبديّا

سأناجى فى الليل جُنحاً من الأحـ ... ـزانِ يوماً ألقى عليكَ ظلالَهْ
سأحيِّى فى الكرمِ فيضاً من الأسـ ... ـرارِ أضفى يوماً عليكَ جمالَهْ

وإذا ثارت العواصفُ فى الليـ ... ـلِ وراءَ الحقلِ الرهيبِ الدجى
لمستْ روحىَ المشُوقةُ فيها ... ذكرياتٍ من روحِكَ النارىِّ

آه يا أيّها الملاكُ إلى رو ... حكَ، فى الموت، حنَّ روحى الحزينُ
أنا تلك التى حياتى على الأر ... ضِ اكتئابٌ ووحشةٌ وحنين

آه لو كنتُ عشتُ مثلكَ فى الما ... ضى وأبصرتُ وجهَكَ العُلْويّا
لو لا رأيتُ الإلهامَ يملأ عينيْـ ... ـكَ ضياءً ووجهَكَ الشاعريّا

آهِ لو بعتُ كلَّ عمرى بيومٍ		شاعرىّ يراكَ فيه وجودى
من بعيدٍ أرنو إلى الهيكل السا		مى وأصغى إليكَ يا معبودى

وأرى كيف يُغْرقُ الحزنُ مرآ		كَ وتبدو أسراره فى عيونكْ
وأحسُّ ارتعاشَ قلبك للحُسْـ		ـنِ وظلَّ الشُّرودِ فوقَ جبينكْ

وأرى كيفَ تُرْجفُ الوترَ المسْـ		ـحورَ كفّاكَ يا ملاكى النبيلا
كيفَ ترنو إلى الحياة وما فيـ		ـها وتَسْتلهمُ الوجودَ الجميلا

وأرى كيفَ يغسلُ الدمعُ عينيـ		ـكَ وتبكى فى وحشة الإنفراد
وأرى كيفَ يرقُصُ الألمُ الطا		هرُ فى مقلتيكَ قبلَ الرُّقادِ

كيف يأتى الدُجَى عليك فترنو		فى ذهول إلى ظلالِ الماضى
بينَ فكْ الذكرى يعذّبُكَ الشو		قُ وتبقى فى رَعْشةٍ وانتفاضِ

كيفَ تحتَ الدُجى تهيمُ على وجـ		ـهكَ بحثاً عن لحظة من هدوءِ
هارباً من صراخِ نفسك من دنـ		ـياكَ من عالم الورَى الموبوءِ

هارباً هارباً تحــــدِّقُ فى الـنهــ ـر ومـا فـوق مـائه من جليـدِ
تتـــمنَّى أن يَدْفِنَ الثلجُ بلـوا كَ بعـيداً عن اضطراب الـوجـودِ

آه يا بلبلى وقـد جـاءكَ المو تُ أخيـراً وغبتَ عـن دنيـانا
أخـمدَ الصـمتُ والفَنَاءُ أغـانيـ ـكَ ولم يَبْقَ غـيـرُ رَجْعِ أسَـانا

رَقـدَ الحـالمُ الإلهىُّ تحتَ الـ ـفَجْر جسماً مَيْتاً وروحاً أصمّا
كلُّ أنغـامـهِ السـمـاويةِ الظَمْـ ـأى وأحـلام روحـه عـدْنَ حُلْمـا

وعـلا ذلكَ الجـبينَ الأثيـرىَّ شـحـوبُ الموتِ المريرِ القـاسى
وهوى ذلك الإلهُ السَـمـاوىُّ على الأرضِ خـامـدَ الأنفـاسِ

عَـبَـثـاً قـبّلتْـهُ آلهـةُ الفـجـ ـرِ وغـنَّتـهُ أعـذبَ الأنغـامِ
عـبـثـاً ذكّـرتْهُ ربّةُ مـوسيـ ـقـاهُ بالذكـرياتِ والأحـلام

أيّهـا الموتُ أيّهـا الماردُ الشـرِّ يرُ يـا لعنةَ الـزَّمـانِ العنيـدِ
كيفَ ترضى يداكَ أن تقـتلَ الإلـ ـهـامَ؟ مـاذا تـركتَـهُ للوجـودِ؟

سوف تفنى يداكَ أنتَ ويبْقى ظلُّ ذاكَ الطيرِ الجميلِ الوديع
سوف تبقى نجواه تخفقُ فوقَ الأ رضِ بالحبّ والجمال الرفيع

أيُّها الحاقدُ الترابيُّ أمّا أنتَ فاحقدْ وعشْ على الأضغانِ
إنَّهُ الآنَ فوقَ حِقْدكَ فوقَ الأ رضِ، فوقَ الفناءِ والنسيانِ

١٩٤٧-٦-٣

على الجسر

يا نَهْرُ لا تحفظْ دمـوعى أو أسى قلبى المرُوعِ
اكتمْ- حنانكَ- ما تساقطَ فى مياهكَ من دموعى

ذهبَ المساءُ بكلِّ ما أبصرتَ من حزْنى العميقْ
ومحا الدُجَى من عُمرِ يأسى ليلةً لن تستفيقْ

انْسَ الذى أبصــرتهُ بالأمـس من أحـزانيــه
واكـتُمْ أساىَ وأدمـعى تحتَ النُجـومِ الحانيـة

انسَ الخطَى المُتـعَـثّرات وصـوتىَ المتـهدِّجـا
والدمعَ، يخنُقُ كلَّ ألـفاظى بكفٍ مـن شجـا

رحـماكَ أنتَ الكاتمُ الحـانى على المتـأوِّهينْ
وحنان مـوجِكَ كم طوَى قلباً يعـذِّبُهُ الحنينْ

أنتَ الذى شَهِـدَتْ ميـاهكَ أدمعى وتردّدى
أنتَ الذى سـمعت ضِـفافُكَ آهتى وتنهّـدى

ومَشَيْتُ فوقَ الجسر أبكى أمنياتى فى سكون
وأديرُ وجهى، نحو موجكَ، عن عُيونِ العابرينْ

أحزانُ حبىّ كلها، فى شاطئيكَ، نَفَضْتُها
أسرارُ روحى كلُّها، تحت الظلامِ، نَثَرْتُها

لم أستطعْ، يا نهرُ، كتْمانَ العواطفِ والشُعورْ
مَنْ يمنَعُ السيلَ القوىَّ من التَدفقِ والمسيرْ؟

وإذا طَغَى الحزنُ العميقُ فمن يرد هديرَهُ؟
وإذا ذوى الأمل الجميلُ فمن يُعيدُ عبيرَهُ؟

عَبَثاً أقاومُ نارَ أحزانى فلن يخبوْ اللهيبْ
أبداً تُذكّرنى الحياةُ بروعةِ الماضى الحبيبْ

حُلُمٌ إلهى الجمال رسمتُهُ تحت النُجومْ
وبنيتُهُ قصراً من الزَهْر المنضَّرِ فى الغيومْ

وصَبَبْتُ فيه، من حَيَاتى، صفوَهَا ونَقَاءَها
ونشرت فيه، من زُهورى، عطرَها ورُواءها

وهُرِعتُ، كالطفلِ النقيِّ، إلى رجائي الأوحدِ
فرأيتُ قصري الحلو أطلالاً تثير تنهّدي

لا شيء يمحو ذكرياتِ الأمسِ من قلبي الكئيبْ
لا نورَ ينقذُ في ظلامي، لا انطفاءُ للّهيبْ

في عُمْقِ أعماقي أعاصيرُ يُجَنُّ جُنونُها
وعلى جفوني رَسْمُ أحلامٍ يَضِجُّ حنينُها

أيّانَ أنجو من ظلالِ الأمسِ، أينَ ترى المَفَرْ،
والليلُ يعكسُ ذكرياتي، والأغاني والشَجَرْ؟

يا نهرُ فلْتَدفنْ شكَاياتي ومُرَّ شُجونها
الآدميّةُ إن بكَتْ فلضَعْفِها وجنونها

١٩٤٦-٩-٢٥

إلى الشاعر كيتس

الإشارات إلى قصيدته

"Ode to a Nightingale"

حــيــاتـى وآلامُ روحى الحــزيـنْ
وأحــــلامـىَ المُـرّةُ الـذاويـة
ومــوكـبُ أيّامىَ الـذاهـبـات
وأطـيــافُ أيّامـىَ الآتـيــه
تَجَـمَّـعْنَ فى باقـة من عـبـيـر
ثَوَتْ خلفـهـا روحىَ الفـانيـه
وأهديتُـهـا نَغَـمـاً حـالما
إلى روحكَ الحُـرّةِ البـاقـيـة

حــيـاتىَ، يا شـاعـرى، كلهـا
حـيـاة فـتـاة من الحـالمينْ
إلهـيـةُ الروحِ لكنَّهـا
على الأرضِ حـفْنَةُ مـاء وطينْ
تُعـذِّبـهـا صَـرَخـاتُ الأسى
وتُرْعِـشُـهـا صَـدَمـاتُ السنينْ
ولولاكَ مـا وجـدتْ فى الثـرَى
عـزاءً، ولـم يَجْـتـذِبْهـا الحنينْ

أناشيدُكَ الخالداتُ العِذاب
نشيدي وأغنيتي الهاتفه
فكم ليلة من ليالى الشتاء
دفعتُ بها ضَجَّةَ العاصفه
وأسمعتُها النارَ في مَوْقدى
وغنّيتُها الظُّلَّةَ الوارفه
وأيقظتُ في ظلّها فتنتى
ونارَ عواطفىَ الجارفه

وكم فى ليالى الخريف الكئيب
وقفتُ أحدّقُ عند النَهَرْ
أصيخُ إلى صوت قُمْرِيَّة
سَجَتْ فوقَ بعضِ غُصون الشَجَرْ
أفتشُ في صَوْتِها عن شَجَاكَ
وشكواكَ بين الأسى والفِكَرْ
وأسألها عن شباب ذَوَى
وظلٍّ صِبا راقدٍ فى الحُفَرْ

أقــولُ لهـــا: صَــوِّرى من جــديد
ظلام المســاء الكئــيب البــعــيــدْ
ومــا كــانَ من شــاعــرى فى دُجَــاه
وآهـاتـه وأســـــاهُ المُبـــيــــدْ
صِـــفى حُـــزْنَـهُ عنـد رأسِ المريـض
ووحــشــتَــهُ والـرَجَــاءَ البَــديدْ
صِـــفى ذلـك الجـــسَــدَ الآدمـيَّ
ومـــا قـــالَ عنـد وَدَاعِ الوُجـــودْ

صِــفى شــاعـرى كـيف أمـضى المســاء
عـلـى قَـــــدَمـىْ ذلـكَ المـيتِ
يُصـــيخُ إلى النَغَــمـــات الحـنون
ويُطـرقُ إطـراقـــــةَ المُنْـصـتِ
صِـفـيـه، كـمـا أرعـشتْـهُ الحـيـاة
أسـىً، تحتَ ســـيف الـردى المُصْلَـت
علـى كـــفِّـه رأسُـــهُ الشــاعــرىّ
وحـــيــداً، إلى جـــانب الجـثّـة

وكـــيـف تولّـى المســـاءُ الحـــزيـن
على شُــعْلة الشَــمْــعــة الـشــاحــبــة؟
وهــل صَـــــرَخَتْ فـى الـظلام الـريـاح
كــمــا صَـرَخَـتْ نفـسُـهُ الـصـاخــبــة؟
«هـنـالكَ حــيـثُ يمــوتُ الشــبـــاب
وتَـذْوى أشـــعـــتُـــهُ الغـــاربـة»
هـنـالـكَ حـــيـثُ الـذهـولُ الغـــريـب
يـودِّعُ روحَ المُـــنـى الــذاهـبـــــــة

وتَمْــضـى الليــــالى إلـى قَـــبْــرِها
وتَـمْـــشـى الحــيـــاةُ مـع الموكـبِ
أســيــرُ أنـا فى شـــعـــاب الـوجـــود
أفـــتِّشُ عن حُـلُمـى المُتْــعَـبِ
تُـخَـــادعُنى كـلُّ قـــمْـــرِيَّة
وتـعـــبَـثُ كـلُّ الأغـــاريـدِ بى
ومــا زالَ طـيــفُكَ طىَّ الخـــفَـــاء
تُحَـــجِّـــبُـــهُ ظُلْمـــةُ المـغْــرِبِ

٦-٢-١٩٤٧

-١-

«صوت التشاؤم»

هيَ ذي يا ظلامُ عاشقةُ الليـ ـلِ تُطيلُ التحديقَ تحت الدَّياجي
وقفتْ عند شاطئِ النَهْرِ تُصْغي لأنينِ الرِّياحِ والأمواجِ
وتَرَى الليلَ غيهباً راعبَ الظلِّ على رائعٍ من الأثباجِ
وتُحِسُّ الحُزْنَ العميقَ لحقلٍ أغرَقَتهُ المياهُ خلفَ السِّياجِ

وقفتْ في الدُجى تُحِسُّ الأسى المرَّ وتبكي في مَسْمع الظُلُماتِ
وتَرَى بالخيالِ ما حلَّ بالقَرْ يةِ والبائسين من وَيلاتِ
فَجَأتْهم، تحت الدجى، لجةُ المو جِ فباتوا صَرْعى القَضاء العاتي
ومَضَوا يضربونَ في ظُلمة الليـ ـلِ وما من منجى من المأساةِ

وتعالى تحت الظلام صُراخُ ردَّدتْهُ الرِّياح للأشجارِ
هو صوتُ الأحياء، في لجّة المو تِ وَصَرْعى الأمواج والأقدارِ
عبثاً تضرعينَ، عاشقةَ الليـ ـلِ لقلبِ الظَّلامِ والأسرارِ
عبثاً فالحياةُ ستُّها الحز نُ وحكْمُ الآهاتِ والدمعِ جارِ

- ٢ -

«صوت الأمل»

سِرْ بنا سِر يا زورقَ الأملِ العذْ ... بِ وإن أسْدلتْ ستورُ الظلامِ
وتَعَالى الدويُّ في النَّهَرِ البا ... كي على مَسْمع القلوبِ الدّوامي
سِرْ بنا لن نخافَ من ضجّة المو ... جِ ولن نرهبَ العُبَابَ الطامي
نحنُ في الموجِ دَفّةُ طالما لا ... قتْ رياحَ الأقدارِ والأيّامِ

سِرْ بنا حيثُما يُريدُ لنا المجـ ... ـهولُ سِرْ في هذا الوجودِ الحزينِ
لن تنالَ الحياةُ منّا فقد ذُقْـ ... ـنا أسَاها في عُمْرنا المغبونِ
ورمتْنا أحزانُها فصَبَرنا ... وغداً مغْرِبُ الأسى والشُّجونِ
وغداً تنضَبُ الدموعُ وتَفْنَى ... ضجّةُ الموجِ في عميقِ السكونِ

سوف تصفو الأمواجُ في لجّة النَهْـ ... ـرِ ويخبو الإعصارُ خلفَ التلالِ
وتعود النخيلُ تضحكُ للشطِّ ... كما كنَّ في الليالي الخوَالي
ويعودُ الملاّحُ يخرُجُ بالزو ... رقِ نشوانَ ضاحكَ الآمالِ
هكذا يرجعُ الصفاءُ إلى الوا ... دي ويغفو على جَمَالِ الليالي

-٣-

«صوت الشاعر»

مُغْرَقٌ فى خيالِه شاردُ العَيْـ ـــ ـنَيْنِ مُستسلمٌ إلى الأحلامِ
يذرَعُ الضفّةَ الجميلة مفتو ـــ نا بصوتِ الأمواجِ والأنسامِ
ويَرَى اللُّجّةَ الرهيبةَ سحْراً ـــ وينابيعَ فُضْنَ بالإلهامِ
وعلى البُعْدِ منظرُ النَّخْلِ فى النهـ ـــ ـرِ ومَرْأى التلالِ والآكامِ

هكذا الشاعرُ الخياليُّ يقضى ـــ يومَهُ فى الأوهامِ والألحانِ
ويَرَى فى طُغيانِ مائكَ يا نهـ ـــ ـرُ جَمَالَ الطبيعةِ الفتّانِ
فهو ذاكَ الطيرُ المغرِّدُ بالشعـ ـــ ـرِ نبيُّ الخيالِ والألوانِ
تتصبّاهُ موجةٌ تَغْسِلُ الشطَّ ـــ ونهرٌ داوٍ ولُجٌّ قانِ

كلُّ ما فى الطبيعةِ الحلوة المفْـ ـــ ـتانِ يُوحى لقلبِه بالغناءِ
كيف لا وهْوَ ذلكَ الشاعرُ المُرْ ـــ هفُ وابنُ الخيالِ والإيحاءِ
عاشقُ الصَّحْوِ والغيومِ الحزينا ـــ تِ وشادى الضياءِ والظلماءِ
ورسولُ السماءِ للعالمِ البا ـــ كى وصوتُ الأمواتِ والأحياءِ

(١٩٤٦)

الخطوة الأخيرة

اشهدي أيتُها الأشجارُ، أني
لن أرى ثانيةً تحتَ الظلال
ها أنا أمضي فلا تبكي لحُزْني
لا يُعذّبْك اكتئابي وابتهالي

خُطُواتي، في الدُجَى لا تحسبيها
إنّها آخِرُ ما أخطو هنا
إنّها رجْعُ أغانٍ لن تَعِيها
سوف تَذْوي مثلَما أذوي أنا

خُطُواتي، أيُّ رجْعٍ مُحْزِنِ
آهِ لو لم أسمعِ الصوتَ الكئيبا
ليتني أفقِدُ حسّي، ليتني
لم أشاهدْ ذلكَ الحُلْمَ الغريبا

أيُّ حُلم ذابلٍ فـــوْقَ الرمـــالِ
صُغتُ فيه كلَّ موسيقى حياتى
كلَّ أحـــلام شـــبابى وخيـــالى
كلَّ مــا فى خــافــقى من نَغَـمَــاتِ

هـا أنا أرَحـلُ، يا أشـــجـــارُ، عنكِ
تحتَ عـبءٍ من شُــرودى وخــشــوعى
ليـــتنى أجـــرؤ أن ألقى عليكِ
نظرةً ثـانيــــةً، دون دمـــــوعِ

لن تُحــسِّى، فى غـــدٍ، وقْعَ خُطـايا
فـــأنا، يا أخـــواتى، لن أعـــودا
كلُّ أحــــلامى وأضـــغـــاثِ رؤايا
عُـدْنَ يأسـاً صـارخـاً، عـدن شـرودا

ســوف ألقى العــودَ فى الظلِّ وأمــضى
أى مــعنى، بَعْــدُ، للعــودِ الرقــيق؟
سوف أحـيـا، يا ســمائى، فـوقَ أرضى
ســوف أطوى النورَ فى قلبى العــميقِ

وَوداعاً، أنتَ يا حُلمَ شبابي
أنتَ يا من صغتُهُ خمسَ سنينْ
ها أنا أدفن، في الأرض، رغابي
وأواري أملي المُرَّ الحزينْ

المرآتُ الجميلاتُ ستبكي
فوق ذكراىَ ولكن لن أعودا
حسْبُ روحي، أيُّها الأشجار، منك
أنّ ذكرى رَغباتي، لن تَبِيدا

وأنا؟ لا تجزعي، حسبك منّى
أنّ ذكراك بقلبي سوف تحيا
كلُّ جَذْرٍ منك في أعماق فنّي
سوف يبقى شاعرياً أبديَّا

آه يا أشجارُ، لا، لا تذكريني
فأنا تمثالُ يأس بَشَريٍّ
ليس عندي غيرُ آثارِ حنيني
وبقايا من شقائي الأبَديِّ

كنت يوماً خافقاً، بينَ الغيومِ،
أسكُبُ الأحلامَ في عُمقِ حياتي
تصعَدُ الآمالُ بي فوق النجومِ
ويصوغُ الشعْرُ أحلى رَغَباتي

أيُّها العودُ، وَدَاعاً من حياتي
هبطَ الليلُ وقد حان رحيلي
امْحُ ما قد كان، إمسَحْ نَغَماتي
انْسَ أنغامَ شَقَائي وذُهولي

لن تعيْ، في الغد، أنغامَ أسايا
وترانيمَ سروري وشَقائي
فانسَنى، ها قد نأى رجعُ خُطايا
ها أنا أغرقُ، في قلبِ المساءِ

١٩٤٦

البحـــر

للشاعر الإنـكليزى جورج غوردن بايرون من قـصيدته
الطويلة: Childe Harold pigrimage

أيهــا البــحـــر أيُهــا الأزرقُ الدا — كنُ إهدِرْ مـا شئتَ فى الظـلـمـاء
ســاخــرَ الموج من قُــوَى الآدمــيـيــ — ـنَ عــمــيــقــاً مُــدَوِّىَ الأنواء
مَخَـرتْ فى العُباب منكَ الأساطيـ — ـلُ وتاهتْ فى مـوجـكَ اللانهـائى
وبَقِـيتَ المجــهــول يرهُبكَ الإنـ — ـسانُ وهو الطـاغى على الأشـيـاء

كل مـــا عنـده من القـــوّة الهَـــوْ — جاء يا بحـرُ عند شطِّكَ يـعـيَــا
فهو يَطْغَى فى الأرض بالشرِّ والتخـ — ـريـبِ لكن تَظَـلُّ أنتَ عــتـيّــا
وتَظَلُّ الأمــواجُ منـكَ كـمــا كــا — نتْ حـمىً زاخـراً وسـطحـاً سـويّا
مـا علـيـهـا ظلٌّ لـطُغيـانِ مــخلو — قٍ سيـبـقى علـى الزمـانِ صَبّـيّـا

ذلك الحـىُّ ليس يتـــرُكُ مـن ظلٍ — ســـــوى ظلِّـه علـى الأمـــــواجِ
عندمـا تحـتـويه أمــواجُكَ الهُــو — جُ فـيـَـهْـوى فى لُجّـةِ الأثبــاجِ
صـارخــاً هابطاً إلى عُـمْقِ أعـــمـا — قكَ مَيْـتـاً تحتَ الفـضـاء السَّاجى
دونَ قــبـــر يضُـمُّ أشـــلاءَهُ أو — كَــفَنٍ غــيــرَ رائعــاتِ الـدّياجى

كلُّ ما فوقَ موجك الخالد الجبّـ ـارِ ما إن يبقى بقايا خُطَاهُ
ومسافاتُكَ البعيداتُ ليسَتْ أيّها البحر ما تنالُ يَداهُ
أيُّها المزدرى بطُغْيانه المكـ ـذوبِ يا ساخراً بكُنْه قواهُ
إنَّه ذلكَ الضعيفُ إذا جا ءَكَ يوماً وأبصرتْ عيناهُ

تلقّاهُ موجةٌ بعدَ أخرى منكَ يا بحرُ في ظلامِ المساءِ
ثم ترمى به الرياحُ المُخيفا تُ رُفاتاً مَيْتاً إلى الأجواءِ
فإذا ما خَبَا جُنونُ الأعاصيـ ـرِ وماتتْ أصداؤها في الفضاءِ
عادَ شِلْواً إلى حِمى الشاطئ السا جى وجسماً على حفَافِ الماءِ

أيّها البحرُ آه ما هذه الأسـ ـوارُ تحت الحديد والنيرانِ؟
أيُّ شيء هذى القلاعُ الرهيبا تُ؟ وما سرُّ ذلكَ الطُّغْيانِ؟
لقّبوا سادةَ البحارِ وما هُمْ غيرُ طيفٍ من الغُرورِ الفاني
تتلقّاهُم قوَى موجكَ الرا ئعِ بالموتِ والأذَى والهوانِ

كلُّ شيءٍ في السَّاحل الشاسع النا ئى يُطيعُ الموتَ البطىءَ العتيّا
كلُّ شيءٍ يَبْلَى وتلبث جبّا راً كما كنتَ ساخراً أبديّا
أين آشورُ؟ أينَ روما وقرطا جةُ ما عادَ ذكرُها قَطُّ يحيا
ذهبتْ كلُّها وماتتْ وما زلـ ـتَ كما كنتَ أيها البحرُ حيا

كل تلك السواحلِ الحلوة الغنـ ـاء عادت تحتَ الزَّمان صَحَارى
يتمشَّى فيها الغريبُ وكانت أمس دنيا تفيض نورا ونارا
وتبقَّيْتَ أنت مثلَكَ بالأمـ ـسِ عميقاً مدوّياً جبّارا
لم يغضِّنْ جبينَكَ الزَمَنُ الما ضى وما زلت جارياً قهَّارا

منذ أن شبَّت الخليقةُ أنتَ الـ ـبحرُ تحت الضياء والظُلُماتِ
كلُّ شيء كما أرى البَشَرُ الفا نونَ باقٍ وأنتَ أنتَ العاتى
أبداً أنتَ ذلكَ اللانهائىُّ المُدَوِّى فى مَسْمع الداجياتِ
أبداً أنتَ سرمدىٌّ خفىٌّ فى السكونِ الساجى أو العاصفاتِ

وأنا أيّها المُحيطُ المدوّى عاشقُ الموجِ والحصَى والرمالِ
طالما سرتُ، فى صباىَ، على الضفـ ـة مُستَغرقاً بوادى الخيالِ
طالما سرتُ شارداً مثلَ أموا جكَ نشوانَ ضاحكاً للمجالى
كلّ حُلْمى أن يحتوىْ زورقى مو جُك يوماً فترتوى آمالى

كيفَ يا بحرُ كيفَ تَنْسى مَرَاحى عندَ أمواجكَ الجميلاتِ أمسِ؟
عندما فى طفولتى كنتُ ألهو فى شواطيكَ بين بِشْرى وأُنْسى
طالما من أمواجك الباردات الـ ـبيضِ أترعتُ فى الأمسِّ كأسى
ليتَ شعرى فهل نَسيت أغاريـ ـدى وحبىّ الطاغى وفورةَ نفسى؟
١٨-٦-١٩٤٦

مرثية فى مقبرة ريفية

«ترجمة للقصيدة المشهورة: An Elegy Written in a Country Churchyard للشاعر الإنكليزى توماس غرى»

فى المساء الكئيب والجرسُ المحـ ـزونُ ينعَى النهارَ للأجواء
والقطيعُ المكدودُ ينسابُ فى المر ج بطيءَ الخُطَى كئيبَ الثُغَاء
والفتى الحارسُ المؤودُ إلى المأ وى يجرُّ الخُطَى من الإعياء
تاركاً هذه المجالى الحزينا ت لقلبى أنا وللظَلْماء

سوفَ يخبو النورُ الملألئُ فى الأفـ ـق بعيداً على امتداد السهوب
والفضاءُ الممتدُّ يغمرُهُ الليـ ـلُ فلا شيءَ غير صمت رهيب
ليس إلا حفيفُ أجنحة الأطـ ـيارِ فى جوِّها الدجيِّ الكئيب
ودويُّ الأجراسِ ينشُرُ فوقَ الـ مَرْجِ وهْمَ الكَرى وصمتَ الغيوب

ليسَ إلاّ قمرِّيةٌ يُرسِلُ الشكـ ـوَى الى البدْر قلبُها المغبونُ
عُشُّها قنّةٌ تسلَّقَها الزَهْـ ـرُ وأخفتْهُ فى الظلال الغصونُ
تتشكّى الذينَ مرُّوا بدنيا ها فلم تَدْرِ ما عَسَى سيكونُ
عكّروا العُزْلَةَ القديمةَ والصمـ ـتَ فدوَّى هُتَافُها المحزونِ

ها هنا فى الظلال من شَجَر السَّرْ و وبينَ الأغصانِ والأشجارِ
حيثُ تعلو الرمالُ والعُشْبُ ينمو بينَ هذى الكُثبانِ والأغوارِ
رَقَدَ الراحلونَ من ساكنى القرْ يةِ بين الرمالِ والأحجارِ
أسلمتْهم أيدى المنونِ إلى ضيـ ـقِ قبورٍ تحت الثَرَى المُنهارِ

رقدوا فابتسامةُ الفجر لا توُ قظُ دنياهمُ على الأنسَامِ
ومراحُ الطيورِ فى أسقُفِ الأكـ ـواخِ ما إن يُصْحيهُم من مَنامِ
رقدوا الرقدةَ الأخيرةَ فى الوا دى الدجىِّ الحزينِ وادى الحمامِ
ليسَ تُغْريهمُ هتَافاتُ بوقٍ كيف تُغْرَى هياكلُ من عظامٍ؟

رقدوا فى العَراءِ تحتَ الثلوجِ الـ ـبيضِ لا موقدُ ولا نيرانُ
ومضَوْا فالبيوتُ خاويةٌ منـ ـهُمْ وفى قلب أهلها أحزانُ
لا صغارُ تخفُّ جَذْلَى مَسَاءً تتلقاهُمُ ولا أحضانُ
يا لتنهيدةِ اليتَامَى فما يرْ جعُ آباؤهم إلى ما كانوا

كم تعرَّتْ سنابلُ القمح فى أيـ ـديهمُ كم ترنّموا فى السهولِ
ولكم شَقّت الحقولَ محاريـ ـثُهُمْ فازدهتْ زهورُ الحقولِ
وبأىِّ الأفراحِ ساقوا إلى المأ وَى قطيعَ الأغنامِ عند الأصيلِ
ولكم أخضَعوا من الشَجَر الصلـ ـدِ وألقَوْا بساقِهِ فى الوحولِ

ليسَ للهازئينَ أن يَحْقروا جُهْـ   ـدَهُم أو طُموحَهُمْ فى الحياةِ
أو مَسَرَّاتِهم وذكرَهُم المغْـ   ـمورَ بالفقر والشَّقاءِ العاتى
رحمةً لا تكنْ دموعُ الحزَانى   بَسَماتٍ فى الأعينِ الساخراتِ
ليسَ للأغنياءِ أن يحقروا عُمْـ   ـرَ فقيرٍ مَخْشياهُ للآهاتِ

أو ليستْ هذى الحياةُ سَرَاباً؟   أوَ ليسَ الفَنَاءُ عُقْبَى سَنَاها؟
أو تُنْجى الألقابُ أو مِنَحُ المجْـ   ـدِ إذا ما الحِمامُ أَحْنَى الجباها؟
يا لَوَهْمِ الأحياء كم من حضارا   ت أطافَ البِلَى بها فمحاها
كلُّ ما فى الحياةِ يُنْهى إلى القبْـ   ـرِ فما مجدُها؟ وما جَدْواها؟

لا تَلُمْهم يا أيّها الكائن المغْـ   ـرورُ إن لم يَرُقْ هَوَاكَ الثَّوِىُّ
لا تَلُمْهم إن لم يَشِدْ فوقَهُ المجْـ   ـدُ التماثيلَ أيُها البَشَرِىُّ
ها هُنَا لا قُبَابَ لا قوسَ نَصْرٍ   ليسَ إلا سرُّ الرَّدَى الأبدىُّ
وهُوَ المرقَدُ الأبيدُ لقومٍ   لم يُرنِّمْ مديحَهُمْ آدمىُّ

ليتَ شعْرى ماذا تقولُ التماثيـ   ـلُ لَميْتٍ؟ وما غنَى الأقواسِ؟
ألها أن تَرُدَّ للكائنِ الحىِّ   إذا ماتَ خامدَ الأنفاسِ؟
وهُتَافُ المديحِ هل هوَ يوماً   بالغٌ مَسْمَعَ الحِمامِ القاسى؟
ونفاقُ الأحياءِ هل يمنَحُ الأجْـ   ـداثَ والموتَ رعشةَ الإحساس؟

لستَ تدرىَ منْ حلَّ فى هذه البُقْـ ـعـةِ تحتَ التـراب والأشـواكِ
علَّـهُ كـان شـاعـراً طاهـرَ الرُّو ح حَبَتْـهُ السـمـاءُ قلـبَ مَـلاكِ
علَّهُ الـعـبـقـرىُّ لو أمـهَلَ المو تُ لقـاد الـدُّنيـا إلى الأفـلاكِ
عـلَّـهُ الملـهَـمُ الـذى يـوقِظُ الـنـا ىَ فـيـفـتـرُّ كلُّ قلبٍ باكِ

عـبـقـريّاتُهُـم زَوَتْهـا المآسى مَـحَتْ ضـوءها يدُ الأقـدارِ
فـهُمُ الجـاهلونَ مـا رفـرفَ العلْـ ـمُ عليهم بجُنحِـه الطيّـارِ
وهُم البـائسـونَ أطفـأ بردُ الـ ـفَقْر فيهم نبعَ اللهيبِ الوارى
فـإذا عبـقريّـةُ الروحِ مَجْرىً جـامدُ السَّيلِ راسبُ التيّـارِ

يا لَظُلْمِ الأقدارِ كم ماسة حَسْـ ـناءَ ظلَّتْ فى ظُلْمةِ الأعماقِ
أخفتِ اللُّجَّةُ العميقةُ لألا ها فيا ضيعة السَّنا الألآقِ
كم زهورٍ زَجَّى بها القَدَرُ القا سى بعيداً عن أعيُنِ العُشَّاقِ
تبعثُ العِطرَ والفُتونَ إلى جوِّ الصَّحارى ودُجيةِ الآفاقِ

ربّما كان تحتَ هذا الثّرَى العا رى قلوبٌ شواعرٌ وعُقولُ
ربّما كان تحتها (هامدنُ) ثا ن زَوَاهُ مقرُّهُ المجهولُ
أو فتىً مثلَ (ملتن) الشاعر المُلْـ ـهَم أخفاهُ صمتُهُ والذُّهولُ
ربّما كان تحتَها (كرومولُ) آ خَرُ لم يُضْبِهِ الدمُ المطلولُ

حَرَمتْهم أيدي القَضَاء نعيمَ الـ   ـعيشِ واستعبدتْهُمُ الآلامُ
فهُمُ حيثُ لا مجالسَ لا تصـ   ـفيقَ حيث المحْيا هُدىً وسلامُ
وهُمُ حيثُ ليس يُهْزَا بآلا   مِ الحزانَى وتُحْقَرُ الأيتامُ
وهمُ البائسونَ أرضُهمُ قفْـ   ـرٌ وأيّامُهُمْ طَوَى وسَقَامُ

غيرَ أنَّ الشقاءَ أحمد في دنـ   ـياهُمُ الإثمَ والأذَى والغرورا
فإذا هُمْ ولا جرائمَ تُدْمِي الأ   رضَ من حولهم ولا تَدْميرا
لم يخوضوا الحروبَ سَعْياً إلى المجـ   ـدِ ولم يَعْرفوا الدمَ المهدورا
والليالي مَدَّتْ لهم سُبُلَ الرحـ   ـمةِ فاستعذبوا الشعورَ الطَهورا

وُهوَ الفَقْرُ ردَّ أنفُسَهم بيـ   ـضاً من الشرِّ والأذَى والحقودِ
فإذا طافَ باطلُ بحِماهُمْ   احمرارُ الحياء لونُ الخدودِ
ليسَ فيهم من سَخَّرَ الشعرَ والفنَّ   عبيداً للمَطْمع المحدودِ
ليس فيهم من داسَ آلهةَ الفنّ   على مَذْبح الغِنَى المنشودِ

ولقد أمضَوا الحياةَ بعيديـ   ـنَ عن النَّار واحتدامِ الصراعِ
ملأتْهم ألوانُ أحلامهم نُبْـ   ـلاً فلم تُغْرِهم رؤى الأطماعِ
عبروا واديَ الحياة سُكوتاً   مُغْرَقي العُمْرِ في صفاء الطباعِ
لهو هم مُنْبَع يفيضُ على الأر   ضِ ونايٌ نشوانُ في فم راعِ

رقــدوا والقــبــورُ عــارية إلاّ من الصـمـت والهـدوء الحـزينِ

وعلى البُـعْـد تلمحُ العـينُ تمثـا لاً ضـئـيـلاً يبكى لصَـرْعَى المنونِ

كُـتـبتْ تحتـهُ قـواف وأشـعـا رُ تـغـنّـى لمن ثَـوَوْا فى الـطـينِ

يســألُ العــابرينَ آهـةَ حُـزْنٍ لقـبـورٍ تحتَ الـدُّجَى والدُّجـونِ

القـبـورُ التى حَنتْ ريشـةُ الـشـعـ ـرِ عليـهـا بلحنِ حُـزْنٍ حـائرْ

فــإذا اللحـنُ لحنُ شـاد مـقلٍّ ليس فـيـه إلاّ تـفـجُّعُ شـاعـرْ

القـبـورُ التى عـلى صَخْـرها لحـ ـنُ رثـاء يُثـيـرُ دمعَ العـابرْ

ويُنادى الأحـيـاءَ أنّ حـيـاةَ الـ ـمرءِ حُلْمٌ عُـقبْاهُ صـمتُ المقـابرْ

أىُّ نفـسٍ تَرَى يهـونُ عليـهـا أن تُوارَى فـى لجّـة النسـيـانِ؟

ولتـكن هذه الحـيـاةُ شـقـاءً من تَـراهُ يرتـاحُ للأكـفـانِ؟

أىُّ قلـب يَرْضَى مـغـادرةَ الأر ضِ بلا حَـسْـرَةٍ ولا أحـزانِ

وهْى أفْقُ الأضواءِ والسحْرِ والأشـ ـعـارِ والقـبـرُ عـالَمُ الديدانِ؟

وهى الروحُ حـينَ ترحَلُ تـهـفـو لفـؤاد حـان وصـدر خَـفُـوقِ

والعـيـونُ المودِّعـاتُ يُعَـزّيـ ـهـا أسًى مُشْفق ودمعُ صـديقِ

ومن الـقـبـرِ ذلك المظـلمُ البـا ردُ يعلو صـوتُ الـزَّمـانِ العـميقِ

آهِ حـتّى فى شِلْـوِ أجسـادنـا المَيْـ ـتـة تبـقـى آثارُ ذاكَ البـريقِ

آه يا شـاعـرى وأنتَ؟ وقـد خَلَّـ ـدتَ ذكـرى الأمـوات والبـائسينا
أنتَ يا من قَـصَصْتَ أنباءهـم شعْـ ـراً وذوّبتَ قـلبَكَ المحـزونـا
علَّ روحـاً تقـودُهُ الوحـدةُ الخـر سـاءُ يومـا إلى حـمَـاكَ حنينا
علَّـهُ سـائلٌ غـداً عن أغـانيـ ـكَ ومـا قـد جرَتْ عـليك السنونا

أيّهـا الشـاعـرُ الوفـيُّ وقـد يَهْـ ـتِفُ قـلبٌ ثانٍ يُجيبُ السـؤالا:
طالما قـبّلتْ خُطـاهُ ثَرَى الـوا دى صـبـاحـاً وجـابتِ الأدغـالا
طالما سـارَ مُسْـرعـاً تـنفضُ الأنـ ـداءَ أقـدامُـهُ وتطوى التـلالا
ليُلاقى إشـراقةَ الشـمس فـوقَ الـ ـقِمَمِ الخُضْـرِ فـتنةً وجـمـالا

ها هُنَا فى الظـلالِ من شَجَـرِ البلـ ـوطِ بيـن الأغـصـانِ والأفـيـاءِ
طالما مـدَّ جـسـمَـهُ الخـائرَ المكـ ـدودَ مُسْتَسْلـماً لأيدى القـضـاءِ
سـابحاً فى الخيالِ مغرورقَ العيـ ـنيـنِ نَهْبَ اكـتـئـابةٍ خَـرسْـاءِ
أبداً يـرقُبُ السـواقىَ حـيـرا نَ ويُصْـغى إلى خَـريرِ الماءِ

كم رأينـاهُ شـارداً فى المجـالى وعلى ثغـره ابتـسامـةُ ساخـرْ
كم لمحنـاهُ حـالمَ القَلْـبِ يحـثـثُ خُطَـاهُ بيـنَ الروابـى النـواضـرْ
تارةً ضـاحـكاً وآناً حـزينـا شاحبَ الوجْـه مُغْرقـاً فى الخواطرْ
قـوّستْ ظهـرَهُ همـومُ الليـالى قـضَـتْ بالأسى عليـهِ المقـادرْ

طالما سارَ شاردَ الخطوِ مكدو … دأً كسارٍ ضلَّتْ به قَدَماهُ
أو كمن أخلصَ الغرامَ فلم يَلْـ … ـقَ سوى البُغْضِ والجفاء هواهُ
أو كمن وشَّحَ الشقاءُ ليالِيْـ … ـه وماتتْ أحلامُهُ ورؤاهُ
أو كمن عاشَ حالمَ الروحِ بالنو … رِ فلم يرحمِ الظلامُ مُناهُ

وأتى الفجرُ ذاتَ يومٍ فلم أعـ … ـثرْ على الشاعرِ الشريدِ النبيلِ
لم أجِدْهُ على التلال الحبيبا … ت إلى قلبه ولا فى السُّهولِ
ومَضى اليومُ ثمَّ أقبلَ ثانٍ … والفتى فى مَقَرِه المجهولِ
لا إلى جانب الجداولِ ألفيـ … ـه ولا فى الرُّبَى ولا فى الحقولِ

وأتانى الصَباحُ بالنبأ المجـ … ـهولِ فالشاعرُ الحزينُ صريعُ
حملوهُ على الأكُفِّ وألحا … نُ المراثى تفجُّعٌ وخُشوعُ
آه يا عابرَ السبيلِ اقترب واقـ … ـرأ رثاهُ فذاكَ ما تستطيعُ
كتبوهُ على حجارةِ قبرٍ … ما بكتْهُ غيرَ الدجونِ دُموعُ

"الكلمات المكتوبة على القبر"

ها هنا في التراب في ظُلَّة الشو ... ك وسادٌ لشاعر محزونِ
جهلتْهُ الحظوظُ والمجدُ والشهـ ... ـرةُ في ظُلْمة الزمانِ الضنينِ
لم يَنَلْ من مناهلِ العلم والفنِّ ... سوى كأسِ ظامئٍ مغبونِ
والليالي صاغتْ صِباهُ من الحزْ ... نِ وهزَّتْ حياتَهُ بالشجونِ

وَسِعَ الكونَ كلَّهُ قلبُهُ الخفّـ ... ـاقُ بالودِّ والحنان الدَفُوقِ
ولقد كافأتْهُ آلهةُ الشعـ ... ـرِ على قلبه النبيل الرقيقِ
مَنَح البائسينَ أثمن ما يمـ ... ـلكُهُ: عَبْرَةَ انفعال عميقِ
فَحَبَتْهُ السماءُ أنبلَ ما تمـ ... ـنحُهُ للأحياء: قلبَ صديقِ

آهِ يا عابرَ السبيلِ دعِ الشا ... عرَ في مَرْقد الردى مُطمئنّا
لا تحاولْ كشفَ الستار عن الخيـ ... ـرِ ودعْ مقلةَ المَساوئِ وَسْنَى
فوراءَ الترابِ قلبٌ له في ... رحمة الله مأملٌ ليس يَفْنَى
مأملُ الخافقِ الذي ضمَّهُ اللـ ... ـهُ إلى عَدله فأغمضَ عَيْنا

أيار ١٩٤٥

شظايا ورماد

الطبعة الأولى ١٩٤٩

مقدمة

في الشعر، كما في الحياة، يصح تطبيق عبارة برنارد شو: «اللاقاعدة هي القاعدة الذهبية»، لسبب هام، هو أن الشعر وليد أحداث الحياة، وليس للحياة قاعدة معينة تتبعها في ترتيب أحداثها، ولانماذج معينة للألوان التي تتلون بها أشياؤها وأحاسيسها، ولاتناقض بين هذا الرأي وما يقسم إليه النقاد الشعر من مدارس ومذاهب حين يقولون «كلاسيكي، رومانتيكي، واقعي، رمزي، سريالي. . .» فهذه كلها ليست قواعد، وإنما هي أحكام.

وقد يرى كثيرون معي أن الشعر العربي، لم يقف بعد على قدميه، بعد الرقدة الطويلة التي جثمت على صدره طيلة القرون المنصرمة الماضية، فنحن عموماً ما زلنا أسرى، تسيّرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية وصدر الإسلام، ما زلنا نلهث في قصائدنا ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة، وقرقعة الألفاظ الميتة، وسدى يحاول أفراد منا أن يخالفوا فإذ ذاك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة، وألف حريص على التقاليد الشعرية التي ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه، فجمّدنا نحن ما ابتكر واتخذناه سنّة, كأن سلامة اللغة لاتتم إلا إن هي جمدت على ما كانت عليه منذ ألف عام، وكأن الشعر لايستطيع أن يكون شعراً إن خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل.

ويقولون: ما لطريقة الخليل؟ وما للغة التي استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون؟ والجواب أوسع من أن يمكن بسطه في مقدمة قصيرة لديوان, ما لطريقة الخليل؟ . . . ألم تصدأ لطول ما لامستها الأقلام والشفاه منذ سنين وسنين؟ ألم تألفها أسماعنا، وترددها شفاهنا، وتعلكها أقلامنا، حتى مجتها منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون

لقد سارت الحياة، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحاسيس ومع ذلك ما زال شعرنا صورة لقفا نبك، وبانت سعاد، الأوزان هى هى، والقوافى هى هى.. وتكاد المعانى تكون هى هى؟

ويقولون: ما للغة؟ وأية ضرورة إلى منحها آفاقاً جديدة؟ فينسون أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت، والواقع أن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء، التى تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التى تملأ أنفسنا اليوم، إنها قد كانت يوماً لغة موحية، تتحرك وتضحك وتبكى وتعصف، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل، فصنعوا من ألفاظها «نسخاً» جاهزة، ووزعوها على كتابهم وشعرائهم، دون أن يدركوا أن شاعراً واحداً قد يصنع للغة ما لايصنعه ألف نحوى ولغوى مجتمعين، ذلك أن الشاعر بإحساسه المرهف وسمعه اللغوى الدقيق، يمد للألفاظ معانى جديدة لم تكن لها، وقد يخرق قاعدة مدفوعاً بحسه الفنى، فلا يسئ إلى اللغة، وإنما يشدها إلى الأمام، الشاعر أو الأديب إذن هو الذى تتطور على يديه اللغة أما النحوى واللغوى فلا شأن لهما بها، النحوى واللغوى عليهما واجب واحد هام، واجب الملاحظة واستخلاص قواعد عامة من كلام «المرهفين» من الكتّاب والشعراء.

على أن الأديب الذى سنتفق على تسميته «مرهفاً»، لابد أن يملك ثقافة عميقة تمتد جذورها فى صميم الأدب المحلى، قديمه وحديثه، مع اطلاع واسع على أدب أمة أجنبية واحدة على الأقل، بحيث يتهيأ له حس لغوى قوى، لايستطيع معه إن هو خلق، إلا أن يكون ما خلق جمالاً وسموا، فإذا خرق قاعدة، أو أضاف لوناً إلى لفظة، أو صنع تعبيراً جديداً، أحسسنا أنه أحسن صنعاً، وأمكن لنا أن نعد ما أبدع وخرق قاعدةً ذهبية.

ولن تقف وظيفة الأديب المرهف، عند خرق قاعدة هنا، وإضافة معنى هناك، وإنما سيكون عليه واجب أدق من هذا تفرضه عليه طبيعة التطور فى

اللغات الإنسانية الحية، سيكون عليه أن يُدخل تغييراً جوهرياً على القاموس اللفظى المستعمَل فى أدب عصره، فيترك استعمال طائفة كبيرة من الألفاظ التى كانت مستعملة فى القرن المنصرم ويُدخل مكانها ألفاظاً جديدة لم تكن مستعمَلة. ذلك لأن الألفاظ تخلق كما يخلق كل شىء يمر عليه إصبع الاستعمال فى هذه الحياة المتغيرة، وهى تكتسب بمرور السنين، جموداً يسبغه عليها التكرار، فتفقد معانيها الفرعية شيئاً فشيئاً، ويصبح لها معنى واحد محدود، يشلّ عاطفة الأديب، ويحول دون حرية التعبير.

ثم إن هنالك سبباً آخر هاماً يستدعى هذا الاستبعاد للألفاظ التى كثر استعمالها، هو أن الأذن البشرية تمل الصور المألوفة والأصوات التى تتكرر، وتستطيع أن تجردها من كثير من معانيها وحياتها، وخير مثال لهذا أننا ننفر الآن بطبيعتنا من استعمال ألفاظ كهذه: «عمبر، كافور، غصن بان، قد، هلال، صدغ، عود، نرجس، لؤلؤ» وهى ألفاظ كانت فى بعض العصور السالفة تبدو رقيقة شعرية، وربما كانت يوماً مما لايستعمله إلا المجددون من الشعراء.

وقد لاحظت خلال دراستى للآداب المعاصرة، هذه الملاحظة الطريفة: لاحظت أننا فى هذا العصر، قد أصبحنا ننسى المدلول الخاص لكلمة «البدر» فنهملها إهمالاً يكاد يكون كلياً، ونؤثر عليها لفظ «القمر» وقلَّ فى الشعراء المعاصرين مَن يرضى استعمال كلمة «بدر» إلا فى الحالات النادرة، وأنا أعترف،أننى أكلف نفسى أحياناً متاعب كثيرة، لكى لاأستعملها، والتعليل السايكولوجى لهذا يسير، فأنا وسواى نتذكر بلا شك تلك العشرات من الأبيات الصماء النافرة التى تركها شعراء العصر المنطفىء الماضى، واستعملوا فيها كلمة «بدر» حتى جردوها من جمال معناها، وأطفأوها، وأبقوا منها ظلالهم هم عليها.

ربما كان هذا كله من عمل ما يسميه علماء النفس الاقتران Association وربما كان لـه عندهم تعليل آخر، سـوى أن هذا كله يتعلق بالسـبب لا بواقع الأمر، فالمهم أن الألفاظ تصدأ وتحول، وتحتـاج إلى استبدال بين حين وحين، وقد رأينا أن هذا الاسـتبدال وظيـفة الأديب يقـوم بها وهو «نصف واع» لأن الوعى التام قلما ينتج شيئاً ذا قيمة.

* * *

لنعد إلى حديث الأوزان..

فى هذا الديوان لون بسيط من «الخروج» على القـواعد المألوفة، يلاحظ فى قصائد مثل «جـامعة الظلال» و«لنكن أصدقاء» و«مرثيـة يومٍ تافه» و«أغنية الهاوية» وسواها، وقـد يحسن بى أن أؤكد للقارئ أننى لا أعـدُّ نفسى واحدة من المرهفين الذين تحدثت عنهم فى الصفحـات السابقة، سوى أننى أحسست أن هذا الأسلوب الجديد فى ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد، وسأحاول فيما يلى أن أبسط خاصية هذا الأسلوب، ووجه أفضليته على أسلوب الخليل، الأبيات التالية تنتمى إلى البـحر الذى سماه الخليل «المتقارب» وهو يرتكز إلى تفعيلة واحدة هى «فعولن»:

يداك للمس النجوم

ونسج الغيوم

يداك لجمع الظلال

وتشييد يوتوبيا فى الرمال

أتراني لو كنت اسـتعملت أسـلوب الخليل، كنت استطيع التـعبـير عن المعنى بهذا الإيجـاز وهذه السهولة؟ ألف لا، فـأنا إذ ذاك مضطرة إلى أن أتم

بيتاً له شطران، فأتكلف معانى أخرى غير هذه، أملأ بها المكان، وربما جاء البيت الأول بعد ذلك كما يلى:

يداك للمس النجوم الوضاء ونسج الغمائم ملء السماء

وهى صورة جنى عليها نظام الشطرين جناية كبيرة، ألم نلصق لفظ «الوضاء» بالنجوم دونما حاجة يقتضيها المعنى إتماماً للشطر بتفعيلاته الأربع؟ ألم تنقلب اللفظة الحساسة «الغيوم» إلى مرادفتها الثقيلة «الغمائم» وهى على كل حال لاتؤدى معناها بدقة؟ ثم هنالك هذه العبارة الطائشة «ملء السماء» التى رقعنا بها المعنى، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات؟

هذا كله إذا نحن اخترنا الوزن «المتقارب»و أما إذا اخترنا «الطويل» مثلاً، فالبلية أعمق وأمر، إذ ذاك تطول العكازات وتتسع الرقع، وينكمش المعنى انكماشاً مهيناً، فنقول مثلاً:

يداك للمس النجوم أو نسج غيمة يسيرها الإعصار فى كل مشرق

ليلاحظ القارئ بلادة التعبير، وتقلص المعنى، وأين هذا من تعبيرنا الأول:

يداك للمس النجوم
ونسج الغيوم

وينبغى ألا ننسى أن هذا الأسلوب الجديد، ليس «خروجاً» على طريقة الخليل، وإنما هو تعديل لها، يتطلبه تطور المعانى والأساليب خلال العصور التى تفصلنا عن الخليل، فالخليل قد جعل وزن البحر «الكامل» كما يلى:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن
كفاى ترتعشان أين سكينتى؟
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

شفتاى تصطخبان أين هدوئى؟

مرتكزاً إلى «مـتفاعلن» التى اعتـاد العرب أن يضعـوا ثلاثاً منها فى كل شطر؟ وكل ما سنصنع نحن الآن، أن نتلاعب بـعدد التفاعيل وترتيبـها فتجئ القصيدة من هذا البحر أحياناً كقصيدة «جدران وظلال» وهذا مقطع منها:

وهناك فى الأعماق شىء جامد

حجزت بلادته المساء عن النهار

شىء رهيب بارد

خلف الستار

يدعى جدار

أواه لو هدم الجدار

ولو قطعناه لجاءت تفعيلاته كما يلى:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلان

متفاعلن متفاعلن

متفاعلان

متفاعلان

متفاعلن متفاعلان

ومزية هذه الطريقة أنهـا تحرر الشاعر من طغيـان الشطرين، فالبيت ذو التـفاعيل الـست الثابتـة، يضطر الشاعـر إلى أن يختم الكلام عند الـتفعـيلة السادسـة، وإن كان المعنى الذى يريده قـد انتهى عند التفـعيلة الرابعـة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقوف حيث يشاء.

* * *

ثم نتحدث عن القافية، ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت، قالوا إن العربية لغة واسعة غنية، وأن ذلك يبرر كونها اللغة الوحيدة التى اتخذت القافية الموحدة سنة فى قصائدها، ونسوا أن أية لغة مهما اتسعت وغنيت، لاتستطيع أن تمد «ملحمة» بقافية موحدة، أياً كانت، ولم ينتهوا إلى أن ذلك كان واحداً من الأسباب التى حالت دون وجود الملحمة فى الأدب العربى، مع أنها وجدت فى آداب الأمم المجاورة، كالفرس واليونان.

وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التى أنزلتها القافية الموحدة بالشعر العربى طيلة العصور الماضية، وإنما المهم أن نلاحظ أن هذه القافية تضفى على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع فضلاً عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية، ومن المؤكد أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة، ووأدت معانى لاحصر لها فى صدور شعراء أخلصوا لها، ذلك لأن الشعر الكامل «الغنائى منه خاصة، والشعر العربى غنائى كله تقريباً» لايستطيع أن يكون إلا وليد الفورة الأولى من الإحساس فى صدر الشاعر، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيل اندفاعها، فهى أشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم، والقافية الموحدة قد كانت دائماً هى «العائق»، فما يكاد الشاعر ينفعل، وتعتريه الحالة الشعرية ويمسك بالقلم فيكتب بضعة أبيات، حتى يبدأ محصوله من القوافى يتقلص، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله، والتفكير فى القافية، وسرعان ما تغيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها، ويمضى الشاعر يصف الكلمات ويرص القوافى دونما حس، ولذلك، قلما نجد فى أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة، يسيطر عليها جو تعبيرى واحد منذ مطلعها إلى ختامها، فالشاعر يضطر إلى مصانعة القافية، وأنا أعرف شعراء يختارون القافية، ثم يكتبون البيت وفقاً لها، وهذا أبرز دليل على مدى طغيان هذه الإلهة المغرورة.

إلا أن من حسن الحظ، أن شعراءنا المعاصرين قد استخفوا بسلطان القافية، وخرجوا عليه فاستعملوا نظام الرباعية وأشباهها، ويكاد هذا يصبح الآن أمراً مقبولاً، لايبقى على قوافى هذا الديوان اعتراضاً، إلا أننى أعترف مع ذلك بأننى أخضعت القافية أحيانا، لأكثر مما فعل سواى، فنظمتها فى قصيدة «مسامير» هكذا: «أ ب أ، ب ج ب، ج د ج، د هـ د، هـ و هـ. .إلخ.»(١) وفى «رماد» التى استعملت فيها نظام الرباعية كما يلى: «أ ب ب أ» وفى «غرباء» التى استعملت فيها نظام «المقطوعة Stanza» وكانت القافية فى كل مقطوعة تجرى هكذا «أأب ب أب»، أما قصيدة «الكوليرا» فقد كانت المقطوعة فيها أطول مما «ينبغى» قليلاً وقد جرت على هذا النسق «أب ب ج ج ب د د ب هـ هـ هـ هـ» على أننى حررت القافية تحريراً تاماً فى قصائد مثل «مر القطار» و«نهاية السلم» و«خرافات» و«جدران وظلال» وسواها، فتركتها تتكرر كما يشاء السياق دون تقيد بنظام معين، ولعل هذه هى الخطوة الوحيدة التى تسبق الشعر المرسل Blank Verse، وإن كان لابد من إشارة إلى قصيدة «الجرح الغاضب» فلأقرر أن الأسلوب الطريف فى تقفيتها مقتبس مباشرة عن الشاعر الأمريكى «أدجار آلان بو» فى قصيدته البديعة «Ulalume».

* * *

قلت إن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء؛ لأن كتابها وشعراءها لم يعتادوا استغلال القوى الكامنة وراء الألفاظ استغلالا تاماً، إلا حديثاً، فقد بقيت الألفاظ طيلة قرون الفترة الراكدة «المظلمة» تستعمل بمعانيها الشائعة وحدها، وربما كان ذلك هو السبب فى جنوح الجمهور العربى جنوحاً شديداً إلى استنكار المدارس الشعرية التى تعتمد على القوة الإيحائية للألفاظ، كالرمزية، والسريالية، على اعتبار أن هذه المدارس تحمِّل اللغة أثقالاً من

الرموز والأحـلام الباطنية والخلجـات الغامضـة، واتجاهات اللاشعـور، ومثل ذلك مما لاتنهض به إلا لغة بلغت قمة نضجها.

والواقع أن القارئ العـربى يتهرب من الشـعر الرمزى، لأن اللغـة تجابه التعبير عن مثل هذه الأحاسيس المبـهمة أول مرة، فليس غريباً أن تتلكأ قليلاً، وتتوتر، أما تعليل الأمر بأن ذاتية العربى تنفر بطبعها من الرموز ولاتجد جمالاً فى الدهاليز التى تتلوى وراء الحس، والعوالم الخفية الـتى يعسر إدراكها، فأمر لا أعتقد به أنا على الأقل..

ذلك لأن النفس البشرية عموماً، ليست واضحة، وإنما هى مغلقة بألف ستر، وقـد يحدث كثيـراً أن تعبر الذات عن نفســها بأساليب ملتوية، تـثيرها آلاف الذكـريات المنطمـســة الراكدة فى أعـمــاق العـقل البـاطن منذ سنوات وسنوات، ومئـات الصور العابرة التى تمر فـيحدق فـيها العـقل الواعى ببرود وينساها نسياناً كلياً، فيتلقفها العقل الباطن ويكنزها مع ملايين الصور التافهة، ويغلق عليـها الباب، حـتى إذا آنس غفلة من العـقل الواعى، أطلقهـا صوراً غامضةً لا لون لها ولا شكل.

وليست مثل هذه الأحاسيس الغريبة وقفا على إنسان دون إنسان، سوى أن التعبير عنهـا يختلف، فالإنسان العادى يراها فى أحلامه، أمـا الفنان فيعبر عنها بفنه وأحلامـه معاً، وما دمنا لانستغـرب حين نستيقظ أحيـاناً فى أعماق الليل وقد حلمنا أننا نركض حفاة، فى قبو قديم، كان جزءاً من دار خربة كنا نسكنها منذ ثمانى عـشرة سنة كاملة، لم نعد إليها خـلالها مطلقاً، ومع ذلك لاحظنا فى الحلم أدق الأشـياء المنطمـسة التـافهـة التى شـاهدناها فى السنين الغابرة، ذلك المسمار القديم المعـوج على الجدار، وقد تدلى منه الحبل الباهت القديم نفســه، ثم هناك، على ارتفاع أمتار، أنبوب الميـاه الذى كنا فى طفولتنا نتسلقه أحيـاناً، أقول: ما دمنا لانستغرب ذلك فى حلم فلمـاذا لا نتقبله حين

يصفه شاعر فى قصيدة؟ إن الشاعر الذاتى الذى يراقب نفسه، كما لو كان يراقب بحراً زخراً لا شطآن له ولا قرار، لايستطيع أن يتهرب من مثل هذه الصور الباهتة الممحوة، فهى تلاحقه أبداً، ولابد له من وصفها فى شعره، والإبهام جزء أساسى من حياة النفس البشرية، لا مفر لنا من مواجهته إن نحن أردنا فناً يصف النفس، ويلمس حياتها لمساً دقيقا.

ومع ذلك فالإبهام ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو صورة من صور الحياة، ولذلك يندر أن نجد شاعراً، كل شعره معقد ملتو، أما الذين يتعمدون تعقيد شعرهم، فقد يكون (ألدس هكسلى) التمس لهم بعض العذر حين قال إن المعاصرين يهربون إلى الإبهام خوفاً من الوضوح الذى هو الصفة الأساسية فى الأدب الشعبى.

وليس قصدى من هذا التعليل للتعبير الرمزى والسريالى، أن أقول إن طائفة من قصائد هذه المجموعة تنتمى إلى هذه المدرسة أو تلك، وإنما أود أن أمهد لطائفة من القصائد التى عالجت فيها حالات تتعلق بالذات الباطنية أحياناً، وباللاشعور أحياناً، وهى حالات لم يقف عندها الشعر العربى إلا نادراً، فهو قد وقف نفسه على معالجة السلوك الخارجى للإنسان.

ففى «الخيط المشدود فى شجرة السرو» حاولت رسم صورة شعرية للانفعالات والخواطر التى اعترت شاباً فوجئ بنبأ موت حبيبته، وسيلاحظ أن القصة العاطفية فى هذه القصيدة ثانوية الأهمية بالنسبة للخيط المشدود فى الشجرة وما كان له من صلة وثيقة بشرود الشاب المصدوم، وفى حالة الهذيان الداخلى التى اعترته، فعقدة القصيدة تعتمد على الحالة التى تعترى إنساناً يتلقى نبأ مثيراً فاجعاً لايتوقعه؛ فهو إذ ذاك يصاب بشرود كبير عميق، ويبدو أنه لم يسمع النبأ، ويتلفت حوله فتعلق عيناه بأول شىء تافه تصادفانه، فيغرق فى التفكير فيه، وقد كان الشىء التافه فى هذه القصيدة هو الخيط، كان

مشدودا فى شجرة سرو تقوم عند الباب فانشغل العقل المصدوم بالتفكير فيه، وبقى منشغلاً حتى عاد إليه وعيه وأدرك فداحة المأساة التى نزلت به.

ولن يعثر القارئ على شيء مثير فى قصيدة «مر القطار» إن هو توقع أن يجد فيها وصفاً للقطار أو لرحلة فى القطار، فقد كان غرضى الأساسى من كتابتها أن أعبر عن الشعور الغامض الذى يحسه المسافر ليلاً بالدرجة الثالثة من القطار، فهناك حالة التعب الكلى التى يجد فيها المرء نفسه مشوبة بلون من الكسل والارتخاء، وهناك صوت عجلات القطار الرتيب الذى لايتغير، ولون الغبار المتراكم على كل شيء على الحقائب، وعلى الوجوه والثياب، ثم هناك منظر المسافرين الغرباء وقد جمعتهم عربة القطار صفوفاً، والقطار يصفر بين حين وحين فيثير إحساساً غريباً فى النفس، كل ذلك والسكوت يغمر العربة، التى نام أغلبية الموجودين فيها وهم جالسون على مقاعدهم، وبين فترة وأخرى، يصدف أن يتثاءب مسافر غريب لا نعرفه، ويهتف بملل وبرود «كم الساعة الآن؟» أو «متى نصل؟» أو «أين نحن؟» أو مثل ذلك من العبارات، فإذا أحس قارئ «مر القطار» ببعض هذا الجو كان ذلك حسبى.

أما قصيدة «الأفعوان» فقد عبرت فيها عن الإحساس الخفى الذى يعترينا أحيانا بأن قوة مجهولة جبارة، تطاردنا مطاردة نفسية ملحة، وكثيراً ما تكون هذه القوة، مجموعة من الذكريات المحزنة، أو هى الندم، أو عادة نمقتها فى سلوكنا الخارجى، أو صورة مخيفة قابلناها فلم نعد نستطيع نسيانها، أو هى النفس بما لها من رغبات وما فيها من ضعف وشرود، أو أى شيء آخر... فالأمر متوقف على ذاتية القارئ، وليس يعنيه أن أعين «افعوانى» أنا، فذلك أمر ثانوى، وإنما المهم، أن هذا الأفعوان يطاردنا باستمرار وسدى نتهرب منه، حتى إذا لذنا باللابرنث Labyrinth «وهو تيه معقد المسالك يدخله المرء فلا يملك مغادرته لالتواء طرقه وكثرة أبوابه»، حتى إذا استعملنا طريقة الإيحاء الذاتى كما صنعت أنا فى القصيدة:

إنه لن يجيء
لن يجيء وإن عبر المستحيل
أبداً لن يجيء

فالنتيجة الحتميـة، أنه يجيء أخيراً، وسرعان ما نصرخ «إنه جاء!» وفى قصيدة «خرافات» يجد القارئ لوناً من الشعـور أحسه، ويحسه كثيرون، كلما ساد السـكون مكانا، فإذ ذاك نسـمع بأذن الروح ألف قصـة تقصـها الأشـياء الراكدة حـولنا، فالسيـاج يتكلم ويعيد مـا كانت عنده من ذكـريات انطمست وماتت، و«قـصائص الورق الممـزق فى الخرائب» تحكى أقاصـيص مثـيرة عن حوادث بعيدة منسـية، و«الغبار» يقص قصة النسـيان الذى تذره العصور على كل شىء، و«مقاعد الغرف القديمة» تتـحدث عن جيل من الناس مر بها يوماً ثم انتـقل إلى أفق بعيـد مجهـول، وهكذا. . . حتـى يكاد الإنسان الحـساس لايرى شيئاً إلا ويحسه يغمغم ويهمس ويطارده بالكلام.

* * *

والذى أعتـقده أن الشعر العـربى، يقف اليوم على حافـة تطور جارف عاصف لن يبقى من الأسـاليب القديمة شيئاً، فـالأوزان والقوافى والأساليب والمذاهب ستتزعزع قواعدها جميعاً، والألفاظ ستتسع حتى تشمل آفاقاً جديدة واسعة من قوة التعبير، والتجارب الشعـرية «الموضوعات» ستتجه اتجاهاً سريعاً إلى داخل النفس، بعد أن بقيت تحوم حولها من بعيد، أقول هذا اعتماداً على دراسة بطيئة لشعرنا المعاصر واتجاهاته وأقـوله لأنه النتيجة المنطقية لإقبالنا على قـراءة الآداب الأوروبية ودراسـة أحـدث النظريات فى الفلسـفـة والفن وعلم النفس، والواقع أن الذين يريدون الجـمع بين الثقافـة الحديثـة وتقاليد الشـعر القديمة، أشبه بمن يعيش اليوم بملابس القرن الأول للهجرة، ونحن بين اثنين: إما أن نتعلم النظريات ونتأثر بها ونطبقها، أو ألا نتعلمها إطلاقاً.

وقد يفـيدنا أن نتذكر دائمـاً أن التطور الذى يحدث فى الفنون والآداب فى عصر ما، أكثر ما يكون ناشئاً عن التقاء أمتين أو أكثر، فقد يحدث أن أمة معينة، تخمد قابلياتها وتركد قـروناً كاملة بتأثير عوامل خاصة، ثم يأتى عليها زمن متوثِّب يوقظها فتتململ وتتحـرك، وترنو إلى ما حولها، وتبدأ باستيعاب ما فاتها من ثقـافات، فتستفـيد من تجارب أمة مجاورة بقيت نـشيطة فأضافت إلى الفكر الإنسانى فصـولاً لامعة، فما يمضى نصف قرن حـتى تنتهى الأمة التى كانت راكدة من مرحلة الاستيعاب، وتبدأ حيث وقفت الأمة المجاورة تبدأ بالإضافة، وهذا هو الأسلوب الذى يتبعه خط التطور فى تاريخ الأمم، بحيث لانستطيـع أن نعثر على مـذهب، أو اختـراع، أو نظرية، توصلت إليهـا أمة بعينها، دون أن تستفيد من تجارب الأمم الأخرى.

* * *

آخر ما أود أن أقوله فى هذه المقدمة، إننى أؤمن بمسـتقبل الشعر العربى إيمـاناً حاراً عـميـقاً، أؤمن أنه مندفع بكل مـا فى صدور شـعرائه مـن قوى ومواهب وإمكانيات، ليتبوأ مكاناً رفيعاً فى أدب العالم.

وألف تحية لشعراء الغد.

١٩٤٩/٢/٣

نازك الملائكة

كبرياء

لا تَسَلْني عن سرّ أدمعيَ الحرّ ... ىَ فبعضُ الأسرار يأبىَ الوضوحا
بعضُها يؤثِرُ الحياةَ وراءَ الـ ... ـحسّ لُغْزًا وإن يكنْ مجروحا

بعضُها إن كشفته يَسْتَحِلْ حُبّـ ... ـاً مُهاناً يموتُ موتاً حزينا
بعضُها بعضُها تكبَّر أن يكـ ... ـشفَ عما وراءَهُ أو يُبِينا

ومئاتُ الأسرار تكمنُ فى دمـ ... ـعة حُزْنٍ تلوح فى مقلتينِ
ومئاتُ الألغاز فى سكتة تهـ ... ـتزُّ خلفَ انطباقة الشفتينِ

وعيونٌ وراءَ أهدابها أشـ ... ـباحُ يأسٍ فى حَيرة وانكسارِ
تؤثِرُ الظلَّ والظلامَ ارتياعاً ... من ضياءٍ يبوحُ بالأسرارِ

وقلوبٌ تضُمُّ أشلاءها فو ... قَ جراحٍ وأدمعٍ وذهولِ
تؤثِرُ الموتَ كبرياءً ولا تنطـ ... ـقُ بالسرِّ بالرجاء الخجولِ

وشفاهٌ تموتُ ظمأىَ ولا تَسْـ ... ـأل أينَ الرحيقُ؟ أين الكأسُ؟
ونفوسٌ تحسُّ أعمقَ إحسا ... سٍ وتبدو كأنّها لا تُحِسُّ

وأكفٌ تودُّ لو مَزَّقتْ لو ... قَتَلَتْ لو تمرّدتْ في جُنونِ
لو رأتها الحياةُ قالتْ: هدوءٌ ... وادعٌ في براءةٍ وسكونِ

لو رأتْها ماذا تَرَى؟ كلُّ شيءٍ ... مُغْرَقٍ خلفَ داكناتِ السُّتورِ
ألفُ سترٍ وألفُ ظلٍّ من الكبـ ... ـتِ عميقٍ وألفُ قيدٍ ونيرِ

لا تَسَلني لاتجرحِ السرَّ في نفـ ... ـسي ولا تَمْحُ كبرياءَ سكوتي
لو تكلمتُ كانَ في كل لفظٍ ... قبرُ حُلْمٍ وفجرُ جُرْحٍ مُميت

لو تكلمتُ كيفَ ترتعشُ الأشـ ... ـعارُ حُزناً وترتمي في عَيَاءِ
لو كشفتُ السرَّ العميق فماذا ... يتبقى َمني سوى الأشلاءِ؟

لو تكلمتُ رعشةٌ في حياتي ... وكياني تُلحُّ أن أتكلّمْ
وسكوتي العميق يكتم أنفا ... سي وقلبي يكادُ أن يتحطّمْ

لو تكلمت لو سكتُّ نداءا ... ن عميقان كالحياة استعارا
تتلاقى َعليهما كلُّ أسرا ... رِي فأبقىَ شعراً وحبّاً وناراً

وتظَلُّ الحياةُ تخلُقُ من وجـ ... ـهي قناعاً صَلْداً يفيضُ رياءا
جامداً بارداً أصمّاً ويُخْفي ... بعضَ شيءٍ سمّيتُه كبرياءَ

(١٩٤٨)

يوتوبيا الضائعة

صدىً ضائعٌ كسراب بعيد ... يجاذب روحي صباحَ مساءْ
أنامُ على رَجْعِهِ الأبديّ ... ويوقظني برقيقِ الغناءْ
صدىً لم يشابهْه قطّ صَدَىً ... تغنّيه قيثارةٌ في الخفاءْ
إذا سمعتْهُ حياتي ارتمت ... حنيناً ونادتهُ ألفَ نداءْ
يموت على رجعه كلُّ جُرْح ... بقلبي ويُشرقُ كلُّ رجاءْ
ويمضي شعوري في نشوةٍ ... يخدّرُهُ حُلْم يوتوبيا

ويوتوبيا حُلُمٌ في دمي ... أموتِ وأحيا على ذكرِه
تخيَّلته بلداً من عبير ... على أفق حِرْتُ في سرِّه
هنالك عبر فضاءٍ بعيد ... تذوب الكواكب في سحرِه
يموت الضياء ولايتحقق ... ما لونه ما شذى زهرِه
هنالك حيث تذوب القيود ... وينطلق الفكر من أسرِه
وحيث تنام عيون الحياة ... هنالك تمتدُّ يوتوبيا

ويوتوبيا حيث يبقى الضياء ... ولاتغرب الشمسُ أو تَغْلسُ
وحيث يظلُّ عبيرُ البنفسجِ ... حيّاً ولايذبل النرجسُ
وحيث تفيضُ الحياةُ رحيقاً ... نميراً ولاتفرُغُ الأكؤسُ
وحيث تضيعُ حدودُ الزمان ... وحيثُ الكواكبُ لاتنعسُ
هناك الحياة امتداد الشباب ... تفور بنشوتهِ الأنفسُ
هناك يظلُّ الربيعُ ربيعاً ... يظلّلُ سكان يوتوبيا

هنالكَ حيث وعتْ شهرزاد ... أقاصيصَ غنّتْ بها ألفَ ليلهْ
وحيثُ دِيانا تسوقُ الضياء ... ونارسيسُ يعبُدُ فى الشمسِ ظلَّهْ
هنالك يوتوبيا فى الضباب ... على شفق لم تَرَ العين مثلهْ
يحفُّ بها أبدٌ من عطور ... ويمنحُها ألفَ لحنٍ وقُبْلهْ
وترقدُ فى سَكْرةٍ لا تُحَدُّ ... على رجع أغنيةٍ مضمحلَّهْ
على شاطئٍ كضياء النجوم ... أسمّيه شاطئَ يوتوبيا

هنالك طوّفتُ ذات مساء ... وكان معى هيكلٌ كالسرابْ
أُحسُّ خطاهُ على الرمْل لكن ... أرى غيرَ شيء وبعض سحابْ
وكنتُ أحسُّ بجسمى حياةً ... تطيرُ بروحىً فوق الترابْ
وكان أمامى ممرٌّ غريبٌ ... تغلّفُهُ دفقات الضبابْ
ويمتدُّ عن جانبيه خليجٌ ... وبعضُ جزائرَ بعضُ هضابْ
وفى حُلُمى صحتُ: أين أسير ... فردَّ صدىً: قربَ يوتوبيا!

أحسستُ في قعر روحي جنوناً ... وشوقاً عميقاً كبحرٍ عميقْ
أريدُ انتهاء الطريقِ الغريب ... إلى البلد المتمنَّى السحيقْ
لـــى ذلكَ الأفقِ الأزليّ ... وحيث يعيشُ أبولو الرقيقْ
أسيرُ أسيرُ ولا شيءَ يبدو ... أمامي غيرَ امتداد الطريقْ
على ظمأ لوجود عجيب ... يذوبُ عليه النَدَى والبريقْ
على ظَمأ صارخٍ وأخيراً ... صحوتُ ولم أرَ يوتوبيا

وفي حُلُم آخرٍ كنتُ أمشي ... على شاطئٍ من حصىً ورمالْ
غريبٍ غريبٍ بلونِ الأثير ... يحفُّ به أفُقُ كالخيالْ
تناهى بأقدامي المُتْعَبَات ... إلى صخرة رسخَتْ كالمحالْ
تسلَّقْتُهَا أملٌ مضمحلٌّ ... فقد تتزحلقُ حتى الظلالْ
وقفتُ على قَدمَيْها أنوحُ ... على حُلُمٍ بائسٍ لن يُنالْ
وساءلتُ ماذا ترى خلفَها؟ ... فقال ليَ الرملُ: يوتوبيا!

وفي حُلمٍ ثالثُ خلتُ نفسي ... على بابها المرمريِّ الكبيرْ
أحدّقُ في نشوة لا تحدُّ ... أكادُ أُجَنُّ.. أكادُ أطيرْ
أحقا أرى البابَ؟ ألواحُهُ ... تلوحُ مبطَّنةً بالحريرْ
تقدمتُ واجفةً في خُشوعٍ ... وفي مقلتي ومْضُ حُلْمٍ قريرْ
أدقُّ على الباب في نَشْوةٍ ... ولا ردَّ غيرَ السكونِ المريرْ
فصحتُ بصوتٍ حبيسٍ: دعوني ... أموتُ على بابِ يوتوبيا

ومــرتْ حــيـاتيَ مــرّت ســدىً ولا شـيءَ يـطـفـئ نـار الحـنـينْ
سدىً قد عبـرتُ صحارى الوجود سُـدىً قـد جـررتُ قـيـود السنينْ
ومـا زلتُ أذرعُ صـمـتَ القـفـار وأســألُ عن ســرِّهـا العـابـرينْ
يـطـولُ عـلـى قـلـبـيَ الانـتـظـار وأغــرقُ فـي بحــر يأس حــزينْ
أحــاولُ أن أتـعــزى بشـيء بـغــاب، بـواد، بـظـلة تـيـنْ
دقــائقَ... ثم أخـيـبُ وأهـتفُ: لا شيءَ يُشْــبـهُ يـوتـوبـيـا

ســأبقى تجــاذبني الأمـنيـات إلى الأفق الســرمــديّ البــعـيـدْ
وأحلُـمُ أحلُمُ لا أســتـفـيـ ـقُ إلا لأحـلُمَ حُلمـاً جــديدْ
أقـبّلُ جــدرانهـا في الخـيـال وأســألُ عنهــا الـفـضـاءَ المديدْ
وأســألُ عنهــا انسكابَ العطور وقَطْرَ الندى وركــامَ الجلـيــدْ
وأســألُ حــتى يمــوتَ الســؤال على شــفتيَّ ويخـبــو النشيــدْ
وحــين أمــوتُ... أموتُ وقـلبي عـلـى مــوعــدٍ مع يوتـوبيــا

١٩٤٨

تواريخ قديمة وجديدة

لَنِسرٌ كان أمسٌ وماتْ　　　منذُ بضع مئاتِ السنينْ
مُسحتْ ذكرهُ السنوات　　　وطوتهُ مع الميِّتينْ

وبحثنا زماناً طويلْ　　　عن كواكبه الآفلاتْ
واستعرنا يدَ المستحيلْ　　　لنُعيدَ إليه الحياةْ

وأهبْنا بركب العُصورْ　　　أن يعودَ على بَدْء
علَّنا نستعيدُ الشعورْ　　　فَرجَعْنا بلا شيء

كم شققنا هناكَ الظلامْ　　　وعبرْنا سكونَ الركودْ
ونبشنا رُكَامَ العظامْ　　　لم نجدْ شيئَنا المفقودْ

ورأينا هناك جباهْ　　　لا ترى فهي عمياءُ
وعيوناً طوتْها الحياهْ　　　صمتتْ فهي خرساءُ

ورأينا رفاتَ قلوبْ　　　حنّطتْها يدُ الذكرياتْ
وسدىً حاولتْ أن تؤوبْ　　　معنا فهْي.. فهي رُفاتْ

ورأينا شــــفــــاهاً خـــوتْ لم تَـعُـــد تشـــتكى أو تجــوعْ
وأكـــــفــــاً ذوتْ وانطـوتْ لم يـعـــد لأســـاها دمـــوعْ

وســــــــألنـا عـن الأمسِ فــــعــــــشــــرنا عـلى تـابوتْ
وهـــنــاكَ عـــلـــى الــرمْــسِ يجـــثمُ الزمنُ المبـــهـــوتْ

ورَجـــعنا إلى التـــقـــويمْ عـلّــنـا نـخـــــــــدعُ الأيـامْ
فـــســمــعنا صُـــراخَ الهـشـيمْ خلـفَ ســخـــريـة الأرقـــامْ

ورأيـنـا الـغـــــــدَ المنـتـظرْ ســــاحـــبــاً نـصـفَـــهُ المشلولْ
ســاحـبـاً نـصـفَـهُ المُحـتَـقَـرْ نصـــفَـــهُ الجـــامـــدَ المملولْ

وهـناكَ انـطوى ســـــفْـــــرُ واخــتــتـمْـنا النشـيـدَ القــديمْ
وغـــــداً يـنبُـتُ العُـــمْـــرُ فـــوقَ جُـــرْحِ الـزمـــانِ الألـيم

ويتـــيــــهُ صـــدى الأمسِ فى مـــدار الـزمـانِ الـعـــمــيقْ
ونُـحِـــسُّ عـــلـــى الــكــأسِ فـــورةَ الحُلُمُ المســـتـــفـــيقْ

١٩٤٨

صراع

أحبُّ.. أحبُّ.. فقلبي جُنون وسورةُ حبٍّ عميق المَدَى
أحبُّ فروحيَ حسٌّ غريبُ يضيع لديه جمودي سُدَى
حياتيَ في العالم الشاعريِّ لهيبٌ من الحبِّ لن يَخْمَدا
وجسمي قَلبٌ خَفُوقٌ خفوق سيلبثُ ملتهباً موقَدا

وأكرهُ أكرهُ قلبي لهيبٌ وسَورةُ مَقْت كبير كبيرْ
وروحيَ مستعرُ الاحتقار يرى الكونَ أفْقاً وضيعاً حقير
حياتي تحسّ وجيبَ الحُقُود على عالم مغرَق في الشُرُور
ونفسيَ في ثورة لا تَقَرُّ تحقِّرُ ما حولها من صخور

أحبُّ وأكرهُ.. حبِّي شقاءْ
أحبّ وأكره.. كُرْهي ألَمْ
فَفِيمَ أعيشُ؟ سئمتُ البقاءْ
وشاقَ حياتيَ صمْتُ العَدَمْ

وأبكي.. وأبكي.. فدمعي لهيب يحطّمُ روحي ويُذْوِي المنى
تعذِّبني حَيرتي في الوجود وأصرُخُ من ألمي: من أنا
مُنحتُ عيوناً تحبُّ الدموع وقلباً يحبِّذُ أن يُطعَنا
وروحاً تعثّر فيما يريد فمجَّ الظلامَ وعاف السَّنا

وأضحكُ من كلِّ ما في الوجود وفي ضَحكي مَرَحٌ ساخرُ
فقلبيَ سخريةٌ واحتقارٌ يثيرهما العالمُ العاثرُ
أحدّقُ من قمّتي في الثَرَى فيُضحكني دودُهُ الناخرُ
وأضحكُ ضحكةَ ربٍّ كئيب تمرَّدَ مخلوقُهُ الكافرُ

وأبكي واضحكُ.. دمعي دماءُ
وأبكي واضحكُ.. ضحكي نَدَمْ
ففيمَ أُمرِّغُ تحت الضياءْ
فؤاداً سيرقُدُ تحت الظُلَمْ

أريدُ وأجهلُ ماذا أريد أريد وعاطفتي لا تُريدْ
أحبُّ السماءَ ولونَ النجوم وامقتُها كلَّ فجرٍ جديدْ
أريدُ وأشعُرُ أني أحسُّ ويسخَرُ مما أحسُّ الوجودْ
وأرغبُ في حُلمٍ غامضٍ فليس له هيكلٌ أو حدودْ

وأنفرُ من كلِّ ما في الوجود وأهرُبُ من كلِّ شيءٍ أراهْ
ففي عُمْق نفسيَ صوتٌ غريب يعلّمُ قلبي ازدراءَ الحياهْ
ويصرُخُ بي: اهربي اهربي ويُتعب احساسَ روحي صَداه
فاهتفُ يا عالمي: لا أريد! وتصرخُ بي ذكرياتي: النجاه!

أريدُ وأنفرُ تحت السماءْ
فأرسمُ كلَّ صراعي نَغَمْ
ومن أجلِ لحني سأرضى البقاءْ
وعارَ الحياةِ وذُلَّ الألمْ

أحبُّ وأكره ماذا أحبُّ | وأكرهُ؟ أيُّ شعورٍ عجيبْ؟
وأبكي وأضحك ماذا ترى | يثيرُ بكائي وضحكي الغريبْ؟
أريدُ وأنفرُ، أيُّ جنونِ | حياتيَ؟ أيُّ صراعٍ رهيبْ؟
لماذا أغنّي؟ لماذا أعيشُ؟ | ومنذا أصارعُهُ، من يُجيبْ؟

١٩٤٧

عندما انبعث الماضي

أمسُ في الليل وكانت صور الأسرار شتّى
تَتَصبّى حاضري الغافي وكان الأمسُ مَيّتا
خلْتُني كفّنته ذات مساءِ
وتحصنتُ بدعوى كبريائي
سمعتْ روحيَ في إغفاءة الظلمة صوتا
لم يكن حلماً خُرَافيَّ الستورِ
بعثتهُ رغبةٌ خلف شعوري
كان شيئاً، كان في صمت الدُجَى صوتك أنتا
ذلك الصوتُ الذي يعرفهُ سمعي مليّا
صوت ماضيً الذي ماتَ وما خَلَّفَ شيّا
غيرَ أشتاتِ احتقارٍ باهتِ
رسبتْ في قعْر قلبي الصامتِ
غيرَ أشتاتِ ادّكاراتِ لحبٍّ كان حيّا
منذ أعوامٍ.. وقد فاتَ ومرّا
منذُ أعوامٍ.. وصار الآن ذكرا
لفّها الماضي وواراها الترابَ الأبديا

ذلك الصوتُ الذى مرّ على سمعىَ أمس
كان يوماً رغبة تجهش فى أعماقِ نفسى
كان حُلماً ذائباً فى عبراتى
كان حبّاً تائهاً فى أمنياتى
ثم حطّمتُ على ذكراهُ قيثارى وكأسى
عندما ضيعتُهُ تحت الضبابِ
وتعثرتُ بأشلاءِ شبابى
وتهاويتُ على جثة أحلامى وأُنسى

ومضى عامان مطوطان مرّا فى شُحُوبِ
كان عمرى خربةً يصبغها لون الغروبِ
تذرعُ الأشباحُ فى الصمت دُجاها
ويعيش البوم فى ظلٍّ أساها
كلما جالت بى الحيرة فى القبو الغريبِ
مدتْ الذكرى ذراعيها إليَّا
لونُها يخلقُ من رُعبىَ دنيا
ويثيرُ الوترَ الميِّتَ فى قلبى الكئيبِ

وانقضى عامانِ ملعونانِ من أعوامِ حبى
مزّقتْ روحيَ أظفارُهما، روحى وقلبى
لم تَدعْ حتى شِراعاً من رجاءِ
أبداً لم تُبْقِ إلا كبريائى
وأباديدَ ادّكارات لها قسوةُ ذئبِ
عرفتْ روحيَ فيها لون أمسى
أمسيَ الراسبُ فى أعماقِ حسّى
عرفتْ فيها صدى الصوت الذى غمغم قربى

إنه الأمسُ إذنْ عاد ليحيا من جديدِ
إنه عاد إذن يطرقُ أبوابَ شرُودى
أسفاً يا شبحى عُدْ للترابِ
لم تعُدْ تملك أن تطرقَ بابى
لم يعد يربطنا إلا ركامٌ من حدودِ
هُوةٌ أعمقُ من ذنبكَ! ماذا؟
قد تبقّى لك عندى غيرُ هذا؟
غير ذكرى عبرتْ يوماً ومرّتْ بوجودى؟

مر القطار

الليلُ ممتدٌّ السكونِ إلى المدَى
لاشيءَ يقطعُهُ سوى صوتٍ بليدْ
لحمامةٍ حَيْرى وكلبٍ ينبَحُ النجمَ البعيدْ،
والساعةِ البلهاءُ تلتهمِ الغدا
وهناكَ في بعضِ الجهاتْ
مر القطارْ
عجلاته غزلت رجاءً بتُّ أنتظر النهارْ
من أجلِه.. مرَّ القطارْ
وخبا بعيداً في السكونْ
خلفَ التلال النائياتْ
لم يبقَ في نفسي سوى رجْعٍ وَهُونْ
وأنا أحدّقُ في النجومِ الحالماتْ
أتخيلُ العرباتِ والصفَّ الطويلْ
من ساهرينَ ومتعبينْ
أتخيلُ الليلَ الثقيلْ
في أعينٍ سئمتْ وجوهَ الراكبينْ
في ضوءِ مصباحِ القطارِ الباهتِ

سَئمتُ مراقبةَ الظلامِ الصامتِ
أتصوّرُ الضجَرَ المريرْ
فى أنفسٍ ملّت وأتعبها الصفيرْ
هى والحقائبُ فى انتظارْ
هى والحقائبُ تحت أكداسِ الغبارْ
تغفو دقائقَ ثم يوقظُها القطارْ
ويُطلُّ بعضُ الراكبينْ
متثائبًا، نعسانَ، فى كسلٍ يحدّق فى القفارْ
ويعودُ ينظُرُ فى وجوه الآخرينْ
فى أوجه الغُربَاء يجمعُهم قطارْ
ويكادُ يغفو ثم يسمَعُ فى شُرُودْ
صوتاً يغمغمُ فى برُودْ
«هذى العقاربُ لاتسيرْ!
كم مرَّ من هذا المساء؟ متى الوصولْ؟»
وتدقُّ ساعتهُ ثلاثاً فى ذُهُولْ
وهنا يقاطعهُ الصفيرْ
ويلوحُ مصباحُ الخفيرْ
ويلوحُ ضوءُ محطة عبرَ المساءْ
إذ ذاك يتئدُ القطارُ المُجْهَدُ
... وفتىً هنالكَ فى انطواءْ

يأبَى الرقادَ ولم يزلْ يتنهدُ
سهرانَ يرتقبُ النجومْ
فى مقلتيه برودةٌ خطٌّ الوجومْ
أطرافَهَا.. فى وجهه لونٌ غريبْ
ألقتْ عليه حرارةُ الأحلام آثارَ احمرارْ
شَفَتاهُ فى شبه افترارْ
عن شبْهِ حُلْمٍ يفرُشُ الليلَ الجديبْ
بحفيفِ أجنحة خفيّاتِ اللُحونْ
عيناهُ فى شبْه انطباقْ
وكأنّها تخشَى فرارَ أشعة خلف الجفونْ
أو أن ترى شيئاً مقيتاً لا يُطَاقْ
هذا الفتى الضَجِرُ الحزينْ
عبثاً يحاول أن يرى فى الآخرينْ
شيئاً سوى اللُغْزِ القديمْ
والقصّة الكبرى التى سئمَ الوجودْ
أبطالَها وفصولَهَا ومضَى يراقبُ فى برودْ
تَكْرارهَا البالى السقيمْ
هذا الفتى.....
وتمرُّ أقدامُ الخفيرْ
ويُطِلُّ وجهٌ عابسٌ خلفَ الزُجاجْ،

وجهُ الخفير!
ويهزُّ في يده السراجْ
فيرى الوجوهَ المتعَبه
والنائمينَ وهُمْ جلوسٌ في القطارْ
والأعينَ المترقبه
في كلِّ جفْنٍ صرخةٌ باسمِ النهارْ،
وتضيعُ أقدامُ الخفير الساهدِ
خلفَ الظلامِ الراكدِ

مرَّ القطارُ وضاع في قلبِ القفارْ
وبقيت وحدى أسألُ الليلَ الشرودْ
عن شاعري ومتى يعودْ؟
ومتى يجيءُ به القطارْ؟
أتراهُ مرَّ به الخفيرْ
ورآه لم يعبأ به.. كالآخرينْ
ومضى يسيرْ
هو والسراجُ ويفحصان الراكبينْ
وأنا هنا ما زلتُ أرقُبُ في انتظارْ
وأوَدُّ لو جاءَ القطارْ....

١٩٤٨

عروق خامدة

يا حُبُّ لم تَبْقَ لنا ذكرى — لم يطوها الموتُ
كان لنا ماضٍ وقد مرّاً — ولفَّهُ الصمْتُ

نحن هنَا وهمانِ، لا لونا — لا صوتَ لا شكلا
سرابُ لاشيئينِ، لا معنى — لا لفظَ لا ظلاّ

تدفعنا الآهاتُ والأحزانْ — وما لنا مأوى
يا ليتنا نظفرُ بالنسيانْ — أو نُمنحُ السلوى

نبكي فلا تحنو علينا يدُ — بربتةٍ من حنانْ
نحن هنا اللا أمسُ واللا غَدُ — نحن هنا اللاكيانْ

أعيننا أفقٌ بلا لونِ — لايعكس الأشياءْ
شفاهنا لحنٌ بلا لحنِ — وروحنا أشلاءْ

ونلتقي فتسكُتْ النجوى — وتكتم الأنفاسْ
وضحكةٌ تبدو بلا جدوى — ينقصُها الإحساسْ

وتلتـــقى الكفّـان أيـنَ الرغــابْ ورغـــــشــــة الأشـــــواقْ؟
أصـابـعٌ مـيّـتــةُ الأعـــصــاب ليس لـهـــا أعـــمــــاقْ

وأعـــينٌ فـــارغـــةُ الأحـــداقْ لـيـسَ لـهــــــا قـلـبُ
الشَـرْقُ فـيـهـا أسـودُ الآفــاق ويـلـهَـثُ الـغــــــربُ

وأذرعٌ صَـمــاءُ كـــالأحـجــارْ فــــارقـــهـــا الشـــوقُ
جــامـدة لو لامَـسَـتهـا النارْ لـم يسـتـــفـقْ عِـرْقْ

ونـلـتـــقى ينقـــصـنا شـيءُ شــــيءٌ وراءَ الـــروحْ
شـــفـــاهنا يُنكرهـا الضـــوءُ ولـيـلُـنَـا مـــجــــروحْ

ونـلـتـــقى تفْـــصِلُنا آلامْ وأدمـعٌ خُـــــــرْسُ
يعـــزُّ أنْ تجـمــعنا الأيامْ وبـيـنــنـــا الأمـــسُ

وبـيـنـنـا هاويـة الـذكـــــرى تـقـــذفُ بالأشـــبــاحْ
سُــدَىً أريدُ الـضَّــفَّــة الأخــرى قـــــد غـــرقَ المـلاّحْ

١٩٤٨

الجرح الغاضب

أغضبُ أغضبُ لن أحتمل الجُرْحَ الساخرْ
جُرْحٌ قد مرَّ مساء الأمس على قلبي
جُرْحٌ يجثم كالليل المُعْتِم في قلبي
يجثم أسود كالنِقْمة في فكرٍ ثائرْ
جرحٌ لم يعرف إنسانٌ من قبلي مثلَهُ
لن يشكو قلبٌ بشريٌّ بعدي مثلَهْ

الظلمة في أمسي المطويِّ أحسَّتْهُ
ومضت تهمس في صمت الليل: من الجاني
حتى الأبديةُ والآفاق أحسَّتْهُ
وتناسى، لم يعبأ، لم ينتبهِ الجاني.

أغضبُ، تغضبُ لي هَمَساتُ الليلِ الصامتْ
وتُحيلُ الجوَّ الواجمَ صرخةَ جبّارِ
وتقولُ الأنجمُ: هذي نقمةُ جبّارِ
ويثورُ بقلبِ الأبديَّةِ جُرْحٌ ساكتْ
أغضبُ، يرتعشُ الموجُ معي تحت القَمَرِ
ويضجُّ وتبلُغُ ثورتُهُ سمْعَ القَمَرِ

ويُجَنُّ الغيمُ الأسودُ في عَرْضِ الأُفُقِ
ويلُفُّ الشاطئَ ثوبُ حِدادٍ كجنازه
يتحوَّلُ صمتي ناراً تصرُخُ في الأُفُقِ
وأغني رقّةَ إحساسي لحنَ جنازه

أمسى، في أمسي قد دُفِنتْ أشلاءُ غدي
كانتْ، لم يَدْرِ بها أحدٌ، شبهُ جريمه
الجُرْحُ النديانُ سيشهد، أيُّ جريمه

كيفَ على الأرض تساقطَ حُلْمي بين يدي
كيف المقدورُ مضى نَزقاً يقتُل قلبا؟
وتبقّتْ بضعةُ أشلاءٍ كانتْ قلبا

وتبقّتْ ذكرىً مُطْفَأةٌ كانتْ أمسا
وتبقّت أنّاتٌ حَيْرَى كانتْ لحنا

جُدرانٌ عاريةٌ كانتْ يوماً أمسا
أصداءٌ في غارٍ خاوٍ كانتْ لحنا

ومن الأعماق تصاعَدَ صوتٌ مخنوقُ
يهتُفُ في حُزْنٍ، في جَزَعٍ: كيف أبوحُ؟
ليتَ الجُرْحَ المظلومَ إلى الليلِ يبوحُ

قد يثأرُ لي مطرٌ ورعودٌ وبروقُ
ورأيتُ على الأفُق المخضوب بفيضِ دمي
شبَحاً تفترُّ على فمِهِ قَطَراتُ دمي

عيناهُ الزرقاوانِ مساءا أهوالِ
ويداهُ السوداوانِ ذراعا عفريتِ

شبَحٌ مجنونٌ أيقظَ عاصفَ أهوالِ
وأحالَ دياجيري أُحجيّةَ عفريتِ

أغضبُ للجُرحِ المختلج الشاكى أغضبْ		سيُجَنُّ معى الصبر المذبوحُ المرتعشُ
سَتُجَنُّ معى اللعنةُ والحقْدُ المرتعشُ
ستثورُ معى الذكـرى ستثورُ ولا مَهْربْ		لا مهربَ من جُـرحٍ قد مرَّ على قلبى
جرحٌ يصرُخُ كالجوعِ البائسِ فى قلبى

الظلمـةُ فى صمْت الآفـاق أحسّـتْهُ		ومضتْ تسـألُ فى قلبِ الليلِ: من الجانى؟
حتـى القُمـريّةُ والأشجـارُ أحسّـته		وتضاحكَ، لم يشعرْ، لم ينتبهِ الجانى

١٩٤٨

الباحثة عن الغد

غـداً نـلتـقى» نَبَـأٌ فى الـزمـانْ	رَوَتْـهُ الحـيـاهْ
تلاَشى ولم تَروهِ شَـفَـتـانْ	تـلاشـى وتـاهْ

وجـاءَ غـدٌ ثم ولّى ومـاتْ	وعـادَ ضَـبَـابـا
فـأينَ «غـداً نلتـقى» يا حـيـاةْ	أعـادتْ تـرابـا؟

«غـداً نلتـقى» ثم مـاتَ الزمـانْ	وضـاعَ المـكـانْ
وهل يلتـقى أبداً عـاشـقـانْ	عـلى لا كـيـانْ؟

وكـان لنا مـوعـدٌ فـانطوَى	صـداهُ ومـاتْ
وكم كـوكبٍ فى الديـاجى هَوَى	عـادَ رفُـاتْ

وكـانت لنا قـصّـةٌ كـالبَـشَـرْ	نسـيجُ السـنينْ
فـأسـفَـر آخِـرُها عن قَـدَرْ	وذابَ الـرنـيـنْ

وكنّـا نمرُّ فـتـرنو الحـيـاةْ	وتـومـى إلـيـنـا
وها نحنُ تختـصم الذكـرياتْ	عـلى شَـفَـتَـيْنـا

ويطرُدُنا الأمسُ من كلّ ما ملكناهُ يوما
سوى حاضرٍ مُغْرَقٍ في الدما ويقطُرُ سُمّا

ونسمَعُ بعضاً وراءَ المساءْ من المَشْرِقِ
صدى لفظتينِ يجوسُ الفضاءْ «غداً نلتقي»

ويأتي غَدٌ في أسىً وشُرُودْ بصَمْتٍ طويلْ
بألفِ صدىً ساخرٍ في برودْ وراءَ النخيلْ

«غداً نلتقي» ويسود السكون سكون الخريفْ
وأسمع تحت السماء الحنون صراخاً عنيف

وقهقهةً، فظةً، بارده كجوّ القبور
ترددها شفةٌ حاقده وراء العصور

«غداً نلتقي» وتمطّ النغم وتسخر مني
ويبقى غدي تائهاً في الظلم يفتّش عني

١٩٤٨

الأفعوان

أين أمشي؟ مللتُ الدروبْ
وسئمت المروجْ
والعدوّ الخفي اللجوج
لم يزل يقتفي خطواتي، فأين الهروب؟
الممرات والطرق الذاهباتْ
بالأغاني إلى كل أفق غريبْ
ودروب الحياة
والدهاليز في ظلمات الدجى الحالكات
وزوايا النهار الجديب
جبتها كلها، وعدوّي الخفيّ العنيدْ
صامدٌ كجبال الجليد
في الشمال البعيد
صامدٌ كصُمُودِ النُجُومْ
في عُيون جَفَاها الرُقادْ
ورمتْها أكُفُّ الهمُومْ
بجراحِ السُهادْ
صامدٌ كصُمودِ الزَمنْ

ساعةَ الانتظارْ
كلَّما أمعنتْ في الفرارْ
خُطُواتي تَخطّى القُنَنْ
وأتاني بما حطّمتْهُ جُهودُ النهارْ
من قيودِ التذكّرِ... لن أنشُدَ الانفلاتْ
من قيودي، وأيُّ انفلاتْ
وعدوّي المخيفْ
مقلتاهُ تمجُّ الخريفْ
فوقَ روحٍ تُريدُ الربيعْ
ووراءَ الضَّبابِ الشفيفْ
ذلك الأفعوانُ الفظيعْ
ذلك الغولُ أي انعتاقْ
من ظلال يَدَيْه على جَبْهتي البارده
أين أنجو وأهدابُهُ الحاقده
في طريقي تَصُبُّ غداً مّيتاً لا يُطاقْ؟

أين أمشي؟ وأيُّ انحناءْ
يُغلقُ البابَ دونَ عدوّي المُريبْ
إنه يتحدّى الرجاءْ

ويقهقهُ سخريّةً من وجومى الرهيبْ
إنه لايُحسّ البكاءْ
أينَ.. أينَ أغيبْ
هَرَبى المستمرُّ الرتيبْ
لم يَعُدْ يستجيبْ
لنداءِ ارتياعى وفيم صراخُ النداءْ؟
هل هناك ملاذٌ قريبْ
أو بعيدٌ.. سأمضى وإن كانَ خلفَ السماءْ
أو وراءَ حُدود الرجاءْ
ثم ذاتَ مساءْ
أسمع الصَوْتَ:
«سيرى فهذا طريقٌ عميقْ
يتخطّى حدودَ المكانْ
لن تعى فيه صوتاً لغمغمةِ الأفعوانْ
إنه «لا بَرِنْثٌ» سحيقْ
ربما شيّدَتْهُ يدٌ فى قديمِ الزمانْ
لأميرٍ غريبِ الطباعْ
ثم ماتَ الأميرُ.. وأبقى الطريقْ
لأكُفِّ الضياع»
أسمعُ الصوتَ ملءَ البقاعْ

فأسيرُ لعلّى أفيقْ
من دياجير كابوسىَ الأبدىِّ الصفيقْ
ربما سيَضلُّ عدوّى الطريقْ
ما أحبَّ المسيَر وليس ورائى خطىً مائته
تتمطّى بأصدائها الباهته
فى محانى طريقى الطويلْ
إنه لن يجىءْ
لن يجىءَ وإن عَبَرَ المستحيلْ
أبداً لن يجىءْ
لن يراهُ فؤادى البرىءْ
من جديد يثيرُ الرياحْ
لتسُدَّ علىَّ السبيلْ
فى هدوءِ الصباحْ
أبداً لن يجىءْ
لن يجىءَ!
وأسمعُ قهقهةً حاقده
إنه جاء، يا لضياعِ رجائى الكسيرْ
فى دُجَى اللاَبرنْث الضريرْ
وأُحسُّ اليدَ البارده
تضغَطُ البردَ والرُعْبَ فوق هدوئى الغريرْ

بأصابعها الجامده
إنه جاءَ.. فيم المسيرْ؟
سأودِّعُ حُلمى القصيرْ
وأعودُ بجثّتِه البارده

وتمرُّ تمرُّ الحياة
وعدوِّى الخفىُّ العنيدْ
خلف كلِّ طريقٍ جديدْ
فى ليالى الأسى الحالكات
خلفَ كلِّ سحَرْ
وأراهُ يُطلُّ علىّ مع المنتظَرْ
مع أمسى البعيدْ
مع ضوءِ القمرْ
فى الفضاء المديدْ
أينَ أينَ المفَرْ
من عدوّى العنيدْ
وهو مثْلُ القَدَرْ
سرمدىٌّ، خفىٌّ، أبيدْ.
سرمدىٌّ، أبيدْ.

١٩٤٨

خرافات

«هدية إلى صديقتي ديزي الأمير تحية لذكرى مساء فلسفنا فيه كل شئ حتى الكراسي والمناضد والستائر».

قالوا الحياة

هى لونُ عينَى ميّتِ
هى وقعُ خَطو القاتلِ المتلفّتِ
أيامُها المتجعدات
كالمعطف المسمومِ ينضَحُ بالممات
أحلامُها بَسَماتُ سَعْلاة مخدِّرة العيونْ
ووراءَ بسمتِها المَنُونْ

قالوا الأملْ

هو حَسرةُ الظمآنِ حينَ يرى الكؤوسْ
فى صورة فوق الجدارْ
هو ذلكَ اللونُ العَبُوسْ
فى وجهْ عُصفورٍ تَحَطَّمَ عُشُّهُ فبكى وطارْ
وأقام ينتظرُ الصباحَ لعلَّ معجزةً تُعيدْ
أنقاضَ مأواهُ المخرَّبِ من جديدْ.

قالوا النعيمْ

وبحثتُ عنه في العيونِ الغائراتْ
في قصّةِ البؤسِ التي كُتِبتْ على بعض الوجوهْ
في الدهرِ تأكلُهُ سنوه
في الزهرِ يرصدُ عطرَهُ شبحُ الذبولْ
في نجمةٍ حسناءَ يرصدُها الأفولْ
قالوا النعيم ولم أجدْهُ فهل طَوى غدَهُ وماتْ؟

قالوا السكونْ

أسطورةٌ حمقاءُ جاء بها جَمَادْ
يُصغي بأذنيه ويتركُ روحَه تحت الرمَادْ
لم يسمعِ الصرَخاتِ يُرْسِلُها السياجْ،
وقصائصُ الورقِ الممزَّق في الخرائب، والغبارْ،
ومقاعدُ الغُرَفِ القديمة، والزُجَاجْ،
غطّاهُ نَسْجُ العنكبوت، ومعطفٌ فوق الجدارْ.

قالوا الشباب

وسألتُ عنه فحدثوني عن سنينْ
تأتي فينقشعُ الضَبَابْ

وتحدثوا عن جنّة خلف السَرَابْ
وتحدثوا عن واحةٍ للمتعَبينْ
وبلغتُها فوجدتُ أحلامَ الغَدِ
مصلوبةً عند الرتاجِ الموصَدِ

قالوا الخلودْ
ووجدتُهُ ظلاً تمطّى فى بُرُودْ
فوق المدافنِ حيثُ تنكمشُ الحياهْ
ووجدتُهُ لفظاً على بعض الشفاهْ
غنّته وهى تنوحُ ماضيْها وتُنزِلُهُ اللحودْ
غنّتْهُ وهى تموتُ.. يا لَلإزدراء!
قالوا الخلودُ، ولم أجدْ إلا الفناءْ.

قالوا القلوبْ
ووجدتُ أبواباً تؤدى فى اختناقْ
لمقابرٍ دُفِنَ الشعورُ بها وماتَ غدُ الخيالْ
جُدرانُهَا اللزجاتُ تبتلعُ الجَمَالْ
وتمجُّ قبحاً لا يُطاقْ
وهربتُ شاحبةً أتلك إذنْ قلوبْ؟
يا خيبةَ الأحلامِ، إنى لن أؤوبْ.

قالوا العيونْ

وَوجدتُ أجفاناً وليس لها بَصَرْ
وعَرَفْتُ أهداباً شُدِدْنَ إلى حَجَرْ
وخبرتُ أقباءً ملفّعَةً بأستار الظنونْ
عمياءَ عن غير الشُرور وإن تكن تُدعى عيونْ
وعرفتُ آلافاً وأعينُهم صفائحُ من زجاجْ
زرقاءُ في لون السماء، وخلف زرقتها دياجْ

قالوا وقالوا

ألفاظُهم لاكت تَرَدُّدَها الرياحْ
في عالمٍ أصواتُهُ الجوفاءُ يرصُدُها الفناءْ
المتعبونَ بلا ارتياحْ
الضائعونَ بلا انتهاءْ
قالوا وقلتُ وليس يبقى ما يُقالْ
يا لَلخرافةِ! يا لَسُخريةِ الخيالْ!

١٩٤٨

جحود

فى سُكونِ المساءْ   فى ظلامِ الوجودْ
حينَ نامَ الضياءْ   واعترانى جُمودْ

خِلْتُ نفسى أسيرْ   فى مكان بعيدْ
فوق قلبى أثيرْ   تحت رجلِى قُيودْ

فى كيانى فُتورْ   فى دمى نَوءْ
لقَّبوه الشعورْ   وهو لا شىءُ

فى إسار الألمْ   روحىَ المبهمْ
يا معانى العَدَمْ   آهِ لو أفهمْ

فى ضَبَابِ الوجودْ   أنا كالسرٍّ
وغداً سأعود   دون أن أدرى

جَسَدى فى الألمْ   خاطرى فى القيودْ
بين هَمْس العَدَمْ   وصُراَخ الوجودْ

وسكونى حياةْ   وظلامى بريقْ
النجاةُ النجاةْ   من شعورى العميقْ

أأنا حُلمٌ   وشعورٌ طَهورْ
أم أنا جسمٌ   مُغْرَقٌ فى الشرورْ

بل أنا آفاقْ   من شعور عنيفْ
وأنا أعماقْ   من خِضمٍّ مخيفْ

المقاييسُ   ليس تَغْنينى
الأحاسيسُ   هى قانونى

أنا لا أهوىَ   ما يُحبُّ الناسْ
فإذا دوَّى .   فى دمى إحساسْ

سرتُ لا أُلوى   سرتُ خلف الصوت
فغداً يَطْوى   فجرَ عُمْرى الموتْ

فى دمى إعصارْ   عاصفٌ بالجمودْ
وشظايا نارْ   تتحدَّى الركودْ

كـــلٌّ قـــلـــبـــى شــكْ فى مـــعـــانـى الخـــيـــرْ
فـكـرةٌ تُـضـــــــحِـكْ أنــا أهــوى الــشـــــــر

إن يــكُ الجـــــــسْـمُ من تراب حـــــقـــيـــرْ
فــــــــأنـا إثـمُ... أنـا لـسْـتُ أثـيـــرْ

إن يــكُ الـعـــــــقـلُ يـمـــقتُ الانـفـــجــارْ
فـــــــــأنـا حِـلٌّ منــه.. يـا لــلـعـــــــارْ!

إنْ يــكُ الإيمـــــــانْ هـو هـذا الجُـــمُـــودْ
فـــــــأنـا نُـكـرانْ أنـا كـلّى جُـــحُـــودْ

١٩٤٧

مرثية يوم تافه

لاحتِ الظلمةُ فى الأفْقِ السحيقِ
وانتهى اليومُ الغريبُ
ومضت أصداؤه نحو كهوفِ الذكرياتِ
وغداً تمضى كما كانت حياتى
شفةٌ ظمأى وكوبُ
عكست أعماقُهُ لونَ الرحيقِ
وإذا ما لمستْهُ شفتايا
لم تجدْ من لذّةِ الذكرى بقايا
لم تجد حتى بقايا

انتهى اليومُ الغريبُ
انتهى وانتحبتْ حتى الذنوبُ
وبكتْ حتى حماقاتى التى سمّيتُها
ذكرياتى
انتهى لم يبقَ فى كفّيّ منه
غيرُ ذكرى نَغَمٍ يصرُخُ فى أعماق ذاتى
راثياً كفّى التى أفرغتُها

من حياتى، وادّكاراتى، ويومٍ من شبابى
ضاعَ فى وادى السرابِ
فى الضبابِ.

كان يوماً من حياتى
ضائعاً ألقيتُهُ دون اضطرابِ
فوق أشلاء شبابى
عند تلٍّ الذكرياتِ
فوق آلافٍ من الساعاتِ تاهت فى الضَبابِ
فى مَتاهاتِ الليالى الغابراتِ.

كان يوماً تافهاً، كان غريبا
أن تَدُقَّ الساعةُ الكَسْلى وتُحصى لَحظاتى
إنه لم يكُ يوماً من حياتى
إنه قد كان تحقيقاً رهيبا
لبقايا لعنة الذكرى التى مزقتُها
هى والكأسُ التى حطّمتها
عند قبرِ الأمل الميِّتِ، خلفَ السنواتِ،
خلف ذاتى

كان يوماً تافهاً.. حتى المساءِ
مرت الساعاتُ في شبْهِ بكاءِ
كلُّها حتى المساءِ
عندما أيقظَ سمعي صوتُهُ
صوتُهُ الحُلوُ الذي ضيّعتُه
عندما أحدقت الظلمةُ بالأفْقِ الرهيبِ
وامّحتْ حتى بقايا ألمي، حتى ذنوبي
وامّحى صوتُ حبيبي
حملت أصداءه كفُّ الغروبِ
لمكان غابَ عن أعينِ قلبي
غابَ لم تبقَ سوى الذكرى وحبّي
وصدى يومٍ غريبِ
كشحوبي
عبثاً أضرَعُ أن يُرجِعْ لي صوتَ حبيبي.

١٩٤٨

ألغاز

دَعْني في صمتي في إحساسي المكبوتِ
لا تسألْ عن ألغازِ غُمُوضي وسكوتي

دعني في لُغزي لا تبحث عن أغواري
اقنع من فَهْم أحاسيسي بالأسرارِ

لا تسألْ إني أحياناً لُغزٌ مُبْهمْ
أبقَى في الغيْبِ مع الأسرارِ ولا أُفهمْ

روحي لاتَعْشَقُ أن تحيا مثلَ الناسِ
أنا أحياناً أنسى بَشريّة إحساسي

حتى حبُّكَ.. حتى آفاقُكَ تؤذيني
فأنا روحٌ أسبحُ كالطيفِ المفتونِ

قلبي المجهولُ يُحسُّ شعوراً عُلويّا
لا حساً يُشْبهه لا وعياً بَشَرِيّا

إذ ذاكَ أحسُّكَ شيئاً بَشَرياً قلقا
قِمّةُ أحلامي تَرْفضُه مهما ائتلقا

إذذاكَ يحسُّكَ روحي بعضَ الأمواتِ
ما سُمّيَ «أنتَ» هَوىً، لم تبقَ سوى ذاتي

في وجهكَ أنظُرُ لكنّي لا أبصرهُ
في روحيَ أبحثُ عن شيءٍ أتذكرهُ

أتذكّرُ، لا أدري ماذا، ماذا كانا؟
شيءُ لا شكْلَ يحدّدُه.. لا ألوانا

المبهَمُ في روحي يبقَى في إبهامهْ
دعْهُ لا تسألني عنه، عن أنغامهْ

دعني في ألغازي العُليا، في أسراري
في صمتي، في روحي، في مهمهِ أفكاري

في نفسي جُزْءٌ أبديٌّ لا تفهمهُ
في قلبي حُلمٌ عُلويٌّ لاتعلمهُ

دعهُ، ماذا يَعنيك لتسألَ فى إصرارْ؟
الحبُّ يموتُ إذا لم تحجُبْه أسرارْ

إني كالليلِ: سكونٌ، عمقٌ، آفاقُ
إني كالنجمِ: غموضٌ، بُعدٌ، إبراقُ

فافهمني إن فُهم الليلُ، افهم حِسِّي
والْمسني إن لُمِسَ النجمُ، المس نفسي

١٩٤٧

جامعة الظلال

أخيراً لمستُ الحياهْ
وأدركتُ ما هى أىُّ فراغٍ ثَقيلْ
أخيراً تبيّنتْ سرَّ الفقاقيعِ واخيبتاهْ
وأدركتُ أنى أضعتُ زماناً طويلْ
ألمُّ الظلالَ وأخبطُ فى عتْمة المستحيلْ
ألمُّ الظلالَ ولا شيءَ غير الظلالْ
ومرَّتْ علىَّ الليالْ
وها أنا أُدْرِكُ أنى لمستُ الحياهْ
وإن كنت أصرخُ واخيبتاهْ!

ومرَّ علىَّ زمانٌ بطيءُ العُبورْ
دقائقُهُ تتمطّى مَلالاً كأنَّ العُصورْ
هنالكَ تغفو وتنسى مواكبُها أن تدورْ
زمانٌ شديدُ السواد، ولونُ النجومْ
يذكّرُنى بعيونِ الذئابْ
وضوءٌ صغيرٌ يلوحُ وراءَ الغُيومْ
عرفتُ به فى النهايةِ لونَ السَرابْ

ووهمَ الحياهْ
فواخيبتاهْ

أهذا إذن هو ما لقّبوهُ الحياهْ؟
خُطوطٌ نظَلُّ نخطِّطُها فوقَ وجه المياهْ
وأصداءُ أغنيةٍ فظّة لا تَمَسُّ الشفاهْ
وهذا إذنْ هو سرُّ الوجودْ؟
ليالٍ ممزّقةٌ لاتعودْ
وآثارُ أقدامنا فى طريقِ الزمان الأصَمْ
تمرُّ عليها يدُ العاصفه
فتمسحُها دونما عاطفه
وتُسْلمُها للعَدَمْ
ونحنُ ضحايا هنا
تجوعُ وتعطشُ أرواحُنا الحائره
ونحسَبُ أن المنى
ستملأُ يوماً مشاعرنَا العاصره
ونجهلُ أنَّا ندورْ
مع الوَهمْ فى حَلَقاتْ
نجزِّئُ أيامَنا الآفلاتْ

إلى ذكرياتْ
ونتنظرُ الغَدَ خلفَ العُصورْ
ونجهلُ أَن القبورْ
تمدُّ إلينا بأذرعها البارده
ونجهلُ أَنّ الستائرَ تُخفى يداً مارده

عرفتُ الحياةَ، وضقتُ بجمع الظلالْ
وأضجرنَى أن نجوبَ التلالْ
نحدّقُ فى حَسرةٍ خلفَ رَكبِ الليالْ
تسيرُ بنا القافله
نجوسُ الشوارعَ فى وَحْدة قاتله
إلامَ يُخادعُنا المبهَمُ؟
وكيفَ النهايةُ؟ لا أحدٌ يعلم

سنبقى نسيرْ
وأبقى أنا فى ذهُولى الغريرْ
ألمُّ الظلالَ كما كنتُ دونَ اهتمامْ
عيونٌ ولا لونَ، لا شىءَ إلا الظلامْ
شفاهٌ تريدُ ولا شىءَ يقرَبُ مما تريدْ

وأيدٍ تُريدُ احتضانَ الفضاءِ المديدْ
وقلبٌ يريدُ النجومْ
فيصفعهُ في الدياجيرِ صوتُ القَدُومْ
يُهيلُ الترابَ على آخرِ الميّتينْ
وأقصوصةٌ من يَرَاعِ السنينْ
تضجُّ بسمعي فأصرخُ: آه!
أخيراً عرفتُ الحياه
فواخيبتاه!

١٩٤٨

أجراس سوداء

لنَمُتْ فالحياة جفَّت وهذى الأ　　كؤسُ الفارغاتُ تَسخَرُ منا
وغيومُ الذهول فى أعين الأيـ　　ـامِ عادت أجلى وأعمقَ لونا
وسكونُ الحياة فى جَسَد الأحـ　　ـلام لم يُبقِ قَطُّ للعيش معنى
وفراغُ الآهاتِ أثبتَ أنّا　　قد فرِغنا من دورنا وانتهينا

وعميقاً فى الليل نسمعُ أقدا　　مَ الليالى فى رهبةٍ ووجومِ
ودويُّ الأجراس يُنذرنا أنّـ　　ـا انتهينا من دورنا المحمومِ
أن ما فى الكؤوس يُوشكُ أن ينـ　　ـضبَ إلا من حفنةٍ من همومِ
أنَّ ما فى العيونِ من عَطَش الأحـ　　ـلامِ أمسى رمادَ حبٍّ قديم

وبعيداً فى الجوّ تُنذرنا الأصـ　　ـواتُ أنَّ الحياةَ عادتْ جُنونا
أنَّ لونَ الخيالِ قد حالَ وارتدَّ　　شُحوباً وواقعاً محزونا
أن «قَبْلَ» الرجاء أصبح لا «بَعـ　　ـدَ» له فهو فكرةٌ لن تكونا
أن شيئاً فى عُمق أنفسنا يجـ　　ـذُبنا للممات، شيئاً مكينا

ولماذا نبـــقى هـنا؟ أولَـم نشــ ـبعْ ونضـجـرْ ونروَ دونَ انتـهـاء؟
أولَم نُدركِ الـنعـيمَ وخـمـر النـ ـصر والحبَّ نـابضـاً بالرجـاء؟
أولَم نـعـرفِ الأسى الـعـاصـرَ والـنومَ بـعــد طـول الـبكـاء؟
أولم نُشـبعِ الوجـودَ ومـن فـيـ ـه احـتـقـاراً وغمـضِ باسـتـهـزاء؟

ولماذا نـبـقى هـنا؟ أسـمعُ المو تَ ينـادي بنـا فلمَ لا نُجـيبُ؟
لنَمُتْ فـالريـاحُ تجرح وجـهَـيـ ـنا ولـونُ الدُجى عـمـيقٌ رهيبُ
وهنا نـحنُ مُـتـعـبـانِ غـريبـا نِ تعـايى بنا الشـبـابُ الكئـيبُ
وهنـا نحن مـيّـتـان وإن كـا نَ لعِـرق الحـيـاة فـينا وجـيبُ

«الغـريبـان» هكذا يهـمسُ الـليـ ـلُ وأجـراسـهُ تلفُّ الـوجـودا
أيهـا الليـلُ لن يعـيشَ الغـريبـا نِ ولن يَلمُـسَـا مسـاءً جـديدا
خُـذهُما ارخِ جنُـحكَ الأسودَ الهـا دئَ حـوليـهـمـا وحلِّقْ بعـيـدا
خُـذهمـا عـزَّ أن يقـولوا «غـريبـا نِ» وكـانت أقـصـوصـةً لن تعـودا

١٩٤٨

نهاية السلم

مرّتْ أيامٌ منطفئاتْ
لم نلتقِ لم يجمعْنا حتى طيفُ سَرَابْ
وأنا وحدى، أقتاتُ بوقْع خُطى الظُّلماتْ
خلف زُجاجِ النافذةِ الفظّة، خلفَ البابْ
وأنا وحدى...

مرتْ أيامْ
باردةٌ تزحفُ ساحبةٌ ضَجَرى المرتابْ
وأنا أُصغى وأعدُّ دقائقَها القلقاتْ
هل مرَّ بنا زمنٌ؟ أم خُضنا اللازمنا؟
مرَّتْ أيامْ
أيامٌ تُثقلُها أشواقى، أينَ أنا؟
ما زلتُ أحدِّقُ فى السُلّمْ
والسلّمُ يبدأُ لكنْ أينَ نهايتهُ؟
يبدأُ فى قلبى حيثُ التيهُ وظلمتُهُ
يبدأُ، أين البابُ المبهَمْ؟
بابُ السُلّمْ؟

مرّتْ أيامْ
لم نلتقِ، أنتَ هناك وراءَ مَدَى الأحلامْ
في أفْقٍ حفٍّ به المجهولْ
وأنا أمشي، وأرى، وأنامْ
أستنفدْ أيامي وأجرُّ غدي المعسولْ
فيفرُّ إلى الماضي المفقودْ
أيامي تأكلُها الآهات متى ستعودْ؟
مرّتْ أيامٌ لم تتذكرْ أنَّ هناكْ
في زاويةٍ من قلبكَ حُباً مهجورا
عضّتْ في قدَميه الأشواكْ
حباً يتضرّعُ مذعورا
هَبه النورا

عُدْ، بعض لقاءْ
يمنحُنا أجنحةً نجتازُ الليلَ بها
فهناكَ فضاءْ
خلفَ الغاباتِ الملتفّات، هناك بحورْ
لاحدَّ لها تُرْغي وتَمورْ
أمواجٌ من زَبَد الأحلامِ تقلِّبُها
أيدٍ من نورْ

عدْ، أم سيموتْ،
صوتي في سمعكَ خلف المُنعَرجِ الممقوتْ
وأظلُّ أنا شاردةً في قلب النسيانْ
لاشيءَ سوى الصمتِ الممدودْ
فوقَ الأحزانْ
لاشيءَ سوى رجْعٍ نعسانْ
يهمِسُ في سمعي ليس يعودْ
لا ليس يعودْ

١٩٤٨

أنـــــا

اللّيلُ يسألُ من أنا
أنا سرُّهُ القلقُ العميقُ الأسودُ
أنا صمتُهُ المتمرِّدُ
قنّعتُ كنهى بالسكونْ
ولففتُ قلبى بالظنونْ
وبقيتُ ساهمةً هنا
أرنو وتسألنى القرونْ
أنا من أكون؟

والريحُ تسأل من أنا
أنا روحُها الحيرانُ أنكرنى الزمانْ
أنا مثلها فى لا مكان
نبقى نسيرُ ولا انتهاءْ
نبقى نمرُّ ولا بقاءْ
فإذا بلغنا المُنْحَنَى
خلْناهُ خاتمةَ الشقاءْ
فإذا فضاءْ!

والدهر يسأل من أنا

أنا مثلهُ جبّارةٌ أطوى عُصورْ

وأعودُ أمنحهُا النشورْ

أنا أخلقُ الماضى البعيدْ

من فتنة الأمل الرغيدْ

وأعودُ أدفنُهُ أنا

لأصوغَ لى أمساً جديدْ

غَدُهُ جليد

والذاتُ تسألُ من أنا

أنا مثلها حيرَى أحدّقُ فى ظلام

لاشىءَ يمنحُنى السلامْ

أبقى أسائلُ والجوابْ

سيظَل يحجبُهُ سراب

وأظلّ أحسبُهُ دنا

فإذا وصلتُ إليه ذابْ

وخبا وغابْ

١٩٤٨

غـــرباء

أطفئ الشمعةَ واتركنا غريبينِ هنا
نحن جزءانِ من الليلِ فما معنى السنا؟
يسقطُ الضوءُ على وهمينِ فى جفنِ المساءْ
يسقطُ الضوءُ على بعضِ شظايا من رجاءْ
سُمّيتْ نحنُ وأدعوها أنا:
مللاً، نحن هنا مثلُ الضياءْ
غُربَاءْ

اللقاء الباهتُ الباردُ كاليومِ المطيرِ
كان قتلاً لأناشيدى وقبراً لشعورى
دقّتِ الساعةُ فى الظلمة تسعاً ثم عشرا
وأنا من ألمى أُصغى وأُحصى، كنت حَيرى
أسألُ الساعةَ ما جَدْوى حبورى
إن نكن نقضى الأماسى، أنتَ أَدْرى
غرباءْ

مرّتِ الساعاتُ كالماضى يُغشّيها الذبُولُ
كالغدِ المجهول لا أدرى أفجرٌ أم أصيلُ
مرّتِ الساعاتُ والصمتُ كأجواءِ الشتاءِ

خلتهُ يخفق أنفاسى ويَطغى فى دمائى
خلتهُ يَنبِسُ فى نفسى يقولُ
أنتما تحت أعاصيرِ المساء

غرباءْ

أطفئْ الشمعةَ فالروحانِ فى ليلٍ كثيفِ
يسقطُ النورُ على وجهينِ فى لونِ الخريف
أولا تُبصرُ؟ عينانا ذبولٌ وبرودٌ
أوَلا تسمعُ؟ قلبانا انطفاءٌ وخمودُ
صمتنا أصداءُ إنذارٍ مخيف
ساخرٌ من أننا سوفَ نعودُ

غرباءْ

نحن من جاء بنا اليومَ؟ ومن أين بدأنا؟
لم يكنْ يَعرفُنا الأمسُ رفيقين.. فدَعنا
نطفرُ الذكرى كأن لم تكُ يوماً من صِبانا
بعضُ حبٍّ نزقٍ طافَ بنا ثم سلانا
آه لو نحنُ رَجَعنا حيثُ كنا
قبلَ أن نَفنَى وما زلنا كلانا

غُرباءْ

١٩٤٨

أغنية الهاوية

مججتُ الزوايا التى تلتوى
وراءَ النفوسْ
وراءَ بريق العُيُونْ
وأبغضتُ حتى السُكونْ
وتلكَ المعانى التى تنطوى
عليها الكؤوسْ
معانى الصدَى والجُنونْ
معانى الخطايا التى تُبرقُ
بريقَ النجومْ
وفى لمسها اللهبُ المُحرقُ
ولونُ الهمومْ
كرهتُ الجفونَ التى تأسرُ
وخلفَ سماء ابتساماتها
لهيب الحقود
كرهتُ الأكفَّ التى تعصرُ
وخلفَ حرارة رَعْشاتها
جمودٌ كذُلِّ الحياه

على جُثة تحت بعض اللحودْ
تعيثُ بهاَ دودةٌ فى برودْ
كرهتُ ارتعاشَ الشفاهْ
برجَعِ الصلاه
ففى كلِّ لفظ خطيئه
تجيشُ بها رَغَباتٌ دنيئه
وعفتُ طُموحى وبحثى الطويلْ
عن الخيرِ، والحبِّ، والمُثلِ العاليه
وحقّرتُ سعيى إلى عالمٍ مستحيلْ
فخلفَ انخداعى تنتظرُ الهاويه
وعفتُ جنونى القديمَ وعفتُ الجديدْ
وأودعتهُ فى مكان بعيدْ
دفنتُ به رَغَباتِ البشرْ
وسمّيتهُ جنة الواهمين
ستمضى السنينْ
لماذا أُحسُّ الأسى والضَّجَرْ،
وكفُّ المطَرْ
تلفُّ على عنقى المختنقْ
حبالَ الفكرِ؟

وأينَ أسيرُ وقلبى النزقْ
هنالكَ ما زالَ، لا يبرُدُ
ولايحترقْ
كقلبِ أبى الهولِ، أين الغدُ؟
أحسُّ حياتى تذوبْ
قفى لحظةً واحده
ولاتَسحبى يَدكِ البارده
فأغنيةُ الهاويه
تُهيبُ بأقدامىَ الشارده
وتلَوى الدروبْ
قفى لحظةً يا حبالَ الحياه
ولا تتركينى هنا
معلقةً بالفراغِ الرهيبْ
فأمسى القريبْ
تلاشى على آخرِ المنحنى
وظلٌّ غدى
تَلثَّمَ أواهُ لو أهتدى
قفى لحظةً واحده
ولا تَسحبى يَدَكِ البارده

فأغنيةُ الهاوية
تردّدها الأنفسُ الجانيه
تكرّرُها فى جُنونْ
على سمعىَ المُجهَد
تكرّرُها لم يَعُدْ لى سَكونْ
أكادُ أسيرُ إلى الهاويه
مع السائرينْ
وأدفِنُ آخرَ أحلاميه
وأنسى غدى

١٩٤٨

في جبال الشمال

عُدْ بنا يا قطارْ
فالظلام رهيبٌ هنا والسكونُ ثقيلْ
عُدْ بنا فالمدَى شاسعٌ والطريقُ طويل
والليالي قِصارْ
عدْ بنا فالرياحْ تنوحُ وراءَ الظلالْ
وعُواءُ الذئابِ وراءَ الجبال
كصراخِ الأسى في قلوبِ البشرْ
عُدْ بنا فعلى المنحدَرْ
شَبحٌ مكفهِرٌّ حزينْ
تركتْ قَدَماهُ على كلِّ فجرٍ أثرْ
كلّ فجرٍ تقضّى هنا بالأسى والحنين
شَبحُ الغربةِ القاتله
في جبالِ الشمالِ الحزينْ
شبحُ الوَحدةِ القاتله
في الشمالِ الحزينْ
عد بنا قد سئمنا الطَّوَافْ
في سُفوُحِ الجبال وعُدْنا نخافْ

أن تطولَ ليالي الغيابْ
ويغطي عُوَاءُ الذئاب
صوتنا ويعزُّ علينا الإيابْ
عُدْ بنا للجنوب
فهناكَ وراءَ الجبالِ قلوبْ
عدْ بنا للذينَ تركناهمُ في الضباب
كلُّ كفٍّ تلوِّحُ في لهفةٍ واكتئابْ
كل كفٍّ فؤاد
عدْ بنا يا قطارُ، سئمنا الطَّوَافَ وطالَ البعادْ
وهنالكَ همسٌ عميقْ
لاثغٌ خلفَ كلِّ طريق
في شعابِ الجبالِ الضخامْ
ووراءَ الغمامْ
في ارتعاش الصنُوبرِ، في القريةِ الشاحبه،
في عُوَاءِ ابنِ آوى، وفي الأنجمِ الغاربه،
في المراعي هنالكَ صوتٌ شَرُودْ
هامسٌ أن نعودْ
فهناكَ بيوتٌ أُخَر
ومراعٍ أخرْ

وقلوبٌ أخرْ
وهناكَ عيونٌ أبت أن تنامْ
وأكفٌّ تضمُّ الدُّجَى فى اضطرام
وشفاهٌ تردد أسماءنا فى الظلامْ
وقلوبٌ تُصيخُ لأقدامنا فى وُجومْ
وتنادى النجومْ
فى أسىً وسكونْ:
«ومتى يا نجومُ سيذكرنا الهاربونْ؟»
«ومتى يَرْجعونْ؟»

لحظةً، سنعودْ
لن يرانا الدُّجَى هاهنا، سنعودْ
سنعودُ، سنطوى الجبالْ
ورُكامَ التلالْ
لن ترانا ليالى الشمالْ
ها هنا من جديدْ
لن يحسَّ الفضاءُ المديد
نارَ آهاتنا فى المساءِ الرهيبْ
فى سكونِ المساءِ الرهيبْ

عُدْ بنا يا قطارَ الشمالْ
فهناكَ وراءَ الجبالْ
الوجوهُ الرقاقُ التى حجَبَتها اللیالْ
عُدْ بنا، عُد إلى الأذرُعِ الحانيه
فى ظلال النخيلْ
حيثُ أيامُنا الماضيه
فى انتظار طويلْ
وقفتْ فى انتظار
تتحرى رجوعَ القطارْ
لتسير مع السائرينْ
حيثُ أيامُنا تسألُ العابرينْ
واحداً، واحداً، فى حنينْ
«ومتى عودةُ الهاربينْ؟»

لنعُدْ فهناكَ نشيدٌ قديمْ
حولَنا هامسٌ بالرُجوعْ
ما أحبَّ الرجوعْ
بعد هذا الطوَاف الأليمْ
فى جديب الشعابْ
حيث تَعْوى الذئابْ

لنعدْ، فالدُّجَى باردٌ كالجليدْ
وهنالكَ خلفَ الفضاءِ البعيدْ
أذرعٌ دافئه
لنعدْ فالجبالُ تكشِّرُ عن ليلها المظلمِ
وهنالكَ خلفَ الدُّجَى المبهَمِ
صوتُ أحبابنا، فى الظلامِ السحيقْ
نابضاً بالحنينِ العميقْ
صوتُهم مُثقلاً بالعتابْ
صوتُهم ردَّدته الشعابْ
صوتُهُم فى سكونِ المكانْ
دائرٌ كالزمانْ
لنعُدْ قبلَ أن يقضيَ الأفعوانْ
بفراقٍ طويلٍ، طويلْ
عن ظلالِ النخيلْ
عن أعزّائنا خلفَ صمتِ القفارْ
عدْ بنا يا قطارْ
فالليالى قصار
وهنالكَ أحبابُنا فى أسىً وانتظارْ

سرسنك ١٩٤٨

إلى عمتى الراحلة

أنا لـم أزل فى الفَــجــر رايةً   للأفق فى صمت وإعـياء
تتـدافعُ الـذكرى عـلى شـفـتى   بعضَ ارتعـاشـاتٍ وأصـداء
الجُــرحُ نديانٌ تعـيشُ بـه   أصـداءُ مـاضٍ مَـيت ناء
أيامــهُ عـادتْ صَـدَى حلمٍ   لم تَبْقَ منه غـيـرُ أشـلاء
غـيـرُ ابتـسـامـاتٍ ممزّقـة   أودتْ بـهـنّ مـرارةُ الـداء

تتــدافعُ الذكــرى وتملأنى   أشـبـاحـهـا قلقـاً وأشـجـانا
ألأمسُ مـا زالتْ كـآبتـه   حـسـرًى تـذكـرنى بما كـانا
بالـليلِ كـيفَ سـهـرتـه ألماً   بالفـجـر كـيفَ أطلٌ ظمـآنا
بدمـوعىَ العطشى وحـرقتـهـا   بتـدفق الإحـسـاس أحـزانا
باليـأسِ كـيف طغت مـرارته   وتمرّدت حُـرقَـاً ونيـرانا

الأمـس هل فـى الأمس مـن حُلـمٍ   هل فـيـه مـا ينجى من الحـرقِ؟
هل فـيـه بعضُ صدىً يناغـمنى   ذكـرى؟ رجـاءٌ غيـرُ محـتـرق
لفـظٌ يمـرُّ؟ وبـسـمـةٌ؟ ويدٌ   مـرّت بـرقـتـهـا على قَـلقى؟
أوآهُ، بـعض خـطى ألـوذ بهـا   من حـزنىَ القـاسى ومـن أرقى
بعض ابـتـسـامـتك التى غـربت   فى الصمت واحـترقت على الأفق

الدمع أذرفه ويذرفني		قلباً يجنُّ أسىً ويُحتضرُ
قطراتهُ نارٌ تمزّقني		ما زال منها في دمي أثر
عيناي تحترقان من ألمٍ		تدمى وتقطرُ فيهما الصور
جرحانِ لا جفنان أين غدي؟		أين الطبيعة والهوى النضرُ؟
ما للحياةِ هوَت أشعّتُها		ليلاً وعكّر جوَّها القدر؟

أين التفتُّ تصدُّني صورٌ		وحشيةٌ، وشتيتُ آلام
ذكرىً من الماضي تحطمنيُ		وتظل تصهرُ جفني الدامي
أوّاهُ، كيفَ سقطت ميتةً		وأنا أعيشُ وتلك أوهامي
وأنا أعيشُ رؤىً ممزّقةً		وأحوكُ أهوائي وأحلامي
تتلفتُ الذكرى إليكِ وبي		ظمَأٌ يعتِّمُ جوَّ أيامي

وأريدُ أن أنسى فتخنقُني		رَعَشاتُ حُزنٍ ساهدٍ مُرِّ
أبقيت جُرحاً حافراً قلقاً		في قلبِ أحلامي وفي شعري
كفُّ الحنانِ نسيتُ ملمسَها		وفقدت معبرهَا على شَعري
لم يبقَ منها غيرُ أغنيةٍ		جفّت مرارتُها على ثَغري
وسهرتُ أُنشدها وأنشدها		في ليلةٍ مأسورةِ الفَجرِ

أواهُ من حُزني ومن ظمَأي هل عُدت طيفاً مطفأ المُقَلِ
القبرُ ضمَّك في برودته بعد ارتعاشة قلبيَ الخَضلِ
لا طيرَ يوقظُ فيكِ عِرْقَ هوىً لاشيءَ يبعثُ خامدَ الأملِ
الظلُّ مرَّ وأنتِ ساهيةٌ عن رقْصه وشُعاعه الثملِ
والنجمُ لاحَ وأنتِ هامدةٌ لا تعبأين بضوئه الخَجِلِ

وتمرُّ أصداءُ الحياة ضُحىً بوسادك المحزون وا أسفا
صوتُ المؤذِّنِ كم سهرت له ما بالُهُ في مسمعيك غَفا؟
ما بالُ رعشته تمرُّ على قلب تناسى كيف أمس هَفا
ما بالُها لاذتْ بغُربَتِها ومضتْ تُباكي حولك (النجفا)
تبكي وترسمُ في انتفاضتِها صوتاً يبيتُ الليلَ مُرتجِفا

أوحيدةٌ في القَبْرِ هامدةٌ وأنا أمَسُّ سريرَكِ الخاوي؟
خُصُلاتُ شعركِ فوقهُ حُرَقٌ في عُمْقِ يأسي الصارخِ الداوي
ومكانُ رأسِك في الوسادة في قلبي بقايا كوكبٍ هاو
وقميصُكِ الباكي أما بقيتْ فيه حرارةُ جسمك الذاوي؟
كيف انطويتِ وأنتِ خالدةٌ في أدمعي؟ شُلَّتْ يدُ الطاوي

أصْـغـى وهل تُصْـغـين؟ هـل بلَغتْ مـشـواكِ أصـداءُ ارتعـاشـاتي
كـيف انتـفـضتُ وأنـتِ هامـدةٌ في مـخلَبَيْ ألمي وآهـاتي؟

تـتـعـثَّرُ النغَمـاتُ في شفـتي بصُـراخِ أحـزاني وأنّاتي
مـزّقـتُ أيامي التي سَلفَتْ ودفنتُ فـيكِ بشـاشـةَ الآتي
وأضـعتُ أفـراحي ومن عَـبَثٍ شِـبْـهُ ابتسـامـاتي وضُـحكـاتي

١٩٤٨

الكوليرا

سكَن الليلُ
اصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنّاتْ
فى عُمْق الظلمة، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ
صَرَخاتٌ تعلو، تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ
يتعثّر فيه صَدَى الآهاتْ
فى كل فؤاد غليانُ
فى الكوخِ الساكنِ أحزانُ
فى كل مكانٍ روحٌ تصرخُ فى الظُلُماتْ
فى كلِّ مكان يبكى صوتْ
هذا ما قد مَزّقَهُ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

طلَع الفجرُ
اصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ
فى صمتِ الفجْر، اصِخْ، انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أموات، عشرونا
لا تَخضِ اصغِ للباكينا
اسمعْ صوتَ الطفلِ المسكين
مَوتَى، مَوتَى، ضاعَ العددُ
مَوتَى، موتَى، لم يَبْقَ غَدُ
في كلِّ مكان جَسَدٌ يندُبُهُ محزونْ
لا لحظَةَ إخلاد لا صَمْتْ
هذا ما فعلتْ كفُّ الموتْ
الموتْ، الموتُ، الموتْ
تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

الكوليرا
في كَهْفِ الرُعْب مع الأشلاءْ
في صمْت الأبدِ القاسي حيثُ الموتُ دواءْ
استيقظَ داءُ الكوليرا
حقْداً يتدفّقُ موتورا
هبطَ الواديْ المرِحَ الوُضّاء
يصرخُ مضطرباً مجنونا
لا يسمَعَ صوتَ الباكينا
في كلِّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ

في كوخ الفلاّحة في البيتْ
لا شيءَ سوى صرخَات الموتْ
الموتْ، الموتُ، الموتْ
في شخص الكوليرا القاسي ينتقمُ الموتْ

الصمتُ مريرْ
لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ
حتّى حَفّارُ القبر ثوَى لم يبقَ نَصيرْ
الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ
الميّتُ من سيؤبّنُهُ
لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيْر
الطفلُ بلا أمٍّ وأبِ
يبكي من قلبٍ ملتهبِ
وغداً لاشكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ

يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتَ
يا مصرُ شعوري مزّقَهُ ما فعلَ الموتْ

١٩٤٧

لنكن أصدقاء

لنكنْ أصدقاءْ
في مَتاهات هذا الوجود الكئيبْ
حيثُ يمشي الدَمارُ ويَحْيا الفَناءْ
في زوايا الليالي البِطاءْ
حيثُ صوتُ الضَحايا الرهيبْ
هازئاً بالرجاءْ
لنكنْ أصدقاءْ
فعيونُ القَضَاءْ
جامداتُ الحَدَقْ
ترمُقُ البَشَرَ المُتْعَبينْ
في دروبِ الأسى والأنينْ
تحتَ سوطِ الزمان النَزِقْ
لنكنْ أصدقاءْ،
الأكفُّ التي عرفَتْ كيف تَجْبى الدماءْ
وتحُزُّ رقابَ الخليّين والأبرياءْ
ستحسُّ اختلاجَ الشعورْ
كلَّما لامستْ إصبَعاً أو يدا

والعيونُ التى طالما حدّقتْ فى غرورْ
ترمُقُ الموكبَ الأسودا
موكبَ الرازحينَ العبيدْ
هذه الأعينُ الفارغاتْ
ستُحسُّ الحياةْ
ويعودُ الجُمُودُ البليدْ
خلفَها ألفَ عرْقٍ جديدْ
والقلوبُ التى سَمِعَتْ فى انتعاشْ
صَرَخاتِ الجياعِ العطاشْ
ستذوبُ بكاءً على الجائعينْ
ستذوبُ لتسقى صدَى الظامئين
كأسةً ولتكنْ ملئتْ بالأنينْ

لنكنْ أصدقاءْ
نحنُ والحائرون
نحنُ والعزَّل المتعبونْ
والذينَ يُقال لهم «مجرمونْ»
نحنُ والأشقياءْ
نحنُ والثملونَ بخمرِ الرجاءْ

والذينَ ينامونَ في القفر تحت السماءْ
نحن والتائهون بلا مأوى
نحن والصارخونَ بلا جدوى
نحن والأسَرى
نحن والأممُ الأخرى
في بحارِ الثلوجْ
في بلادِ الزُّنوجْ
في الصحارى وفى كلّ أرضٍ تضمُّ البشر
كلِّ أرضٍ أصاختْ لآلامنا
كلِّ أرضٍ تلقتْ توابيتَ أحلامنا
ووعتْ صرخَات الضَجَرْ
من ضحايا القدَرْ

لنكنْ أصدقاءْ
إن صوتاً وراءَ الدماءْ
في عروقِ الذين تساقَوْا كؤوسَ العدَاءْ
في عُروقِ الذينَ يظلَّون كالثملين
يطعَنونَ الإخاءْ
يطعنونَ أعزّاءَهم باسمينْ

فى عُروقِ المحبّينَ... والهاربينْ
من أحبّائهم، من نداءِ الحنينْ
فى جميعِ العُرُوقْ
إنَّ صوتاً وراءَ جميعِ العُرُوقْ
هامساً فى قرارةِ كلِّ فؤادٍ خَفُوقْ
يجمعُ الأخوةَ النافرينْ
ويشُدُّ قلوبَ الشقيّينَ والضاحكينْ
ذلكَ الصوتُ، صوتُ الإخاءْ
فلنكنْ أصدقاءْ

فى بعيدِ الديارْ
ووراءَ البحارْ
فى الصحارى، وفى القُطب، فى المدُنِ الآمنه
فى القُرَى الساكنه
أصدقاءٌ بَشَرْ
أصدقاءٌ ينادونَ أينَ المَفَرْ؟
ويصيحونَ فى نَبْرةٍ ذابله
ويموتونَ فى وَحْدةٍ قاتله
أصدقاءٌ جياعٌ، حُفَاةٌ، عُراه

لفظتْهم شفاهُ الحياهْ
إنهم أشقياءْ
فلنكنْ أصدقاءْ

من بعيدْ
صوتُ عَصْف الرياحِ الشديدْ
ناقلاً ألفَ صوت مديدْ
من صُرَاخ الضَحَايا وراءَ الحُدُود
فى بقاعِ الوجودْ
الضحايا، ضحايا العراكْ
وضحايا القيُودْ
وصدَى «هيَاواثا» هناك
مُثقلا بأنينِ الجياعْ
بأسَى المصطلينَ لَظى الحُمَّى
بالذينَ يموتون دونَ وَدَاعْ
دون أن يَعرفوا أُمًّا
دونما آباءْ
دونما أصدقاءْ

١٩٤٨

جنازة المرح

سأغلق نافذتى فالضياء   يعكّر ظلمتىَ البارده
سأسدل هذا الستار السميك   على صفحةِ القصةِ البائده
وأطردُ صوتَ الرياح البليد   وإشعاعةَ الأنجمِ الحاقده
وأُسندُ رأسى إلى الذكريات   وأغمس عينىَّ فى دمعتينْ
وأرسلُ حبى يلفُّ القتيل   ويُدْفئُ جبهتهُ الهامده
لعلى أردُّ إليه الحياة   وأمسحُ من زُرقه الشفتينْ

سأغلقُ نافذتى فالقتيل   يحبُ الظلامَ العميقَ العميق
وأكرهُ أن يتمطى الضياء   على جسمه الشاعرىِّ الرقيق
على جبهة زرعتها النجوم   ولوَّنها ضوؤها بالبريقْ
وكانت تُشعُّ الحياةَ فعادت   تمجُّ الأسى والرَّدى والعذابْ
تخطُّ عليها ذراعُ الممات   أساطيرَ عهدٍ سحيقٍ سحيق
أمرُّ عليها بكفى فأصرُ   خُ رعباً وأسقط فوق الترابْ

سـأغـلقُ نافـذتـى فـالظهـيـر ... ةُ لا ينتـهى حـقـدُها الـراعبُ
تصبُّ سكـينتـهـا فى برود ... ويسـخـرُ بى وجـهُـهـا الغـاضبُ
يطاردُنى صـمـتـهـا السـرمدىُّ ... ويكـئـبنى لـونهـا الـراسبُ
وأينَ المفـرُّ؟ تكاد الـسـتـائر ... تدخـلهـا غـرفـتى المظلمـه
وأين المفـرُّ؟ وهذا الـقـتـيلُ ... يروّعنى وجـهـه الشـاحبُ
أمامى القـتيل وخلفى الظـهير ... ةُ يـا لـلـمـطـاردةِ المـؤلمـه

سـأصـبـرُ حـتى يجئَ الدُّجىَ ... ويغـرب خلف الـوجـود الضيـاءْ
فـأحـملُ هـذا القـتـيلَ البـرىء ... إلى هـوةٍ من كـهـوف المسـاءْ
أسـيـرُ بأشـلائه مـوكـبـاً ... بطىءَ الخطى كليـالى الشـتـاءْ
وتتـبـعنى شَـهـقَـاتُ التـذكـ ... ـرِ مـهـمـومةً فى أسىً وشـرود
وفى آخـر الموكـب المتـرنحِ ... وجـهٌ يـشـيِّـعُـهُ فى ازدراءْ
وفى آخِـرِ الموكـبِ المتـرنح ... وجـهٌ يشـيـعـهُ فى بُرُودْ

عَرفتُ الجبينَ عرفت الشفاه وهذي العيون الغلاظ الأديمْ
عرفتُ بها وجه حزني الدفين وقد عاد يَحملُ جرحي القديم
وفي يَده مُدْيةٌ لم يَزَلْ على حدّها دمُ أمسي الأليم
عرفتُ العدوَّ اللجوج هَناك يسيرُ على أثر الموكبِ
يُحدِّقُ مستهزئاً بالقتيل ويضحك ضحكةَ فظٍّ أثيم
نعم هوَ.. أعرفهُ جيدا فكم مرةٍ قبلُ قد مرَّ بي

وأبصرتُ في أثري ألف طيفٍ حزينٍ تلفّعَ بالعبراتْ
عرفتُ بها البسماتِ التي لَقيتُ بها لَطَماتِ الحياةْ
عرفت بها الضحكات التي سكبتُ نداها على الذكرياتْ
أهذي إذنْ بسماتي؟ حناناً أعدنْ عبوساً ورجع أنين؟
أهذي إذن ضحكاتي أهذي نهايةُ ما صُغتُ من بسمات؟
وهذا القتيلُ أحقاً فقدتُ به مرحي المضمحلَّ الدفين؟

١٩٤٨

يوتوبيا فى الجبال

«مهداة إلى اختى إحسان التى شهدت معى مولدها عند عين الماء الثلجية المتحدرة بين صخور سرسنك الملونة».

تفجَّرى يا عيُونْ
بالماء، بالأشعَّة الذائبه
تفجَّرى بالضوء، بالألوان، فوقَ القرْية الشاحبه
فى ذلكَ الوادى المُغَشَّى بالدُجَى والسكونْ
تفجَّرى باللحونْ
فوقَ انبساط السفحِ بين التلالْ
فى المُنحَنَى حيثُ تموجُ الظلالْ
تحتَ امتداد الغُصُونْ
تفجَّرى بالجَمالْ
وشيِّدى يوتوبيا فى الجبالْ
يوتوبيا من شَجَرات القمَمْ
ومن خريرِ المياهْ
يوتوبيا من نَغَمْ
نابضةً بالحياه

تفجَّرى، سيلى على مُنْحَدَراتِ الصُخُور
حيث يطيرُ الفَرَاشْ
فى نشوةِ وارتعاشْ
تفجَّرى حيثُ تنامُ الطيورْ
فى جنَّةٍ من عُطورْ
حيثُ يغطِّى السَفْحَ غابٌ كثيفْ
صنوبرىٌ الحفيفْ
تفجَّرى نقيَّةً فوق حَصَى المُنْحدَرْ
فى عطفةِ الوادى العميقِ المخيفْ
فى ظُلَلِ الجَوزْ الرقيقِ الوريفْ
تحتَ انبساطِ الشجرْ
تفجَّرى فى الصباحْ
تفجَّرى جارفةً كالرياحْ
تفجَّرى فى الغروب
وشيدى يوتوبيا من قلوب
من كل قلبٍ لم تَطأْهُ الحقودْ
ولم تدنسهُ أكُفُّ الركودْ
من كلِّ قلبٍ شاعرىٍّ عميقْ
لم يتمرَّغْ بخطايا الوجودْ

من كلِّ قلبٍ رقيقْ
مستغرقٍ في حُلمه لايُفيقْ
إلا على حُلمٍ بعيدِ المدى
ليسَ له من حدودْ
حُلمٌ تحدى الغدا
من كلِّ قلبٍ لا يُطيقُ الجُمودْ
ولا صريرَ القيودْ
تفجّري بيضاءَ فوق الصَخَرْ
لوناً وضوءاً يتحدى كل رجس البشرْ
تفجَّري لن يسأم المنحدر
سيلي على النائمينْ
وأغرقي تهويمةَ الظالمين
فيضى على الميِّتينْ
على قُلوبٍ لا تحسُّ الحنينْ
على عيونٍ لم تُطهرْها أكفُّ البكاءْ
على نفوسٍ لاتحسُّ السماءْ
على أكفٍ تجهل الكبرياءْ
سيلي بعيدا في القرى الجائعه
حيثُ الحُفاةُ العُراه

وحيث لايبلُغُ سمعَ الحياه
إلا صُراخُ الأنفس الضارعه
إلا عُواءُ الذئابْ
فى عَطفة الوادى الشقىِّ الحزينْ
فى شاهقات الهضابْ
وحيثُ لاتُبَصرُ عينُ السنينْ
إلا أسى المتعَبينْ
قوافلٌ يحدو بها أشقياءْ
فى جنَّة من رخَاءْ
قوافلُ الجائعينْ
فى ذلك الوادى الخصيبِ التُرابْ
قوافلُ الظامئينْ
يلتمسونَ السَرابْ
والماءُ يجتاحُ انزلاقَ السنينْ
قوافلٌ للملالْ
يحرمُها الكدُّ نقاءَ الجبالْ
قوافلٌ مَجَّتْ رنينَ الفؤوسْ
وغيرُها للكؤوسْ
للنومِ والأحلام تحتَ الظلالْ
أنصافُ موتى لاتُحسّ الجمالْ

تفجَّرى يا مياهْ
تفجَّرى فوقَ قُبور البَشَرْ
تفجَّرى فى الصَخَرْ
وسجِّلى مأساةَ هذى الحياهْ
فوقَ جبينِ القَدَرْ
ما زالت القريةُ منذُ القدَمْ
أُقصوصةً ممزوجةً بالألَمْ
قصّت أساها الرياحْ
على شُحوبِ الصباح
تفجرى، سيلى وغطّى القمم
ألقِى على القصّة سترَ العَدَمْ
لا تذكرى هذا النشيدَ الحزينْ
ما كانَ إلا رجعَ صَوتٍ وهونْ
أصغتْ إليه السنينْ
فى لحظةٍ، ثم مَضتْ فى سُكون

سرسنك ١٩٤٨

وجوه ومرايا

يا كـؤوسَ الأحـلامِ يا من تخـيّلْـ ـتُك أفـقــاً تضـمّــهُ الأضــواءُ
آهِ لو تُـدْركـين كـيف أحسُّ الـ ـكونَ صحراءَ خلفَها صَحْراءُ
والرحـيـقُ الذي حَلُمْتُ به كـيـ ـفَ طـوتْهُ المرارةُ الخـرســاءُ
كيفَ حـينَ استلمتُ كـأسيَ أرسلْـ ـتُ دمـوعي ولم يُفِـدني ارتواءُ

ارتوائي؟ أوّاهُ من حُـرَقِ الرّو حِ لماذا تظَلُّ روحيَ ظمـأى؟
ارتوائي؟ هـذا السَّرابُ الـذي يرْ كضُ قـلبـي وراءَهُ وهْوَ ينـأى
ارتوائي حَـسِبْتُـهُ شفقـاً حُلْـ ـواً فلمّا دنوتُ لم أرَ شيـئـا
ليس إلا اللاشيءُ يصـدِمُ شـوقي ويُذيبُ الأحـلامَ جُـزْءاً فجـزءا

الفــراغُ الفــراغُ يقـتلُني أوّ اهُ لو كــان للوجــود وجــودُ
آهِ لو لـم تَحُـلْ مـواقـعُ أقـدا مي امـتـداداً حـدودُهُ اللاحـدودُ
السكـوتُ السكوتُ يَفْـغَـرُ فـاهُ وغـداً يـغـرُبُ الهَـوَى والنشـيـدُ
والظـلامُ الظـلامُ يُطفئُ عـيـنيَّ فـمـاذا أحسُّ؟ مـاذا أريدُ؟

أيّها الليلُ ليلَ روحيْ أما مِن   ملجأ من بُرُودة الظلماء؟
ظمأ صارخٌ بأعماقِ نفسي   لشُعَاعٍ مُسَلْسلٍ من ضياء
آه لو لم يَحُلْ رجائي الإلهيُّ   سَراباً ضَحْلاً وبعضَ عزاء
آه لو كانتِ السعادةُ شيئاً   غيرَ هذي الفُقَاعةِ السوداء

لقّبوها الحياةُ وهي اضطرابٌ   أبديٌّ ولهفةٌ لاتَقَرُّ
وامتدادٌ للاّنهايةِ لايبـ   ـدأ لاينتهي فأينَ المفرُّ؟
لقبّوني «أنا» ولم يفْهموني   ما أنا ما وجوديَ المكفهرُّ
أنا ماذا؟ تحرُّقٌ ليس يرتا   حُ وظلٌّ سُرعْانَ ما سيمرُّ...

في صفاء المرآة حدّقْتُ في طيـ   ـفي طويلاً والشكُّ في مقلتيّا
كائنٌ شاحبٌ يحدّقُ في وجـ   ـهيَ مثلي محيّراً مطويّا
هذه هذه أنا ليس من شكٍّ   فلم لا أمَسُّها بيديّا؟
لم لا أستطيعُ أن أَلْمسَ الذا   تَ؟ وأمحو تحرُّقي الأبديّا؟

ثم ماذا! أمُدُّ كفّيَ في شو   قٍ عميق فلا أعانقُ ذاتي
صدمةٌ صدمةٌ تمزّقُ روحي   ليس إلا بُرودةُ المرآة
الزجاجُ الجبّارُ شفّ ولكن   عن مثال مشوّهٍ للحياة
عن كيانِ رسمتُه أنا وحدي   فإذا غبتُ غابَ في الظُّلُمات

الكيـانُ الممسـوخُ ها أنا أمـحـو ... هُ كَـفـاهُ هُـزْءاً بنار أسـايا
ضـربةٌ مـن يدى تحطّمتِ المر ... آةُ فـوق الثَـرَى وعـادت شـظايا
ليتَنى كنتُ صُنتُها عادَ وجهى ... ألفَ وجـه تُطِلُّ منهـا الضَحـايا
ليتنى كنتُ صنتُها ليتنى أعـ ... ـلمُ كـيفَ المرآةُ عـادتْ مَـرَايا

١٩٤٧

قبر ينفجر

ناديتُ أكداسَ الرمالِ: تفجَّري لن تَدْفِني جَسدي النقيَّ الثائرا
وهتفتُ يا روحَ المماتِ: تمزَّقي لن تحبسي قلبي الجريءَ الساخرا
وصرختُ بالأرض الدنيئة: ارفعي من قلبِ هذا الطين روحي الشاعرا
هذا فؤادي نابضاً، هذا دمي متفجّراً تحتَ الترابِ مشاعرا

بالأمسِ في هذا الظلامِ دفنتني تحتَ الثَرىَ ولففتِني بصخُورهِ
لم تَسمعي دقّاتِ قلبي في الدُجى وأشحتِ عن إحساسه وشُعورهِ
لم تَفهمي روحي وخلتِ سكونَهُ موتاً ولم يبلُغْكِ رَجْعُ هديرِه
ووهمتِ أيتُها الحياةُ فلم تَرَى في أدمعي غيرَ الردَى وفتورهِ

ما نَفعُ أكداسِ التراب جميعها؟ الآنَ ينفجر التُرابُ الغاصبُ
الجُثة الظَمأى التي أودعتها بالأمس والوجهُ الكئيبُ الشاحبُ
الآنَ يَنْفجرانِ ناراً حيَّةً ويسابقُ الإعصارَ روحي الصاخبُ
والآن ينبثقانِ من قلبِ الثَرى ويعودُ لي الأملُ الجميلُ الذاهبُ

ما خلته صَخْراً إليك وجيبهُ | ما خلته صَمْتاً إليك نشيدهُ
القبرُ ضَجَّ وضاق تحتَ عواطفي | والطينُ حولي لن أُطيقَ رُكودَهُ
هذا الرَمادُ حذار من أعماقه | فوراءَهُ جمْرٌ نسيتِ رعودَهُ
يا من حَسبْتِ النارَ طيناً خامداً | ونسيتِ إعصارَ الصبا وخُلودَهُ

هذي العيونُ حذار منها، إنها | خلفَ الجفون عميقةٌ أغوارُها
هذي العروقُ حَذار من فَورانها | فغداً سيصرُخُ في المدى إعصارُها
هذي الشفاهُ حذار من سكَناتها | فغداً ستجتاحُ المدى أشعارُها
هذا الفؤادُ حَذارِ من غَفَواته | فوراءَ رقدته الحياةُ ونارُها

ناديتُ أكداسَ الرمال: تفجَّري | وهتفتُ يا روحَ الممات، تمزّقي
وصرختُ بالأرض الدنيئة ارفعي | أسْرَ التراب عن الشباب المرهَقِ
فإذا الحياةُ مُشيحةٌ عن صرختي | لم يأتها نَغَمُ اللهيب المُحرقِ
وأنا على صَدْرِ التُراب تمرّدٌ | حُرٌّ ونارٌ توثّبٍ وتحرّقِ

لم يبقَ إلا أن يحطِّمَ ساعدي | هذي القيودَ وها أنا، هذي يدي!
سأفجّرُ القبرَ الصغيرَ حجارةً | وأطيرُ من أمسي القريبِ إلى غدي
وسأصرعُ الموتَ الضعيفَ وأنثني | بمخاوفي وسعادتي وتنهّدي
وسأنثرُ الألحانَ في صمتِ الدجى | يا أنجمَ الليلِ المضيئةَ فاشهدي

ناديتُ أكداسَ الرمال تفجَّرى　　فتفجَّرتْ تحتَ المساء المُظلمِ
وجمعتُ أحلامى ومزَّقتُ الثرى　　بصفائها ووقفتُ تحتَ الأنجمِ
وفتحتُ صدرى للضياءِ وسحره　　وصرختُ بالكون الجميل الملهم
أنا حيّةٌ يا أرضُ، هذى نغمتى　　هذا نشيدُ فؤادىَ المتكلِّمِ

١٩٤٧

ذكريات

كـــانَ ليْلٌ، كـــانـتِ الأنجُمُ لُغـــزاً لا يُحَلُّ
كـان في روحيَ شيءٌ صـاغَـهُ الصـمتُ المُملُّ
كـان في حـسِّيَ تخـديرٌ ووعْيٌ مـضـمـحلُّ
كـان في الليلِ جُـمـودٌ لا يُطاقُ
كـانتِ الظُلمـة أسـراراً تُراقُ
كنتُ وحـدي لم يكـن يتـبَعُ خَطْوي غـيـرُ ظلي
أنا وحـــدي، أنا والليل الشــتـــائيُّ... وظـلي

لم أكـنْ أحلُمُ لكـن كـــانَ فـي عـــينيَّ شيءُ
لم أكـنْ أبسمُ لكـن كـــان فـي روحيَ ضـــوءُ
لم أكـنْ أبكـي ولكـنْ كـــانَ فـي نفـــسـي نَوْءُ
مـرَّ بي تذْكـارُ شيءٍ لا يُحَـدُّ
بعضُ شيءٍ مـــا لَهُ قـبلُ وبَـعْـدُ
ربَّمـــا كـــانَ خـــيـــالاً صـــاغَــهُ فكريْ وليـلي
وتـلفـتُّ ولكـنْ لم أقـــابـلْ غـــيــــرَ ظلي

كـان صـمْتٌ راكـدٌ حـولى كـصَمت الأبديَّه
مـاتت الأطيـارُ أو نـامتْ بأعـشـاش خَـفـيَّـه
لم يـكنْ ينطِقُ حـتى الرَغـبـاتُ الآدمـيَّـه
غيرَ صَوْتٍ رنَّ فى سَمْعى وذابا
لحظةً لـم أدرِ حـتى أينَ غـابا
آه لو أدركـتُ من ألـقـاهُ فى الـصَـمْتِ المُملّ
أتراني لم أكـنْ أمـشى أنا وحـدى وظلى؟

كـانـت الظُلْـمـةُ تمتـدُّ إلى الأفُقِ الغـريب
كلُّ شيء مـغـرَقٌ فـيـهـا كلقبى، كـشُحُوبى
ظلـمـةٌ ممتـدَّةٌ كـالـوهْمِ كـالموتِ الرهيبِ
غـيرَ ضـوْءٍ خاطـف مَرَّ بجَفْنى
لحظةً لم تَدْرِ مـاذا كَـانَ، عينى
كـانَ ضَـوءاً لونُهُ لونُ خَـيـال مـضـمـحلّ
مـرَّ بى لَمْـحـاً وأبـقـانى أنا وحْـدى وظلّى

كـان فى الجـوِّ الشـتـائىّ ارتعـاشٌ وجُـمُـودُ
جَـمَـدَ الظلُّ من الـبَـرْد وغـشَّـاهُ الركُـود
ليـلةٌ يرجـفُ فى أجـوائهـا حـتى الجليـدُ
غيرَ دفءٍ طاف فى قلبى الوجيعِ

فـزتُ فـيـه من شتـائـى بربيعِ
وإذا فى عُــمْق قلبى فـرحــةُ الفَــجْـر المطلِّ
غــيــرَ أنى كـنتُ فى الليلِ أنا وحــدى وظـلى

كــانَ فى روحى فَــراغٌ جــائعٌ كــاللاَّ نهــايه
كــانَ ظلى صــامــتــاً لا لحنَ لا رجْع حكـايه
باهـتــاً يتــبَعُ مَــسْــرَى خُطُواتـى دونَ غــايه
غيرَ كأسٍ عَـبَرت حين صرَخْتُ
قـطرةٌ واحِــــدةٌ ثـم ارتويـتُ
أتراهُ كـــانَ أكــذوبةَ إحــســـاسى المُضلِّ
أوَمــــا كنـتُ أنا وحـــدى مـع الليلِ وظـلِّى؟

كــان قلبـى مُـتــعَــبــاً يسكنُهُ حُــزْنٌ فظـيعُ
رقــصتْ فــيــه وشــدتَّه إلى الجُـرْح دُمــوعُ
صــوَرٌ فى قَــعْـره يـصبُغُ مـرآهـا النجــيعُ
كــانَ، لـكنَّ يداً مــرَّتْ عليــه
حــملتْ بعـضَ تحــاياها إليــه
باركــتْ آلامــهُ الســوداءَ كـــانت يدَ طـفلِ
أيُّ طفلٍ؟ لم يـكنْ فى الليل غــيــرى غـيــر ظلى

١٩٤٨

تهم

أعبِّر عمَّا تُحسُّ حياتي وارسمُ إحساسَ روحي الغريبْ
فأبكي إذا صدمتْني السنين بخَنْجرها الأبديِّ الرهيبْ
وأضحكُ مما قضاهُ الزمان على الهيكل الآدميِّ العجيبْ
وأغضَبُ حين يُدَاسُ الشعور ويُسْخَرُ من فَوَران اللهيبْ

أعبِّرُ عن كلِّ حسٍّ أَعيهْ
وأبكي الحياةَ ولا أُنْكِرُ
وأضحكُ من كلِّ ما تحتويهْ
وأغضَبُ لكنَّني أشعُرُ

يقولونَ شاعرةٌ في السَحاب تحلِّقُ خلفَ سَراب النجومْ
أنانيَّةٌ لا تُحسُّ الوجود وإن صرعتْهُ جبالُ الغمومْ
خياليَّةٌ تمقُتُ الكائنات وتخلُقُ عالَمها في الغيومْ
خريفيَّةٌ تكرَهُ الضاحكين لتدفِنَ جبهتها في الهُمومْ

أنانيَّةٌ وأحبُّ البَشَرْ
خياليَّةٌ وحياتِي تسيرْ
خريفيَّةٌ وأناجي الزَهَرْ
وعاطفتي لهَبٌ من شُعورْ

يقـــولونَ: عـــاشــقـــةٌ للظـلامْ تُحبُّ الدياجي وتَهْــوَى السُكونْ

وتنشــدُ أشـعـارَها للجـبـال وتَرسمُ أحـلامَـهـا للعـيـونْ

تحــبُّ الحـيـاةَ ولكنَّهـا تعـكِّرُها بخـيـال المُنـونْ

ترَى جـوَّها غـيـهـباً حـالكاً يضـيقُ بآثـامـهِ المُلْهَـمـونْ

أحــبُّ الظـلامَ ولـكـننـى
أثـورُ على كلِّ أحـلامكـم
أحبُّ الحـيـاةَ عـلى أننى
أحــقِّــرُ مــوكبَ أيامكم

يقــولونَ: جـامـدةُ الحسِّ تَحـيْـا مع الأمـس فى حُـلُمٍ جــامــدِ

يقـولون: صـوفـيَّـةٌ فـالحيـاةُ تنوحُ عـلى حِـسِّـهـا الخـامـدِ

عـواطفُـهـا جَـمَـدَتْ كـالنجوم كـتـهـويمـةِ القَـمَـرِ البـاردِ

وتحليـقُـهـا كـانَ ثم أمَّـحى على صَـدرِ إحساسهـا الراكـدِ

يقـــولـونَ لكنَّنى تـائهـــه
ألوذُ بصَـمتى الخـفىِّ الغـريبْ
أعـيشُ حـيـاتىَ كـالآلهـه
وقلبى شـعـورٌ وروحى لهـيـبْ

يقــولون دَعــهم غــداً يـعلمــون ودعنى أنـا للشَّــذى والجــمــالْ
أحبُّ الحــيــاةَ بـقلبى الـعــمــيق وأمــزُجُ واقــعــهَــا بالخـــيــالْ
أحبُّ الـطبــيــعـــةَ حبَّ جـنون أُحبُّ الـنخــيـلَ أُحبُّ الجــبــالْ
وأعــشَقَ ذاتى فــفى عــمــقـهــا خــيــالُ وجــودٍ عــمـيـقِ الظلالْ

وأهتُـفُ يا نارَ قـلبى الـغـــريبْ
ومــوجَ أحـاســيــسى الـثـائره
إذا اتهــمــوا فلــمــاذا أُجـيبْ
بغـيـرِ ابتـســامتىَ الســاخـرَه؟

١٩٤٧

رماد

أهكذا داستْ علينا الحياه ... لم تُبقِ منا صدَى
لم تُبقِ إلا النَدَمَ الأسودا ... وصوْتَ وا خيبتاهْ

أهكذا لم يَبْقَ إلا الرَمَاد ... فى الموْقد الذابلِ؟
أليسَ من كوكبنا الآفلِ ... إيماضةٌ تُستعادْ؟

أليس عنَّا نَبَأ أو نشيدْ ... أو هَمْسَةٌ واحده؟
ألم تَعُدْ قصَّتُنا البائده ... توقظُ عِرقاً جديدْ؟

ألم يَعُدْ قطٌّ لنا من مكانْ ... فى القصَّة الجاريه؟
أليسَ فى كاساتنا الخاليه ... شىءٌ يهمُّ الزمانْ؟

وذلك الموكبُ والسائرونْ ... فوقَ ثرَى المُنحدَرْ
لم يُدركوا أنَّ هَوانا اندثر ... فى عُمْق قبرِ السكونْ

ووقع أقدام الهَوَى الراحله ... إلى مكان بعيد
تنقُلُها الريحُ فلا تستعيدْ ... ألحانَها القافله

ونحن مــا زِلْنا نَجُــرُّ الحنينْ		والأمسَ والـذكــريـاتْ
أقــيـادُنَـا مــثــقَلَةٌ بـالحـيــاة		ونـحـنُ فى الميِّــتــيـنْ

ونحن مــا زِلنا نسـوق الرَّمــادْ		لـنُـطـعـمَ المـوْقـــدا
وأذرعُ الأحـــلام ترجـو سُــدَى		خَلْقَ غَـــدٍ من جـــمـــادْ

وبعثَ مـــاضٍ لـونُ أركــــانه		مِنْ مــــزَقِ الأحـــلامْ
أمـــسَى رهيــبـــاً تُنكِرُ الأيامْ		عـــارىَ جُـــدْرانِه

أمــسَى بعـيـداً تحـجُـبُ الوديانْ		أســـوارَهُ الـقـــاتمـه
تعـيثُ فـيـه الهـدأةُ الساهمـه		ويـحـكُمُ النـســيـــانْ

والـرِّيـحُ لـم تُـبْـقِ عـلـى بـابِـه		حُــروفَ أســمـــائنا
لم تُـبْقِ حـــتـى وقْعَ أقــدامِـنا		فـي جَــوِّ مـــحــرابِه

وربَّـمـــا طافتْ بـه فى ذُهُـولْ		أشــبـــاحُنـاَ البـــاكـيــه
تطوفُ حـولَ الغُـرَفِ الخـاليـة		سُـــدىً تُـريدُ الـدُخُـــولْ

أشـبـاحُنا يُـضلُّهـا الإعــصـارْ		تحتَ غـــلاف الـضـبـَّـــابْ
تَـظَـلُّ ولـهـى تـلـطُـمُ الأبـوابْ		والحــــائطَ المُـنْـهـــارْ

أشباحُنا حافرةٌ فى ارتعاد مقبرةَ الذكرياتْ
لا صورةٌ تنبُض فيها حياة لا شىءَ غير الرمَّادْ

تُنصتُ فى رُعْب وفى إعياءْ عند السياجِ الحزينْ
فلا تعى إلا بقايا أنينْ تُرسِلهُ الأقباء

أشباحُناَ تستفهمْ النسيانْ عن أمسها الضائعْ
فلا تَرىَ إلا الردَىَ الجائعْ يقوِّضُ البُنيْان

وأذرعُ السَروْ تَمُدُّ الذُهُولْ فوق شُحوبِ الخرابْ
كأنها تَقْذِفُ فوقَ القُباب مَعْنى الرَدَى والذُبولْ

ولفظةٌ واحدةٌ واحده تكرَّرتْ فى المَكانْ
سمعتُها تفحُ كالأفعوان فى الشُرف الباردة

أبصرتُها مكتوبةً باللهيبْ فى الغُرَف البالية
وفوقَ ساقِ السرْوة العاريه وفى القِناءِ الجديبْ

أحسستُها تَهمس معنىً «مَضى» ملءَ المساء الكئيبْ
أبصرتُها فى كلِّ ركنٍ رهيبْ أبصرت لفظَ «انقضى»

وتلتــقى أشــبــاحُنا فى المَســاءْ　　بــاردةً واجــــــمــــــه
تنـظُرُ فى تقـطيــبـةٍ ســاهمــه　　فى سَـــوْرةٍ من غـــبــاءْ

أشــبــاحُنا تطـلُبُ مــاضــينا　　لا تُــدْركُ الأســــــرارْ
كـيف انقـضى؟ ألم يعـدْ فى الدارِ　　صــــــوْتٌ يـنــادينــا؟

أهكـذا داستْ علـينـا الحــيــاه　　لــم تُبـقِ مـنـا صَــــدَى؟
لـــم تُـــبْــقِ إلا الــنَــدَمَ　　وصــوْتَ واخــيــبــتــاه؟

١٩٤٨

الخيط المشدود فى شجرة السرو

-١-

فى سَوادِ الشارعِ المُظلم والصمتِ الأصمِّ
حيثُ لا لونَ سوى لونِ الدياجى المدلهمِّ
حيثُ يُرخى شجرُ الدُفلى أساهُ
فوقَ وجه الأرضِ ظلاً،
قصةٌ حدّثنى صوتٌ بها ثم اضمحلا
وتلاشتْ فى الدّياجى شَفتاهُ

-٢-

قصةُ الحبِّ الذى يحسبه قلبكَ ماتا
وهو ما زالَ انفجاراً وحياةَ
وغداً يَعصرُكَ الشوقُ إليَّا
وتنادينى فتَعيَى،
تَضغَطُ الذكرى على صَدرِكَ عبئا
من جنون، ثم لا تَلمُسُ شيئا
أيُّ شيءٍ حُلمٌ لفظٌ رقيقُ
أيُّ شيءٍ، ويناديكَ الطريقُ
فتُفيقُ.

ويراكَ الليلُ في الدَرْب وحيدا
تسألُ الأمسَ البعيدا
أن يعودا
ويراكَ الشارعُ الحالمُ والدُفْلى، تسيرُ
لونُ عينيك انفعالٌ وحبورُ
وعلى وجهك حبٌّ وشعورُ
كلّ ما في عمق أعماقكَ مرسومٌ هناكْ
وأنا نفسي أراكْ
من مكاني الداكن الساجي البعيدْ
وأرى الحُلُمَ السعيدْ
خلفَ عينيكَ يُناديني كسيرا
.... وترىَ البيتَ أخيرا
بيتنا، حيثُ التقينا
عندما كان هَوانا ذلك الطفلَ الغريرا
لونُهُ في شفتَينا
وارتعاشاتُ صباهُ في يَدَيْنا

-٣-

وترى البيتَ فتبقى لحظةً دونَ حراَكْ:
«ها هو البيتُ كما كان، هناك

لم يزلْ تحجبهُ الدفلَى ويحنو
فوقَهُ النارنجُ والسروُ الأغنُّ
وهنا مجلسنا...

ماذا أُحسُّ؟

حَيرةٌ فى عُمق أعماقى، وهمسُ
ونذيرٌ يتحدَّى حُلمَ قلبى
ربما كانت... ولكن فيمَ رُعبى؟
هى ما زالتْ على عَهد هوَانا
هى ما زالت حَنانا
وستلقانى تحاياها كما كنا قديما
وستلقانى....».

وتمشى مطمئناً هادئا

فى الممرِّ المظلم الساكن، تمشى هازئا
بهتاف الهاجسِ المنذر بالوَهم الكذوب:
«ها أنا عُدت وقد فارقتُ أكداسَ ذنوبى
ها أنا ألمحُ عينيك تُطلُّ
ربما كنت وراءَ البابِ، أو يُخفيكِ ظلٌّ
ها أنا عُدتُ، وهذا السلَّمُ
هو ذا البابُ العميقُ اللونِ، مالى أحجمُ؟
لحظةً ثم أراها

لحظةً ثم أعى وَقْعَ خُطاها
ليكن.. فلأطرقِ البابَ...»
وتمضى لَحظاتْ
ويَصرُّ البابُ فى صوت كئيب النَّبَراتْ
وتَرى فى ظُلْمة الدهليزِ وجهاً شاحبا
جامداً يعكسُ ظلاً غاربا:
«هلْ...؟» ويخبو صوتُكَ المبحوحُ فى نَبرٍ حزينْ
لا تقولى إنها...»
«يا لَلجنونْ!
أيها الحالمُ، عَمَّن تسألُ؟
إنها ماتتْ»
وتمضى لحظتانْ
أنت ما زلتَ كأنْ لم تسمعِ الصوتَ المُثيرْ
جامداً، تَرْمُقُ أطرافَ المكانْ
شارداً، طرفُكَ مشدودٌ إلى خيطٍ صغيرْ
شُدَّ فى السرْوة لا تدرى متى؟
ولماذا؟ فهو ما كانَ هناكْ
منذُ شهرينِ، وكادتْ شفتاكْ
تسألُ الأختَ عن الخيطِ الصغيرْ
ولماذا علّقوهُ؟ ومتى؟

ويرنُّ الصوتُ فى سمعكَ: «ماتتْ..»
«إنها ماتتْ..» وترنو فى برودِ
فترَى الخيطَ حبالاً من جليدِ
عقدتها أذرُعٌ غابت ووارتها المَنُونْ
منذ آلاف القُرونْ
وتَرى الوجهَ الحزينْ
ضخَّمَتْهُ سحُبُ الرُّعب على عينيكَ، «ماتتْ..»

-٤-

هى «ماتتْ..» لفظةٌ من دونِ معنى
وصَدى مطرقة جوفاءَ يعلو ثم يَفنى
ليسَ يعنيكَ تَوَاليه الرتيبُ
كل ما تُبصرُهُ الآن هو الخيطُ العجيبُ
أتراها هى شَدَّتهُ؟ ويعلو
ذلك الصوتُ المُملُّ
صوتُ «ماتت» داوياً، لا يضمحلُّ
يملأُ الليلَ صُراخاً ودويا
«إنها ماتت» صَدىً يَهمسهُ الصوتُ مليا
وهُتافٌ رددته الظلماتُ
وَرَوتهُ شجراتُ السرو فى صَوتٍ عميقِ

«إنها ماتت» وهذا ما تقولُ العاصفاتُ
«إنها ماتت» صَدَى يصرخُ فى النجم السحيقِ
وتكادُ الآن أن تسمعهُ خلفَ العروقِ

-٥-

صوتُ ماتتْ رنَّ فى كلِّ مكانِ
هذه المطرقةُ الجوفاءُ فى سَمع الزمانِ
صوتُ «ماتت» خانقٌ كالأفعوان
كلُّ حرف عصبٌ يلهثُ فى صَدرِكَ رُعبا
ورؤى مشنقة حمراءَ لا تملكُ قلبا
وتجنّى مخلبَ مُختلجٍ ينهشُ نهشا
وصَدَى صوتٍ جحيميٍّ أجَشا
هذه المطرقةُ الجوفاءُ: «ماتت»
هى ماتت، وخلا العالمُ منها
وسَدىً ما تسألُ الظلمةَ عنها
وسَدىً تُصغى إلى وَقع خُطاها
وسُدَىً تبحثُ عنها فى القمر
وسدىً تحلُمُ يوماً أن تراها
فى مكانٍ غير أقباء الذكَرْ
إنها غابتْ وراءَ الأنجُمِ

واستحالتْ وَمضةً من حُلمِ

-٦-

ثم ها أنتَ هُنا، دونَ حَراكْ
مُتعَباً، توشكُ أن تنهارَ فى أرضِ الممرّ
طرفُكَ الحائرُ مشدودٌ هناكْ
عند خيط شُدَّ فى السروة، يطوِى ألفَ سرّ
ذلك الخيطُ الغريبْ
ذلك اللُغزُ المُريبْ
إنه كلُّ بقايا حبِّكَ الذاوى الكئيبْ.

-٧-

وَيراكَ الليلُ تَمشى عائدا
فى يديكَ الخيطُ، والرعشةُ، والعرقُ المُدَوِّى.
«إنها ماتتْ..» وتَمضى شاردا
عابثاً بالخيط تطويه وتَلوى
حولَ إبهامكَ أُخْراهُ، فلا شيءَ سواهُ،
كلُّ ما أبقى لكَ الحبُّ العميقُ
هو هذا الخيط واللفظُ الصفيقُ
لفظُ «ماتت» وانطوى كلُّ هُتافٍ ما عداهُ

١٩٤٨

للقارئ

وردت فى سياق القصائد بضع كلمات أوربية، قد يهم القارئ أن يقرأ لكل منها شرحاً موجزاً:

يوتوبيا Utopia

كلمة إغريقية معناها «لا مكان» استعملتها للدلالة على مدينة شعرية خيالية لا وجود لها إلا فى أحلامى، ولا علاقة لهذه المدينة بيوتوبيا التى تخيلها الكاتب الانكليزى توماس مورفى فى كتاب ألفه باللغة اللاتينية سنة ١٥١٦ ورسم فيه صورة سياسية ادارية للجزيرة المثلى كما يريدها هو، قياساً على جمهورية أفلاطون.

ديانا Diana

عند اليونان القدماء، إلهة القمر، وحامية الصيد، كانوا يتخيلون أنها تسوق عُربة القمر البيضاء كل مساء عبر السماء.

نارسيس Narcisse

زهرة النرجس فى الأساطير اليونانية القديمة، إن نارسيس كان شابا فاتنا شديد الغرور بجماله، فعاقبته الآلهة على كبريائه بأن جعلته يعشق صورته، بعد أن رآها منعكسة فى ماء بحيرة صافية ذات يوم، ثم رقت له فحولته إلى الزهرة التى مازالت تحمل اسمه.

ابولو Apollo

إله الوحى والفن، وقائد عزبة الشمس فى الفضاء عند قدماء الإغريق، وهو شقيق ديانا التى مر ذكرها.

لابرنث Labyrinth

كلمة إغريقية الأصل، معناها بناء ذو مسالك معقدة وأبواب لا حصر لها، متصلة بعدد كبير من الممرات والدهاليز والأقباء، بحيث إذا دخله إنسان لم يملك الخروج منه.

وقد استعملت هذه اللفظة فى قصيدة «الأفعوان» اسما لطريق شيده «أمير غريب الطباع، ثم مات الأمير... وأبقى الطريق..» وربما كان باعث كلمة أمير فى ذهنى، اقتران كلمة- لابرنثوس- بشبه حكاية أسطورية تتعلق بتاريخ مصر القديم، فقد حكى عن هيرودوتس أنه حين مرّ بمصر رأى بناء غريباً هائل الضخامة أشبه بلغز كبير محيّر، من دخله لم يجد مخرجاً منه، شيده أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ومن يدرى؟ لعل الملك الذى شيد هذا البناء أراد أن يتخذ منه مخبأ لا يدركه فيه «أفعوانه» الخاص.

هياواثا Hiawatha

بطل أسطورة من أساطير هنود الشمال فى أمريكا أختارها الشاعر الأمريكى لونكفلو موضوعاً لملحمة شعرية كتبها سنة ١٨٥٥، والجزء الذى تهمنا الإشارة إليه من هذه الملحمة، أن زوجة هياواثا الشابة قد ماتت على أثر شتاء قاس انشب ثلوجه وأعاصيره فى القرية، منزلا بسكانها الجوع والحمى والموت؛ ولذلك استعملت كلمة «هياواثا» فى قصيدة «النكن اصدقاء» رمزاً لصرخات الاستغاثة والشكوى فى أرض يموت سكانها مدفونين فى الثلج جائعين محمومين.

فهرست

مأساة الحياة

أغنية للإنسان(١)

أغنية للإنسان(٢) ٢١٧

عاشقة الليل

شظايا ورماد

في عام ١٩٤٧ صدرت لي أول مجموعة شعرية. وقد سمّيتها «عاشقة الليل» لأن الليل كان يرمز عندي إلى الشعر، والخيال، والأحلام المبهمة، وجمال النجوم، وروعة القمر، والتماع دجلة تحت الأضواء. وكنت في الليل أعزف على عودي في الحديقة الخلفية للبيت بين الشجر الكثيف، حيث كنت أغني ساعات كل مساء. وقد كان الغناء سعادتي الكبرى منذ طفولتي، وكنت أحبس أنفاسي إذا ما سمعت صوت عبد الوهاب، أو أم كلثوم يحمله إليّ جهاز حاكٍ (غرامافون) يدور في بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ لأي أغنية أسمعها، وكانت أمي لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندما تسمعني أغني، وما زلت أذكر صوتها في صغري وهي تتلفت، وتقول: يا إلهي! من أين حفظت ابنتي كل هذه الأغاني؟ ومتى سمعتها؟ وكيف؟ ولم تدر أنني كنت حين أسمع حاكيًا يدور بأغنية أقف مسمَّرة في مكاني حتى لو كنت في الشارع.

وفي تلك الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحياة في العراق طبعًا، فكان الاستماع إلى الأغاني لا يتم إلا عن طريق الإسطوانات، ولم تبدأ إذاعة بغداد البث إلا في سنة ١٩٣٥، كما أتذكر، يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر.

نازك الملائكة

المجلس الأعلى للثقافة